تاريخ المغول والعالم الإسلامي
٣

حياة «جنكيز - خان»

الإداريّة والسّياسيّة والعسكريّة

تأليف
الأستاذ الدكتور ب. يا. ڤلاديمير ستوف

ترجمهُ مِنَ اللّغةِ الرّوسيّة إلى الإنجليزيّة
الأميرُ د. سْ. ميرْسكي

وترجمهُ مِنَ اللّغةِ الإنجليزيّة إلى العربيّة
الدّكتور سعْد بن محمّد حذيفة الغامِديْ

أبو حذيفة محمّد

بسم الله الرحمن الرحيم

حَيَاة
«جَنكيز - خَان»

الإداريّة وَالسّياسيّة وَالعَسكريّة

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمترجم إلى اللغة العربية، وغير مسموح بطبع أو بترجمة أو بنشر أي جزء من أجزاء هذا الكتاب؛ كما أنه غير مسموح بنقله على أية صورة، أو بأية وسيلة كانت، سواء كان ذلك الكترونياً، أو على شرائط ممغنطة، أو آلية «ميكانيكية»، أو كان ذلك استنساخاً، أو تسجيلاً، أو غير ذلك، دون أخذ السماح، وبإذن خطي، من المترجم من اللغة الانجليزية إلى العربية.

يطلب الكتاب فقط من المترجم، على عنوانه التالي:
د - سعد محمد حذيفة الغامدي،
قسم التاريخ، كلية الآداب،
جامعة الملك سعود،
الـــرياض
المملكة العربية السعودية.

الإهـــداء

إلى رفيق صباي، صديقنا الجليل الأستاذ الناقد / عبد الله بن حسين بن صالح الغامدي[1]، أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع؛ وذلك اعترافاً له بجهوده المشكورة ومساهماتـه الكبيرة التي لا ينضب لها معين، والتي تساعد في سرعة انجاز ما أقوم به من أبحاث علمية، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

سعـد

---

(١) الأستاذ عبد الله حسين، ناقد أدبي معروف، تدرج في عدة مناصب في شركة الزيت «أرامكو»، ويشغل في الوقت الحاضر منصب رئيس تحرير قافلة الزيت. وقد واصل تحصيله العلمي، إلى جانب عمله في الشركة،وهو الآن في طريقه للحصول على درجة الماجستير من جامعة ميشيگن في الولايات المتحدة.

شُكْرٌ وَتقْدِيرٌ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله (ﷺ)؛ سبحان الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ وتعالى جل من قائل: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير**﴾.[1]

وبعد، فمرة ثالثة، أتقدم بجزيل الشكر وأجل التقدير لأخي ورفيق صباي، سعادة الأستاذ عبد الله حسين صالح الغامدي للمساهمة الفعالة التي بذلها معي ولقراءته لبعض فصول هذا الجهد المتواضع، الذي أقدمه للقراء عامة ولأخوتي أصحاب التاريخ على وجه الخصوص؛ كما أقدم خالص شكري إلى الاخوة: مبلول العطا المبلول، وأحمد عزام، ومصطفى السلع على جهودهم الطيبة المشتركة التي بذلوها مساهمة منهم في سرعة إخراج هذا الكتاب.

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أشكر الأخ الأستاذ عبد العزيز بن عبد الكريم التويجري والأخ الأستاذ سليمان الفضل لما بذلاه خدمة لكاتب هذا البحث.

---

(١) سورة الحجرات، آية ١٢.

كما أشكر الأخ الأستاذ خلدون عبد الله الدوجي، مندوب مؤسسة الرسالة لروحه السمحة الطيبة وما يقدمه من خدمات للباحثين. كما أشكر مؤسسة الرسالة لكونها تبنت طبع هذا الكتاب، ومن ثم إخراجه في هذه الطباعة الأنيقة وبشكله القشيب هذا.

والله أدعو أن يثيب كل من ساهم، بأي شكل من الأشكال، في هذا العمل، خير الثواب وأن يجزيهم الجزاء الأوفى. والله من وراء القصد، وهو يتولى الصالحين.

الرياض، الدرعية،

في يوم الأربعاء ١٧ / شعبان/ ١٤٠٢ هـ

المقـــدمة

في القرن الثالث عشر (الميلادي / السابع الهجري) أسس المغول، الذين كانوا يعيشون في السهوب والهضاب الواقعة إلى الشمـــال من (الأراضي) الصينيـــة، لهم أمبـــراطـــوريـــة؛ تلك الأمبراطورية التي ضمت تحت نفوذها أمماً ذات حضارات عريقة، إذ استطاعت أن تمد سلطانها بسرعة مذهلة، خلال فترة زمنيـة قصيرة، حتى شملت أراضيها الجزء الأعظم من قارة آسيا، ثم طفحت إلى داخل (القارة) الأوروبية، فضمت تحت سلطة دولة واحدة حضارات الشرقين الأقصى والأدنى، فأصبحت بذلك أكبر امبراطورية عرفها تاريخ البشرية على الاطلاق. وعلى الرغم من أن هذه الامبراطورية كان قد أسسها قوم من البدو، وتكونت من عناصر متباينة أشد التباين، ومختلفة المشارب والأصول، إلا أنها نجحت نجاحاً كبيراً في أن تحافظ على وحدتها متماسكة لوقت طويل، وحتى عندما قسمت إلى عدة أجزاء بين الفروع الرئيسية الكبرى من أسرة مؤسسها (جنكيز ـ خان) فإنها عاشت كوحدة مثالية في هذا الميدان، إذا ما قورنت بغيرها من العديد من الممالك المختلفة. وفي حقيقة الأمر، فإن المغول قد تركوا أثرهم العميق في تواريخ جميع أمم العالم القديم بأسره.

إن الأمم المتحضرة في القارة الأسيوية، سواء من الأمم التي

أخضعها المغول تحت سلطانهم أو من تلك التي احتكت بهم بشكل مباشر أو غير مباشر، لم تتخلف في أن تصبح ممن تأثر بمصير وتاريخ هذا الجنس(الغريب وغير المعروف) وبقائدها المهيب ـ جنكيز ـ خان. ان المؤلفات التي تروي قصة بزوغهم من ذلك الغموض المطبق، الذي اكتنف ماضي أولئك القوم، والتي تحكي حملاتهم العسكرية وفتوحاتهم، قد كُتِبت في أراضي الصين، وفي التركستان، وفي غرب قارة آسيا، وفي أرمينيا، وفي جورجيا. وتمثل هذه المؤلفات المصادر (الأولية) لمعلوماتنا فيما يتعلق بشخصية جنكيز ـ خان، وعن المغول(١٠ م) خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر (الميلاديين / السادس والسابع الهجريين). ومع ذلك، فإن هناك حقيقة ثابتة (لا بد وأن تؤخذ بعين الاعتبار) وهي أن تلك المصادر يجب أن تؤخذ جميعها على أنها وثائق تاريخية يمكن الاعتماد عليها. لذلك فإنه يتحتم علينا أن نعالج المعلومات التي أوردتها هذه المصادر بنفس الطريقة التي نستقي بها معلوماتنا مما أوردته المصادر التي ألفها مؤرخون أوروبيون، بحيث نضعها تحت مجهر البحث والنقد الدقيقين، وذلك حتى نتوصل إلى معرفة لماذا، وتحت أية ظروف وملابسات كتبت تلك المصادر. لقد جعل هذا النوع من العمل النقدي المستشرقين الأوروبيين يتوصلون إلى الحقيقة التي مؤداها أن المصادر الأكثر أهمية عن حياة وزمان جنكيز ـ خان هي المصادر التالية:

(١) جامع التواريخ، للمؤلف الفارسي، رشيد الدين، ذلك العمل الكتابي الشامل والواسع النطاق، الذي ألف في أوائل القرن

الرابع عشر (الميلادي / الثامن الهجري) والذي اعتمد بشكل أساسي على المعلومات التقليدية المنقولة عن المغول ـ سواء بشكل رسمي أو غير ذلك.

(٢) التاريخ السري لقوم المغول؛ دُونَ هذا السجل (التاريخي) في منغوليا في القرن الثالث عشر (الميلادي / السابع الهجري) ونشر في الصين في القرن الرابع عشر (الميلادي / الثامن الهجري).

(٣) التاريخ الرسمي لسلالة المغول (يوان) في الصين، حيث أُلِّف باللغة الصينية في القرن الرابع عشر (الميلادي / الثامن الهجري).

(٤) مصادر عديدة ألفها مؤرخون مسلمون معاصرون للغزو المغولي: (أ) المؤلف التاريخي العربي اللغة لابن الأثير، حيث كتب في العراق (ألفه صاحبه في الموصل)؛ (ب) طبقات ناصري (باللغة الفارسية) الذي ألفه الجوزجاني، حيث عاش في أفغانستان وكتب تاريخه هذا بالفارسية في الهند في سنة ١٢٦٠ (ميلادي / ٦٥٨ هجري) (١١ م)؛ (جـ) تاريخ فاتح العالم (باللغة الفارسية) الذي ألفه الجويني، حيث كتبه في عام ١٢٦٠ (ميلادي / ٦٥٨ هـ). وعلى الرغم من أن الجويني كان أصغر سناً من الجوزجاني إلا أنه كتب مؤلفه قبل انحلال الامبراطورية المغولية، لذلك فقد استطاع أن يزور التركستان، ومنغوليا، وأن يستفيد من المصادر المغولية، سواء ما كان منها شفهياً أو ما كان مكتوباً.

(٥) التقارير التي كتبها الرحالة الصينيون، وما دونه كبير الرهبان الطاوي (الكونفوشيوسي) تشئنك ـ تشئون[١].

وكما شاهدنا، فإن المغول أنفسهم كانوا يملكون آداباً تاريخية معتمدة في تأليفها بشكل أساسي على التقاليد، والأساطير التي قدر أن تخضع للكتابة. وبالنسبة لنا فإن ما كتب في هذا المضمار كان بالإمكان أن يشكل أهم المصادر لمعلوماتنا في هذا الشأن، إلا أن الجزء الأكبر من هذه المصادر قد فقد، ولم يطلعنا على وجود مثل تلك المصادر إلا ما نقلته، أو ما ذكرته المصادر التاريخية الصينية والإسلامية. ويمكن أن يستثنى من ذلك كله مؤلف التاريخ السري للمغول، الذي يرجع إلى الوراء، في شكل ملحمة شعرية متناقلة، وما تناقلته الأساطير عن أعمال جنكيز ـ خان البطولية، وحملاته العسكرية الرائعة. على الرغم من أن الرحالة الأوروبيين، الذين زاروا منغوليا في القرن الثالث عشر (الميلادي / السابع الهجري) ـ الراهب جون البلانو الكربيني، وروبروك، وماركوبولو ـ لم يقدموا لنا معلومات إضافية ذات أهمية خاصة، سواء فيما يتعلق بجنكيز ـ خان، أو ما يخص عصره، إلا أننا مدينون لهم بما قدموه لنا من تقارير جيدة عن الأقطار، وطريقة عيش، وعن عادات أولئك القوم الذين شاهدوهم (أثناء قيامهم برحلاتهم تلك)، كما أن هذه التقارير تمثل الجانب (١٢ م) الأعلى من الأهمية في اعادة بناء وترتيب عصر الفتوحات المغولية في المجرى الصحيح من خلال

---

(١) لمعلومات وافية عن هذه المصادر التاريخية وغيرها، انظر كتاب المترجم «سقوط الدولة العباسية» مطبعة دار الرسالة، بيروت، ١٤٠١ هـ ص .ص : ٢٥ ـ ٤٩ (المترجم إلى العربية).

وجهة المنظار التاريخي القويم.

لذلك، فإن المؤرخين الأوروبيين والشرقيين، قد استفادوا من هذه التقارير والمصادر الأخرى؛ فكتبوا مؤلفات بأعداد كبيرة حول تاريخ المغول، وعن جنكيز ـ خان. ولعل تاريخ المغول، الذي قام بتأليفه دوسون (باللغة الفرنسية، طبعة هيك، ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥)، ومؤلفات: ف. ف. بارتولد، التابع للأكاديمية العلمية السوفيتية في لينينگراد، وخاصة مؤلفه تركستان في عهد الغزو المغولي[1]، تمثل الجانب الأكبر من الأهمية.

على أنه يجب أن نعترف بأنه مهما كانت المراجع التي نمتلكها بين أيدينا الآن قَيِّمة، ورغم كل ما قيل، وجميع ما عمل، فإننا لا نملك سوى تفاصيل تاريخية هزيلة لاعادة بناء وترتيب معلومات تتعلق بحياة الفاتح العظيم، وعن جوانب شخصيته، أو عما كان يجري بخلده أو ما ينتابه من أحاسيس ومشاعر، أو عن الأفكار أو الخطط التي كانت تلهمه. لأن البعض من تلك الجوانب الهامة جداً لم يصل إلينا، ولم نعثر عليه (مثل المسألة التي تتعلق بقوانين جنكيز ـ خان، والياسا أو اليساق المشهورة)؛ بينما نجد أن مصادر أخرى على جانب كبير من الأهمية ما زالت باقية لم تنشر، ولم تترجم، ولم تدرس. ومع ذلك، فإنه بفضل وجود تلك المصادر التي ذكرنا تعدادها أعلاه، أصبح بالامكان،

---

(١) اسم الكتاب «التركستان حتى الغزو المغولي»، أُلِّف باللغة الروسية، طبع سنة ١٩٠٠ م، وترجم إلى اللغة الانجليزية في عام ١٩٢٨ م، في سلسلة ذكرى جب (وهو مترجم إلى اللغة العربية).

حتى وإن كان ذلك بشكل خطوط عامة وعريضة، أن نعيد ترتيب الحقيقة التاريخية حول شخص جنكيز ـ خان (صاحب العبقرية الفذة)، التي بنت امبراطورية كان لها ذلك التأثير العميق بحيث وجهت مصير ومقدرات العالم بأسره في زمانه .

ـ ١ ـ

«المغول في القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري)»

(١) الاقليم الذي يشكل في الوقت الحاضر اقليم منغوليا والحزام الجنوبي من سيبيريا، الواقع إلى الجهة الشمالية من الأراضي الصينية وإلى الجهة الشرقية من اقليم التركستان، هو أراضي كانت تقطنها مجموعة من القبائل البدوية في القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري). وكان أغلب هذه القبائل مغولاً؛ ولكنهم لم يتبنوا هذا الاسم ويصبحوا معرفين به إلا فيما بعد، حيث أطلقه الأوروبيون عليهم في الوقت الحاضر أيضاً. وهناك العديد من السمات والشواهد المتعلقة بالأعراق البشرية، وخاصة ما يتعلق منها بلغتهم، تدل على أن المغول ينتسبون، إلى حد قريب جداً، بالعنصر، أو الجنس، التركي، كما تجعلهم كذلك قريبي الصلة بأجناس قوم آخرين، كمجموعة الشعب المنشووي (المنشورى) أو التنگوت.

وكان يعيش أسلاف المغول، في القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري)، منقسمين إلى وحدات صغيرة بشكل قبائل (أموك)، وهذه الوحدات الصغيرة منقسمة بدورها إلى أقسام أصغر في شكل فخوذ أو (مجموعات ذات صلات

وروابط اجتماعية فيما بينها) (يسون ـ Yasun)، وفي كثير من الأحايين يلتحم العديد من القبائل فيما بينها، بحيث تصبح في مجموعها تمثل قبيلة كبيرة واحدة، أو أمة صغيرة (أولوس ـ Ulus). إن مثل هذا النوع من الاتحادات الائتلافية أصبح موجوداً لأسباب كثيرة ومتباينة، كما أن تلك الاتحادات كانت تأخذ أشكالاً متشعبة بتعدد الأسباب.

(٢) ومع ذلك، فإن المغول كانوا يتأثرون في أغلب الأحايين، بقائد عسكري، إذا ما نبغ في هذا المضمار رجل من بينهم؛ أو إما أن ينجذبوا بتأثير قبيلة معينة لسبب أو لآخر، وذلك لأن تلك القبيلة كانت تتمتع بقوة وتأثير استثنائيين، فالتحمت في شكل كتلة سياسية ممثلة في العديد من العشائر والقبائل. وفي حالات أخرى فإنه قد يحدث أن تجتمع القبائل، ذات العلاقات النسبية المتقاربة، فَتُكَوِّنُ فيما بينها، اتحاداً قبلياً فدرالياً، رغم أنها لم تكن قد أخذت بالضرورة أشكالاً سياسية محددة المعالم أو المعنى. فالشعور بالقربى أو الإحساس به، أو وجود تطابق في اللهجة، أو أن يكون هناك عادات وقوانين عامة مشتركة بينها، كل هذه أسباب كافية لأية قبيلة صغيرة لتشعر بأنها نفسها تكاد تكون جزءً لا يتجزأ من وحدة قبيلة أكبر. أما العلاقة الطبقية لكل فخذ بالنسبة إلى القبيلة (أولوس ـ Ulus) أو القبيلة الواحدة بالنسبة لمجموعة القبائل المتحدة (أول ـ óL) فإنها شبيهة بتلك العلاقة التي تربط العضو المنفرد الواحد بغيره من أعضاء الأسرة أو ذوي القرابة أو الرحم بالنسبة إلى القبيلة في مجموعها.

ترجع العشائر والقبائل المغولية في مجموعها إلى قسمين كبيرين بارزين: قسم من هذه القبائل أو العشائر ينتمي في حرفته إلى الرعاة في السهوب، والقسم الثاني هم فئه الصيادين داخل الغابات والأدغال. كان كلا القسمين يتكلمان لهجات محلية تقع جميعها في الاطار العام للغة المغولية؛ إلا أن كل قسم منها يختلف بشكل رئيسي عن الآخر من حيث نمط حياتهم والمستوى الثقافي الذي يعيشه كل واحد من هذين القسمين. وفوق هذا، فإن هذه القبائل لا يظهر بأنه كان لديها أي إحساس، أو شعور بأنها ذات أصل مشترك؛ فلم يعتبروا أنفسهم يمثلون أمة واحدة، كما أنهم كانوا يظنون بأنهم لا ينتمون إلى اسم عرقي مشترك. فالعشائر الفردية القائمة بذاتها ـ وخاصة تلك العشائر الرعوية ـ كان لديها أسرة ذات علاقة بالحكم (أرستقراطية) (كقاعدة تسير على منوالها) تتصدر بقية الأسر، كأسرة حاكمة على بقية أسر العشيرة، ومن بين أعضاء تلك الأسر الحاكمة كان يبرز إلى الوجود شخصيات قيادية، يحمل الأفراد منهم ألقاباً معينة، مثل: بطل (بهادر)؛ وحكيم (سِتِشِنْ)؛ وعاقل (بيلجي)؛ ـ (٣) وأمير (تئي ـ تسي)؛ وقائد أو نبيل (نويان). أما بالنسبة لرؤساء القبائل الكبيرة، أو قادة الاتحاد الكنفدرالي (أولوس Ulus)، فإنهم يحملون لقب ملك (خان) أو لقب امبراطور (خاقان)[1]. وكثيراً ما كان يتلقى أولئك الملوك

(١) يعتبر لقب الخان أقل من لقب خاقان. وقد تلقب رؤساء الأراضي الأميرية المغولية الذين تفرعوا من أسرة جنكيز خان بلقب خان، وكانوا يخضعون، وإن كان بصفة اسمية على أقل تقدير، للرئيس المغولي الأعلى المتربع على عرش المغول في عاصمتهم قرا ـ قروم في منغوليا، والذي كان يحمل لقب خاقان (المترجم إلى العربية).

البدو لقب ملك مقاطعة، أو ملك ناحية (وانـگ ـ خان) من جيرانهم الصينيين في الجنوب الذين كانوا أكثر تحضراً منهم. وعلى وجه العموم، فإننا نجد أن الألقاب الأجنبية كالصينية وغيرها غالباً ما تكون منتشرة في الأوساط المغولية، أو بين أولئك الذين كانـوا يقطنون في تلك الأراضي التي كان يسكنها المغول سابقـاً، أو خلال القـرن الثاني عشـر (الميلادي / السادس الهجري)، وذلك لوجود حقيقة واحدة معروفة في مثل هذا النوع من الظروف، وهي قوة التأثير الذي كانت تتمتع بـه شعوب متقـدمة في المضمـار الحضاري، كالأمم الصينية، على جيارنهم البدو في منغوليا. لأننا لو رجعنا إلى أصل بعض تلك الألقاب لوجدنا ألقاباً من جانب الصينين مثل: وانـگ، وتئي ـ تسي، كما نجد ألقاباً أخرى من جانب التبت أو التنگوت، مثل: گمبو ـ Gambo، أو دجگمبو ـ Diagambo ، كما نجد أيضاً ألقاباً تركية، مثل: تجن أو (تكين ـ Tegin)، بيلجي أو (بيلكي ـ Bilge)، وألقاباً أخرى كثيرة من هذا القبيل.

في منغوليا نجد أن هناك بعض القبائل كانت مشهورة بعلو المكانة من الناحية القيادية بين القبائل الأخرى، وذات نسب قديم ومحتدٍ راقٍ، ونجد أن قبائل من هذه الفصيلة قد تفرعت إلى قبائل وهياكل جديدة، وذلك لسبب واحد، وهو أن شخصيات قيـادية كانت قد برزت من بين أعضاء أفراد تلك القبائل أو الكتل القبلية المتحدة، وأصبحوا أبطالاً وقادة (بهادرات ونويانات) يشار إليهم بالبنان، كانوا قد كافحوا وناضلوا في سبيل استقلالهم عن القبائل

الأخرى؛ وذلك عن طريق استمالة أكبر عـدد ممكن من الناس ليصبحوا مواطنين، واتباعاً جدداً تحت رئاسة أولئك القادة البارزين حيث سيتم لهم الحصول عن طريقهم على امتلاك أراض رعوية واسعة في تلك السهوب المترامية الأطـراف. كان أكبـر وأعظم هدف تتوق إليه طبقة القبائل المغولية الأرستقراطية الحاكمة، من طبقة الأبطال والقادة في داخل ذلك المجتمع البـدويَ المغولي الرعوي، هو أن يجدوا لهم أراض رعوية خصبة مناسبة (نوتوك)[1] Nutuk ، يـورت[2] Yurt) وعـدداً كـافيـاً من (٤) الأتبـاع، والمواطنين، والعبيد، وذلك ليرعوا شؤون مواشيهم وحيواناتهم، ولكي يقوموا بأعمال الخـدم في داخل مسـاكن طبقة الأشـراف والنبلاء. أما ما يتعلق بالقبائل التي كانت تسكن الأدغال، والغابات المغولية (أُي ـ إن إكَرن Oi - in Igren) فإننا نجد، على ما يظهر لنا،أن الطبقة الحاكمة (الارستقراطية) لم تلعب دوراً بارزاً كالدور الذي كانت تلعبه الطبقة الحاكمة في السهوب الرعوية. لأن ساكني الغابات غالباً مـا يقوم بـإدارة شؤونهم البدائيـة فئة من النـاس المتخصصين في النـواحي العقائـدية، كـالكهان (الشـامـانـات) والمشعوذين والمشتغلين بالأعمال السحرية، والذين اشتهروا في أوساطهم بأن لهم اتصال وعلاقات مع الأشباح والأرواح. فالكاهن (الشامان)، الذي يحترف أعمال الكهانة ويكون في ذات الوقت رئيساً لعشيرة أو لقبيلة يحمل لقب بيكي ـ Beki،مع أن هذا اللقب في بعض الأحيان، يحمله البعض من أعضاء الـطبقة الحـاكمة

---

(١) كلمة تركية (المترجم إلى الانجليزية).

(٢) كلمة مغولية (المترجم إلى الانجليزية).

(الارستقراطية) في السهوب الرعوية أيضاً.

هذا فيما يتعلق بالطبقة الحاكمة (الأرستقراطية)؛ أما ما يخص الطبقة الدنيا فهي التي كان يطلق على أفرادها (آرت Arat)، أو ما يسمون باللغة التركية القديمة (كرتشو Karachu أو قراتشو) أي سواد الناس. وتلي هذه الطبقة طبقة أدنى منها، وهي طبقة العبيد، وهم بگول ـ Bogul).

كانت قبيلة التتر تتمتع بالمركز القيادي بين العشائر أو القبائل المغولية عامة في القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري)، والتي كانت أراضيها ومناطق رعيها تقع إلى أقصى الجهة الشرقية من الأراضي المغولية، والواقعة في ضواحي المناطق القريبة والمجاورة لبحيرة (بويرنُر ـ Buir - Nor). وإلى جانب قبيلة التتر، كانت هناك قبيلة أخرى ذات مكانة كبيرة بين القبائل المغولية، هي قبيلة قوم كيرايت، حيث كانت تقطن أراضيها الرعوية الخاصة بها، والواقعة بين جبال خنكاي وجبال كنتي، والتي تقع على أودية نهري أرخن ـ Orkhon وتولا ـ Tula ؛ أما إذا اتجهنا بصورة أعمق إلى الجهة الغربية من الأراضي المغولية فسنجد أن أراضي قبائل النيمان كانت تقع في الاقليم الواقع بين جبال خنكاي وسلسلة جبال الطائي الشاهقة. وبالإضافة إلى هذه القبائل الكبرى الثلاث المذكورة آنفاً، نجد أنه كانت هناك عشائر وقبائل أصغر منتشرة هنا وهناك في الأراضي التي تتخلل مناطق نفوذ هذه القبائل الثلاث الرئيسية، وكما هو معروف، فإن هذه القبائل الثلاث الكبرى، أقوام التتر والكيرايت والنيمانيين،

كانت نفسها (٥) منقسمة داخلياً إلى أعداد كثيرة من القبائل، والعشائر، والبطون، والفخوذ الأخرى.

نظراً لما كانت قد اكتسبته قبيلة التتر من شهرة واسعة النطاق، وما كانت تتمتع به من مكانة بارزة بين بقية قبائل المغول الأخرى، وكان يعود ذلك إلى سبب رئيسي واحد ـ وهو الكثرة (العددية) الهائلة من قبائل وعشائر وفخوذ وبطون تلك القبائل والعشائر، نجد أن العديد من العشائر والقبائل المغولية الأخرى قد تبنت نفس الاسم (التتر) الذي كانت تحمله قبائل التتر في مجموعها، لهذا السبب نجد أن الأسماء القبلية لهذه العشائر والقبائل قد تلاشى بالتدريج، مع مرور الزمن، وأصبح غير معروف على وجه العموم، اللهم إلا فئة قليلة تتمثل في أقرب جيران يعيشون بالقرب من أراضيهم القبلية. أثبت لنا المتخصصون في الأعراق البشرية، في أجزاء كثيرة من العالم (على سبيل المثال: من أقاليم القوقاس، ومن مناطق الطائي، ومن منغوليا المعاصرة)، أنه كان من عادة القبائل الصغرى تبني لقب أو اسم، أو كنية جار قريب يتمتع بنوع من القوة، حتى وإن كانت تلك القبائل والعشائر الصغرى على علاقات عدائية مع ذلك الجار القريب القوي، الذي تبنت لقبه أو اسمه الذي يحمله. وحول هذا الموضوع نجد أن رشيد الدين[١] يتكلم، بوضوح تام لا لبس فيه، عن هذه العادة فيقول: «نظراً لما كانوا (يعني بذلك أعضاء أقوام قبائل التتر) يتمتعون به من مكانة

---

(١) لمعلومات أوفى عن هذا المؤرخ الكبير، انظر ما قلناه عنه في كتابنا «سقوط الدولة العباسية»، ص .ص : ٤٠ ـ ٤١ (المترجم إلى العربية).

بارزة وعظمة مرموقة، فإن عشائر أخرى تركية (يعني بذلك القبائل البدوية، سواء أكانوا ينتسبون إلى أصل تركي أو مغولي) قد تبنى أعضاؤها ذلك الاسم، اسم التتر، وأصبحوا جميعاً يعرفون به، لذلك فإنهم بعملهم هذا يكونوا قد خلقوا وضعاً مربكاً لمعرفة أصل أنسابهم، وأقسامهم وأسمائهم. لذلك، فإن هذه العشائر المختلفة كانت تعتبر أن عظمتها ومكانتها المرموقتين تأتيان من أمر واحد وهو أنهم عدّوا أنفسهم بأنهم يعودون في أصلهم إلى التتر، فأصبحوا بذلك يعرفون بأسمائهم، وهذا بدوره ينطبق تماماً على ما نراه في وقتنا الحاضر، فنظراً لما كان عليه جنكيز ـ خان وعشيرته من عظمة (٦) فإن القبائل التركية الأخرى قد تبنت اسم قبيلة جنيكز خان (المغول)، فعلى الرغم من أن تلك القبائل كانت لها أسماؤها وكناها وألقابها المتميزة بها، فإن أعضاء تلك القبائل بدأوا يسمون أنفسهم مغولاً »[1]. ونتيجة حتمية، لتبني الكثير من القبائل

---

(١) النص الفارسي، وباجاه وشكوكت وحرمت تمام، وازغايت عزت وحرمت ، ديگر أصناف أتراك على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم وأساميهم، خودرابنام ايشان مشهور كرده اند، وهمه راتاتار مي گفته اند. وآن أصنادف مختلف جاه ومنصب خودرادر آن دانستندي كه خودرا بايشان مخصوص گردانيده وبنام ايشان مشهور شده اند چنانگة در اين زمان بواسطهٔ دولة چنگيز خان وأروغ أو ـ چون ايشان مغول اند ـ ديگر أقوام أتراك مانند جلاير وتاتار وأويرات وانكوت وكرايت ونيمان وتنكقوت وغيرهم كه هريك را اسمي معين ولقبي مخصوص بوده، جمله أزروي تفاخر خودرا مغول گويند، وباوجود، آنكه در قديم از اين اسم استنكاف داشته اند، فرزندان ايشان اكنون كه موجود ندچنان تصور دراند كه ايشان آزقديم باز، باسم مغول موسوم ومنسوب بوده اند. . ».

رشيد الدين، فضل الله الوزير، جامع التواريخ، من بداية قبائل المغول حتى نهاية =

والعشائر، اسم التتر، نجد أن هذا الاسم قد انتشر حتى وصل الحدود القصوى للعالم، آنذاك. لهذا نجد أن المغول عرفوا باسم التتر أولاً في آسيا، ثم في قارة أوروبا فيما بعد؛ وقد توسع الأوروبيون في هذه التسمية، فأطلقوا هذا الاسم على جميع الشعوب التي كان قد فتحها المغول سابقاً، والذين قاموا بالاشتراك معهم في فتوحاتهم وحملاتهم العسكرية، التي تلت فيما بعد، كقوم خاضعين تحت نفوذهم، أي كمواطنين لهم، وإنه لذلك السبب عينه ما زلنا نطلق اسم التتر على أقوام معينين من الأتراك، على الرغم من أنهم لا يمتون بأية صلة، لا من قريب ولا من بعيد، تربطهم بالتتر الأصليين.

في المنطقة الواقعة بين أراضي قبائل التتر وقبائل الكيرايت، وعلى ضفاف نهري أونون وكرولن كان يعيش حشد من القبائل والعشائر التي تعيش على حرفتي الرعي والصيد، كان من بين هذه القبائل قبيلة المغول، حيث كانت قد حققت لنفسها مكانة ذات أهمية خاصة بين بقية القبائل الأخرى في القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري) لدرجة أن قائدها، قَبُول، اتخذ لقب خاقان. وقد جاء وقت من الأوقات أصبح فيه قوياً بشكل ملموس، بحيث بلغ درجة أخذ معها في تنفيذ حملات عسكرية إلى مسافات بعيدة داخل الأراضي الصينية، حيث كانت آنذاك تحكمها أسرة أجنبية، هي سلالة جورجن ـ Jurjen ،والمعروفة

= عهد تيمور قا آن، تحقيق د. بهمن كريمي، طهران ١٣٣٨ هـ. ش،ص.ص: ٥٧ ـ ٥٨ (المترجم إلى العربية).

بصورة أفضل في الأوساط الصينية باسم الكن (أو الكنز كما تعرف أيضاً باسم تشن) أي السلالة الذهبية. وقد أعلنها كتولا ـ Kotula، وهو ابن قبول، والذي حمل أيضاً لقب خاقان، حرباً شعواء ضد سلالة الكنز، فكسب بذلك شهرة واسعة النطاق نظراً لأعماله البطولية.

ويبدو أكثر احتمالاً أن الاسم الأصلي (٧) للعشيرة الحاكمة (الارستقراطية)، والتي كان قَبُول واحداً من أعضائها، هو برجگين ـ Borjigin، ولم تحمل الاسم (المغول) إلا بعد أن أخضعت تحت نفوذها، ووحدت، العديد من القبائل والعشائر المجاورة لها؛ وهكذا تكون قد أوجدت وحدة سياسية واحدة، أمة متحدة هي أولوس ـ Ulus. لذلك،فقد كان هذا الألوس هو الذي أعطي اسم «المغول»، أحياءً لذكرى أمة أو شعب عظيم وعريق في القدم، والذي أبقت ذكره حياً تلك التعاليم الشفهية المتوارثة جيلاً بعد جيل.

جاء التتر، كقوة بارزة، في حوالي منتصف القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري) فدمروا وحدة تلك الأمة المغولية، الأولوس، وقد جعل الكنز، الصينيون، من التتر أداة تخدم أغراضهم الخاصة، وبطريقة غاية في الذكاء، وذلك ليتخلصوا هم أنفسهم من الغزوات العسكرية المتكررة التي كانت تقوم بها تلك القوة البدوية الفتية (من وقت إلى آخر ضد أراضيهم الشمالية على وجه الخصوص).

ـ ٢ ـ

ميلاد جنكيز ـ خان وفترة طفولته

(٨) في حوالي سنة ١١٥٥ (ميلادي / الموافق ٥٤٩ ـ ٥٥٠ هجري)، وعلى إحدى ضفاف نهر أونون، بالقرب من المنطقة المعروفة بـ دليون ـ بلدداك[١] (والتي ما تزال معروفة بذلك الاسم) ولد هناك ابن من أسرة يسوكاى ـ بهادر . وكان يحمل ذلك المولود الجديد في قبضة يده اليمنى كتلة متخثرة من الدم. وهو الذي أصبح معروفاً في الأوساط الدولية باسم جنكيز ـ خان. وينتسب والده، يسوكاى ـ بهادر ، إلى عشيرة قيات، وهي فخذ من قبيلة برجگين، كما كان ابن باردان ـ بهادر، وهو الابن الثاني لـ قبول ـ خان (الذي ورد معنا اسمه في الصفحات السالفة). إن المرء ليجد في المصادر التي بين أيدينا تشكيلة من المعلومات تتعلق بـ يسوكاى ـ بهادر . فبعض هذه المصادر تصفه بأنه لم يكن إلا مجرد قائد صغير (قائد عشرة رجال)، بينما نجد في البعض الآخر أنه يقف على قمة الهرم في رئاسة جميع القبائل المغولية تقريباً.

---

(١) كما يعرف أيضاً ب ديليون بولداق. حول هذا المكان، انظر، كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص : ٥٥، والحاشية رقم : ٢ على وجه الخصوص (المترجم إلى العربية).

وبموجب ما أورده صاحب كتاب التاريخ السري، الذي يروي البطولات والمغامرات المغولية، والذي لا يحوي التقرير الذي أورده على شيء غير محتمل، يؤكد بصورة قاطعة، تؤيدها دلائل وردت في مصادر أخرى، على أن يسوكاى ـ بهادر كان نموذجاً لرجل السهوب الارستقراطي. فالذي يبدو لنا أن أخويه «الأكبر نكون ـ تئايتس ، والأصغر داريتاى ـ أتشيگين» كليهما قد كانا يستخدمان أراضيه، (٩) الرعوية ويعترفان به كرئيس لهما. وبالإضافة إلى ذلك نجد أنه كان يملك عبيداً وأتباعاً من طبقة الناس العامة، كما كان من ضمن أنصاره وأتباعه بعض من أقاربه وأنسابه من عشيرة تاي تشيوت، لذلك نجد أنه كان دائماً يستطيع أن يجمع تحت قيادته عدداً كافياً من الرجال، عندما يريد أن يقوم بتنفيذ حملاته وغاراته المفاجئة ضد خصومه. كما كان يشعر على الدوام بأنه وقومه في مأمن بطريقة أو بأخرى في داخل مخيماتهم. وبالإضافة إلى كونه ينتمي إلى محتد كريم، فقد كان بطلاً ومحارباً مشهوراً؛ ولذلك فإن لقبه بهادر لم يكن اسماً على غير مسمى، فقد كان كفءً له. كانت هذه الصفات السبب الكامن وراء ذلك التأثير العظيم الذي كان يتمتع به في أوساط مجتمعه في السهوب.

استطاع يسوكاى، بمساعدة أخوته[1]، أن يتغلب على رجل مركيتي (إذ كان المركيتيون عبارة عن قبيلة كانت تقع أراضيها الرعوية إلى الشمال من اقليم قبائل الكرايت) وأن يأخذ زوجته

---

(١) في الحقيقة استعان يسوكاى بأخويه : ناكون ـ تا ايجي (وهو الأكبر) وداريتاى (وهو الأصغر) في تنفيذ عملية الاختطاف هذه، (المترجم إلى العربية).

منه، وذلك عندما كان ذلك الرجل المركيتي[1] عائداً، في طريقه إلى منزله، بعروسته الجديدة التي كان قد خطبها من قبيلة أُلكونوت. وكان اسم تلك الفتاة أويلون[2]. وبعد أن أخذها يسوكاى إلى منازله، جعل منها زوجة له لتصبح الزوجة الكبرى، وهي التي أصبحت فيما بعد تعرف باسم أُيلون ـ يك، وتعني الأم أُيلون، أو أُيلون ـ فوجين، وتعني الملكة أُيلون.

كان اليوم الذي ولد فيه ابنها متواقتاً مع عودة يسوكاى ـ بهادر إلى مضارب خيامه من حملة عسكرية كان قد قام بها ضد التتر، الذين كان غالباً ما يدخل معهم في صراعات وحروب (مستمرة) ليساعد هذا أو ذاك من بني قومه أو قرائبه. كانت حملة المغول في هذه المرة غارة عسكرية ناجحة، حيث كان يسوكاى قد جلب معه رجلين أسيرين من التتر، كان الأسير الأكبر منهما يدعى تموچين. وحسبما جرى عليه العرف التركي ـ المغولي القديم عند تسمية (١٠) المولود الجديد، فقد كانوا يسمونه باسم يرتبط ببعض الظروف الواضحة المعالم التي أصبحت ذات علاقة مرتبطة بالزمن الذي ولد فيه المولود، لهذا نجد أن يسوكاى يسمي ابنه باسم ذلك الأسير التتري تموچين. وبالإضافة إلى هذا الابن فقد أنجب كل من يسوكاي ـ بهادر وأيلون في السنوات التالية ثلاثة أبناء آخرين

---

(١) واسمه : يك ـ تشيلدو (المترجم إلى العربية).

(٢) لمعلومات أوفى عن هذه المرأة وقصة اختطافها على يدي يسوكاى ـ بهادر ، انظر: تاريخ المغول السري، الترجمة الفارسية للدكتورة: شيريني بياني، عن ترجمة پل پليو الفرنسية، طهران، ١٣٥٠ هـ. ش . ص : ١٤، الترجمة الانجليزية، ارثر وولي، لندن، ١٩٦٣ م ، ص .ص : ٢٢٢ ـ ٢٢٣ (المترجم إلى العربية).

هم: جوتشي ـ كسار، وكاتشيون ـ أولتشي، وتموج ـ أتشِگتن، وابنة واحدة هي تمولون. وإلى جانب هؤلاء الأبناء فإن يسوكاى كان لديه ابنان آخران من زوجة ثانية له هما بكتر وبلكوتي.

عندما أصبح تموچين في التاسعة من عمره، قرر والده أن يجد له زوجة. ولو رجعنا إلى قوانين وعادات المغول وتقاليدهم القبلية لوجدناها تحمل في مضمونها أن الزواج بين الأمشاج المتباعدة النسب هو القاعدة العامة، على وجه العموم، ويمكن أن نفسر ذلك بمعنى آخر، بأنه كان يتحتم على رجال قبيلة أو عشيرة معينة أن يتزوج أفرادها من بنات قبيلة أو عشيرة أخرى ليست ذات علاقة رحم أو ذات صلة بقبيلتهم أو عشيرتهم. وكنتيجة حتمية لهذا، ونظراً لما كانت عليه الأوضاع السائدة في المجتمعات البدوية، التي تخيم الضغائن وطلب الثأرات على العلاقات بين مختلف القبائل، الأمر الذي جعل الحروب والغارات المشتركة بينَ تلك العشائر مسألة دائمة، فإن ظاهرة اختطاف النساء المتزوجات حديثاً، كانت أمراً ملموساً (أو شيئاً لا يستغرب أن يقع لأي فرد في مجتمعهم) ويحدث في صور مستديمة (وأكبر دليل يمكن الاستشهاد به هنا على وجود هذه الظاهرة الاجتماعية، هو ما ذكرناه أعلاه حول مسألة اختطاف (قام به) يسوكاى ـ بهادر نفسه، عندما اختطف أويلون. ثم بالإضافة إلى ذلك نجد أن هناك ظاهرة أخرى (حول مسألة الزواج) وهي ابرام اتفاقية متبادلة بين بعض القبائل والبعض الآخر، حيث يتم عن طريقها تبادل مشترك بين بنات تلك القبائل، فيتزوج شباب ورجال هذه القبيلة من بنات ونساء تلك القبيلة وبالعكس. وكانت كلا القبيلتين تطلقان على أعضاء القبيلة

الأخرى، الذين دخلوا معهم في هذا النوع من الزواج المتبادل والمتفق عليه سلفاً، اسم كودا. في الوقت الذي قرر يسوكاى ـ بهادر أن يبحث عن زوجة لابنه الأكبر، ذهب إلى أقرباء أمه من قبيلة الكونوت. ولم يكن لدى أفراد القبيلة الكونوت أي اعتراض أو مانع في أن يقوم أي عضو من أعضاء عشيرة برجكين المغولية بطلب الزواج من إحدى بناتهم،أفضل من أن تصبح (١١) ملكاً لأحد أفراد قبيلة المركيت، وذلك لسبب بسيط وهو أن الكونوتيين كانوا قد دخلوا في نوع من الاتفاق الزيجي، الطويل الأجل، مع الأقوام الأخرى، التي قام بتوحيدها قَبُول ـ خان تحت اسم المغول.

في أثناء رحلته (إلى قبيلة الكونوت) صادف يسوكاى ـ بهادر في الطريق دَاي ـ سِتِشِنْ، أحد أفراد قبيلة خونكيرات، والتي كان الكونوتيون أحد فروعها. عندما أخبر دَاي ـ سِتِشِنْ، الذي أعجب غاية الاعجاب بمظهر الصبي الصغير تموچين، بطبيعة الهدف من وراء رحلة يسوكاى ـ بهادر، اقترح على بطل عشيرة كيات ـ البرجكينية، بأن يقوم بزيارته، وذلك ليرى بنفسه عما إذا كانت ابنته، وهي بُرْتِهْ الحسناء، تناسب أن تكون زوجة مناسبة لابن يسوكاي. اقتنع يسوكاى بالفكرة، فقبل الدعوة، وذهب مع داى ـ ستشن إلى مضارب خيامه، مصطحباً معه تموچين الصغير. أحدثت رؤية برته، التي كانت حينئذ في العاشرة من عمرها (أو بمعنى آخر أنها كانت تكبر تموچين بسنة واحدة) لدى يسوكاى ـ بهادر، انطباعاً ممتازاً، لدرجة أنه في صبيحة اليوم التالي تقدم، نيابة عن

ابنه تموچين، يخطبها من أبيها، فقبل والد بُرْتِهْ أن يزوجها من هذا الخاطب الصغير. هنا قدم يسوكاى أحد جياده التي يركبها هدية إلى داى ـ ستشن، وغادر عائداً إلى مخيمه، بعد أن ترك تموچين وراءه ليظل هناك مع والد مخطوبته كصهر المستقبل. لقد كان هذا القرار، الذي اتخذه يسوكاي، والذي يدل على رغبة شيخ قيات الصادقة، بأن يرتبط مع أسرة داى ـ ستشن برباط المصاهرة، طبقاً وتأكيداً للقوانين والأعراف السائدة في منغوليا. كانت الأراضي التي تقطنها قبيلة خونكيرات تحتل المنطقة الواقعة بين تلك التي يسكنها الأنكوت، والذين كانوا يعيشون (١٢) في الأراضي المحاذية لسور الصين العظيم ومناطق سكنى قبائل التتر. وقد توسعوا (الخونكيراتيون) في مد أراضيهم من الجهة الشرقية حتى وصلوا إلى أراضي الكيتاى السالفين، الذين كانوا قد أخضعوا بلاد الصين في القرن العاشر (الميلادي / الرابع الهجري) تحت نفوذهم. لذلك نجد أن هذا الوضع الجغرافي لمناطق نفوذ الخونكيرات قد جعلهم يقعون تحت المؤثرات الصينية أكثر من غيرهم من غالبية القبائل المغولية الأخرى. ولهذا السبب (سبب القرب والجوار من الأراضي الصينية) فقد صنفهم الصينيون، ومعهم قبائل الأنكوت، من الصنف الأبيض (يعني الناس المتحضرين) من بين الأقوام الأجنبية البربرية. ويمكن ايعاز الأصل في قصة اقامة تموچين الطويلة المزعومة في داخل الأراضي الصينية، إلى الفترة تلك التي مكثها في ربوع مخيمات قوم خونكيرات. إلا أن فترة بقاء تموچين في مضارب خيام داى ـ ستشن، كزوج المستقبل لابنته، قطعها حادث طارىء، لم يكن متوقعاً، يتعلق ذلك الحادث بوالد

تموچين، الذي صادفه يسوكاى ـ بهادر وهو في طريق العودة من رحلة الخطوبة تلك، فقد عرج على أقوام من التتر، كانوا قد صنعوا لهم طعاماً واجتمعوا عليه. كانت التقاليد والعادات المغولية تحتم على كل عابر سبيل يمر بقوم أن يشارك أي إنسان كان قد عمل له طعاماً، سواء أدعاه لمشاركته، أم لم يدعه. لذلك فقد توقف يسوكاى ـ بهادر وشارك أولئك القوم من التتر، اما أن يكون بدافع مراعاة التقاليد وما جرت عليه العادة عند المغول، أو كان ذلك بدافع الجوع، فأراد أن يتزود بقليل من الطعام يساعده في مواصلة سفره ذلك. وهنا عرفه التترِ حق المعرفة، واغتنموا وجوده معهم في هذه الظروف المناسبة، وهم يتذكرون الغزوات العسكرية والهجمات تلك التي كان قد قام بها ضد بني قومهم من التتر، وخاصة تلك التي أسر فيها أثنين من رجالهم، فأرادوا الانتقام منه، فقدموا له طعاماً كانوا قد خلطوه بالسم. وما أن شرع يسوكاي في مواصلة سفرته تلك حتى شعر أنه مريض. عندما وصل إلى منازله اكتشف بأن التتر كانوا قد دسوا له السم (١٣) وأنه لا محالة هالك. استدعى واحداً من أتباعه، مونليك بن تاداي ـ تشرقا، وأخبره بما كان قد فعله التتر معه. أحس يسوكاى باقتراب الأجل، فأوصى مونليك بأن يكون الوصي على أسرته، وأن يرعى شؤونها، كما طلب منه أن يذهب في الحال، وأن يحضر تموچين، من منازل داي ـ ستشن وقومه خونكيرات، وليكن ذلك بأقصى سرعة ممكنة. بعد ذلك ببرهة توفي يسوكاى ـ بهادر حوالي سنة ١١٦٥ (ميلادي / ٥٦٠ هجري).

أطاع مونليك الأوامر الأخيرة لسيده يسوكاى ـ بهادر، وشرع

في الحال للقيام برحلته إلى مضارب خيام قوم خونكيرات لاحضار تموچين. لم يقل مونليك لـ داي ـ ستشن شيئاً عن مسألة تسمم أو وفاة رئيسه خشية أن يكون لما يقوله مضاعفات قد لا تُحمد لها عقبى، لذلك فضل أن يلتزم جانب الصمت حول هذه المسألة، ولم يذكر سوى أن يسوكاى أصبح محزون الفؤاد، شديد الوله على تموچين، وأنه يرغب أن يستدعيه للمجيء إليه بمنزله. اقتنع داي ـ ستشن، ورضي بأن يترك لصهره (حرية) المغادرة من منزله، ولكنه بعد أن أكد بأن يسمح له بالعودة إليه في أول فرصة مناسبة. لهذا فقد غادر تموچين عائداً إلى مخيمات قومه في صحبة مونليك، الذي أصبح بالنسبة لـ : تموچين بمنزلة الأب إتشيك، نزولاً عند رغبة، وحسب وصية يسوكاى ـ بهادر.

بعد وفاة يسوكاى مباشرة بدأت فترات عصيبة متتالية على تموچين ومن يلوذ به من أقاربه، وهم على وجه الخصوص أمه وأخوته[1]، حيث أصبحت مسألة الفاقة والعوز وحياة البؤس والشقاء شيئاً مألوفاً في حياتهم الجديدة. إذ أن كارثة الدمار قد قادت حياة تموچين إلى الهلاك لأكثر من مرة، ولكن في كل مناسبة من تلك الفترات المهلكة كان يخرج من بين براثن الخطر سالماً، ولم يصب بأذى، وذلك بسبب بعض التغييرغيرالمتوقع الذي كان يحدث بشكل مفاجيء فينقذ حياته من الدمار المحقق، فلقد كان لتلك المهالك العديدة المتتالية، (١٤) والتي كان ينجو

---

(١) وهم جوتشي ـ كسار، وكاتشيون ـ أولتشي ، وتموج ـ اتشيگين، والابنة تمولون، وبكتر، وبلگوتي، والأخيرين من امرأة أخرى (المترجم إلى العربية).

منها بأعجوبة، انطباعاتها العميقة وأثارها القوية على عقلية ذلك الصبي، حيث نجد أن تموچين أخذ يروض نفسه، منذ أيام شبابه المبكرة، على الثبات في مجابهة المحن، كما كان ماكراً خداعاً، لبقاً وحذراً أكثر من كونه شجاعاً أو مغامراً. فقد ظل الثبات أهم صفة بارزة في طباعه طوال حياته.

بدأت محن ومصائب تموچين بعد وفاة والده مباشرة. ففي هذه الفترات بالذات شعر أقرباء تموچين، وهم تاركوتاي - كيريلتوك وتديان جيرته، أبناء انبكاي-خاقان ورئيسا قبيلة تاي تشيوت، بأن اختفاء شخصية قوية ذات مكانة عالية من الميدان كشخصية يسوكاى قد فتحت أمامهم فرصاً واسعة لمزاولة نشاطاتهم بصفة مستقلة وبحرية أكثر. فقد حَرَّض نساء انبكاي-خاقان الأرامل، اللائي تشاجرن مع أويلون، أولئك الرجال على الانفصال عن أسرة يسوكاى-بهادر، والرحيل عنها. لذلك، فقد قرر أفراد قبيلة تاي تشيوت أن يتخلوا عن هذه الأسرة، وأن يشدوا الرحال بمنازلهم، ويرحلون بعيداً؛ وأن يتركوا أفراد هذه العائلة ليقابلوا مصيرهم دون حامٍ أو راعٍ يردع عنهم مصائب وغوائل الزمان (لتقضي عليها إحدى العشائر في هجوم مفاجىء تقوم به ضدها في أي وقت من الأوقات كما هي العادة في ذلك المجتمع، الذي كان كالسمك في البحر، يأكل قويه ضعيفه).

بذل الشيخ الكبير تشركا، والد مونليك[1] محاولة يائسة لكي

---

(١) وهو وصي على أسرة يسوكاى، حسب وصية الأخير. (المترجم إلى الانجليزية).

يثني عزم أفراد قبيلة تاي تشيوت عن الرحيل، وهم يتجهزون لمغادرة مخيمات قبيلة برجكين، وأن يبقوا متحدين؛ ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع، لأنهم لم يعيروا كلمات ذلك الشيخ الهرم أية انتباهة، بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك، فجرحوا الرجل العجوز بضربة رمح عندما أمعن في حثهم على البقاء. كانت أويلون امرأة ذات حكمة نافذة وحزم وعزم صارمين. جمعت حولها ذلك العدد الضئيل من الرجال الذين ظلوا على ولائهم لأسرتها، ورفعت العلم الذي يحمل اشارات يسوكاى ـ بهادر، و(١٥) شرعت تتعقب الانفاصليين. نجحت أويلون في بداية الأمر في أن جعلت جزءً منهم يعدل عن قراره السابق ويعود إليها، ولكن سرعان ما أصبح الأمر جلياً للعيان ان هذه المسألة (مسألة الانشقاق) فوق كل إصلاح، فقد اتسع الخرق على الراقع، فالرئيس البطل لم يعد له وجود، كما كان أبناؤه ما يزالون أطفالاً صغاراً؛ وأن امرأته أصبحت عاجزة كل العجز أن تحقق أي شيء، مهما بلغت طاقتها أو قوتها؛ فلم يمض وقت طويل حتى وجدت أويلون وأطفالها الصغار أنفسهم قد هجرهم الجميع، السابقون منهم واللاحقون. بعد الانشقاق الذي قام به أفراد تاي تشيوت، نجد أن أقارب آخرين، وكذلك الاتباع والخدم والعبيد، ممن كان يسوكاى قد جمع أعداداً كبيرة تحت خدمته، حذوا حذو أولئك المنشقين، واحد بعد واحد. حتى مونليك، والتي كانت مهمته رعاية أمر أعضاء الأسرة الميتمة (حسب وصية يسوكاى ـ بهادر وهو على فراش الموت) ظهر جلياً أنه تخلى عن واجبه تجاه هذه العائلة، وقوض خيامه وهجر أويلون ومخيمها. وعلى ذلك نجد أن

كل الذين ظلوا مع أرملة يسوكاى كانوا أطفالها، وزوجة يسوكاى الثانية مع ذريتها، وقليل من بعض النساء الخادمات.

بعد ذلك أصبحت الأسرة المهجورة في وضع لا يمكن أعضاءها من رعي مواشيهم في الأراضي الرعوية التي تملكها العائلة، على الرغم من أن الجزء المتبقي لها أصبح قليلاً جداً. ولكن، رغم كل ذلك، فإن أويلون لم تيأس. فقد عقدت العزم على المضي قدماً في رعاية أبنائها (وألا تقبل الدنية فيهم) حتى يشبوا عن الطوق ويمارسوا رعي حيواناتهم على نفس تراب أرض العائلة الحاكمة. فقد رسخت في أذهانهم الفكرة القائلة بأنهم ينتمون بصفة مشروعة إلى الطبقة الحاكمة (الارستقراطية)، لذلك، فقد رأوا أنه من واجبهم أن يبذلوا كل ما في وسعهم من جهود، ويكافحوا حتى تنجلي تلك السحابة المظلمة، ويخرجوا من وضعهم المتأزم ذلك. يبدو أن تموچين كان قد أخذ عن أمه نفسها أساطير (١٦) وروايات عشيرته القديمة، وتلقن من والدته المعلومات المنسوجة حول جدتهم (أمجن ـ Omegen) الون قوا الحكيمة؛ وما يتعلق بالجد الأسطوري الأعلى بدونتشار، مؤسس عشيرة برجكين. كما سمع تموچين وتعلم من والدته أيضاً قصصاً أكثر حداثة كانت قد جرت في زمان غير بعيد، فقد كانت تقص له عن تلك العصور المجيدة التي كان أباؤه وأجداده وأقاربه يعيشونها، وخاصة ما يتعلق منها بـ قَبُول ـ خان، وانبكاي ـ خان، الذي أُخِذَ بطريقة غادرة وعذب حتى الموت على أيدي الكنز في الصين؛ وكذلك كانت تقص له حكايات عن كتولا ـ خان، ذلك البطل المشهور العظيم. فلقد كانت أويلون امرأة حكيمة وعاقلة،

تروي تلك الأقاصيص بكلمات قديمة بشكل جيد (جذب إليه انتباه وحواس الصبي، وجعله يستمع إلى أمه بشغف وتعطش لسماع المزيد).

لم يعد العمل اليومي الذي يقوم به أبناء يسوكاى ـ بهادر، هو رعي قطعانهم من الخيول، أو الاشراف على الرعاة الذين يقومون بهذا العمل، إذ أن الظروف الجديدة التي أصبحوا يعيشونها كانت تحتم عليهم أن يزاولوا مهنة صيد الحيتان، والقيام، إلى جانب هذه المهنة، بعمل نوع من الصيد البري على نطاق قليل حسب ما في وسعهم، وما يطيقونه؛ بالإضافة إلى ذلك، فإنهم لم يعودوا فوق مستوى الذهاب إلى الفلاة سعياً وراء جمع البصل والثوم والنباتات البرية الأخرى. إن العيش على هذا الأسلوب من الحياة كان يعتبر، من وجهة النظر البدوية الرعوية في السهوب، أدنى وأفقر عيش يمكن أن يتصوره المرء في ذلك المجتمع.

وعلى مر الأيام، كان تموچين وأخوته ينمون، حتى أصبحوا شباباً، فرجالاً. كان تموچين طويل القامة، كما كان فتى موهوباً، نير البصر والبصيرة. فعلى الرغم من أن كُلاً من أخويه كسار وبكتر كانا يفوقانه من ناحية القوة البدنية، فإنه كان قد جسد في ذاته خاصية معينة قدر لها أن تعيش مواكبة له حتى نهاية عمره، كانت تلك الخاصية هي: حبه للسلطه. وفوق ذلك كله، فإنه لم يتسامح مع أي إنسان كان يود أن يحرمه من أي شيء يخصه، ويملكه بصفة مشروعة. لذلك، فإننا سنجد أن هذه الجوانب (١٧) في طبيعته الشخصية كانت قد ساقته إلى أن يرتكب قتل أحد

أخوته[1]. ولكن مع ذلك، فإن تموچين على ما يبدو لم يكن في أيام شبابه قاسي القلب بشكل استثنائي، أو غير عادي، أو انه كان سفاحاً متعطشاً لسفك الدماء دون حساب. فقد قيل لنا، على سبيل المثال، بأن تموچين عندما أعلم بأن أحد أتباعه، وهو الشيخ المسن تشركا، قد أصابه بعض أفراد قبيلة تاي تشيوت بجروح، ذهب ليعوده في منزله، وعندما شاهد ذلك العجوز، وهو طريح الفراش، قد أثخن في جراحه لم يستطع أن يتمالك أعصابه ويتجلد، بل انفجر في البكاء والجهيش.

كان قد بدأ كل من تموچين وأخيه كسار يلاحظان، منذ زمن ليس بالقصير، أن أخويهما الآخرين (من أبيهما فقط) بكتر وبلكوتي قد أصبح لديهما عادة تزعجهما، وهذه العادة هي أنهما أخذا يستوليان وبشكل مستمر دون إذن منهما، على جزء مما كان تموچين وكسار يصيدانه. فتقدم الأخوان إلى أمهما يشتكيان إليها مما كان يفعله الأخوان الآخران. إلا أن الأم أويلون استنكرت بشدة شجارهما مع أخويهما الآخرين، قائلة لهما: «بغض النظر عن الحزن والألم الذي نعيشه، فإننا أصبحنا الآن بدون أصدقاء (يقفون إلى جانبنا) وعلى الرغم من أنه لا يوجد لدينا فرس واحد، فإننا لا نمتلك ولا حتى سوط له. ثم ذَكَّرتهم بواجبهم الأساسي، وهو تأديب أفراد قبيلة تاي تشيوت. ومع ذلك، فإنه على الرغم مما قالته الأم من كلام في هذا الشأن، فقد غادرها كل من

---

(١) كان ذلك الأخ هو بكتر، وهو أخو تموچين من أبيه فقط، وسيرد معنا بعد قليل قصة القتل تلك، (المترجم إلى العربية).

تموچين وكسار، وذهبا إلى بكتر حيث تقدما إليه حتى دنيا منه، واحد من أمامه والآخر من خلفه، فرمياه، وأردياه قتيلاً. لقد أثار ذلك العمل الوحشي غيظ وحنق الأم أويلون، ولكن تموچين نفسه لم يظهر عليه بأن ذلك العمل قد أثر أو شوش عليه بشكل كبير. أما موقف الآخرين، بما فيهم أم وأخي بكتر (المقتول) وما كانوا يشعرون به تجاه هذا العمل فقد كان على نفس مستوى شعور الغير، فلم يظهر عليهم الكمد أو الحزن العميقين. ولعل السبب في ذلك هو أن الناس في ذلك الزمن. في وقت كانت فيه الغارات مستمرة والحزازات منتشرة بصفة دائمة، قد تعودوا على القتل، حتى وإن كان ذلك بين أفراد ينتمون إلى أسرة واحدة، فالقاتل لم يكن يعتبر مجرماً بين أعضاء مجتمعه. كانت مسألة المشاكسة والتنازع (١٨) هي القاعدة العامة في كافة مجتمع المخيمات المغولية، حيث كان نتيجة طبيعة للنظام القبلي الأرستقراطي القائم، ومسألة يحتمها غياب القانون والنظام الصارمين؛ لذلك فلا غرابة أن نجد أن التتر (يعني هنا المغول في مجموعهم) قد حازوا في هذا الصدد على سمعة فاقت كل الأمم الأخرى.

ـ ٣ ـ

فترة الشبيبة والـزواج

(١٩) لم يمض وقت طويـل حتى حدثت هناك حادثة جعلت تمـوچين يفكر في الأشيـاء بشكل عـام، وفي مصيـره ومستقبله الخاص به وحده على وجه الخصوص، حيث أكد لنفسه الاعتقاد بأن فوق ذاته وإرادته الشخصية كانت توجد إرادة الإله الخالـد (مونككي تنگرى) في السماء الزرقاء تلك ، لقد كان على الدوام يعلم علم اليقين أنه يوجد، بطبيعة الحال، إله أعظم فوق جميع تلك الآلهة التي يعبدها، ولكن إرادته في هذا الوقت كانت توحي إليه بقوة غير مألوفة.

لقد نمى إلى علم تاركوتاي ـ كيريلتوك رئيس قبيلة تاي تشيوت أن أفراد أسرة يسوكاى ـ بهادر لم يندثروا من الوجود، بعد أن كان قد هجرها وهجرتها القبائل وجميع الاتباع منذ زمن؛ كما أخبر أيضاً بأن ابن تلك الأسرة الأكبر كان قد كبر وأصبح آنذاك فتى سوياً ينتظر له مستقبل وضاء. وهنا عقد تركوتاي العزم على أن يلقي القبض على تموچين، خشية أن يصبح ذلك الصبي يوماً ما في مركز قيادي يكون فيه قائداً خطيراً على نفسه وعلى أفراد قبيلة تاي تشيوت. وبعد أن جمع حوله رجال عشيرته، نجده يقرر على

اتخاذ خطوة ايجابية نحو تحقيق هدفه، وذلك بمهاجمة مخيم أويلون. أحدث ذلك الهجوم المفاجىء الكثير من الخوف والهلع (٢٠) والفوضى (داخل مخيم أويلون)، وهناك حاول كل فرد من أفراد المخيم المهاجَم أن ينجو بجلده في مكان أمين داخل الغابة القريبة من مخيمهم؛ أما الأطفال الصغار فقد جعلوا في مخبأ تحت صخرة في تل مرتفع، أما بلكوتي فقد شرع في قطع الأشجار وبناء حواجز (لايقاف تقدم الأعداء المهاجمين)، في حين أخذ كسار، رامي السهام الماهر ذلك، يرشق العدو بسهامه الصائبة. وهناك صرخ أفراد قبيلة تاي تشيوت المهاجمون بأعلى أصواتهم بأنهم لا يريدون أن يلحقوا الأذى بأي واحد، وأن كل ما يريدونه هو تموجين فقط، وأنه يتحتم عليهم أن يسلموه إليهم. عند ذلك أصيب تموچين بالهلع والخوف، فامتطى صهوة جواده، وأخذ يلهب جلده بالسوط ليهرب به إلى غابة الجبل بعيداً عن مطارديه. لمح المطاردون من قبيلة تاي تشيوت هروب تموچين، فلووا أعنة خيلهم وجروا خلفه باتجاه الغابة؛ ولكنهم لم يستطيعوا التسلل إلى داخل الغابة الكثيفة للقبض على تموچين الهارب، إلا أنهم أحاطوا بالغابة التي اختفى فيها طريدهم، وانقسموا إلى مجموعات كلفت كل واحدة منها بحراسة قسم خاص، فوضعوا جميع منافذ تلك الغابة تحت المراقبة الدائمة وكل فرقة أصبحت في حالة تأهب يمتطي أفرادها صهوات جيادهم.

ظل تموچين في داخل الغابة تلك لعدة أيام. وفي أثناء هاتيك الأيام حاول مرتين أن يخرج من الغابة المحاطة بالأعداء، ولكن

شعوراً وظواهر غير مألوفة كانت ترده إلى الوراء، وقد فسر تلك الظواهر على أنها بشائر خير أرسلتها السماء لرعايته والعناية به، ومنعته من الخروج من داخل المكان الذي كان مختبئاً فيه. ففي المرة الأولى (عندما حاول الخروج) وبينما كان ممسكاً بعنان جواده وهو يقوده، ظهر له أن سرج دابته سقط على الأرض بطريقة لا يمكن فهمها أو تفسيرها، لأن جميع أحزمة السرج كانت مشدودة ومحكمة الربط بطريقة جيدة، لا يمكن معها أن يقع السرج بتلك الطريقة التي رآها تموچين، أما في محاولته في المرة الثانية فقد رأى صخرة بيضاء هائلة الحجم تقف أمامه، فظهرت وكأنها قد سدت عليه طريق الخروج من تلك الغابة التي يختبىء في داخلها. ومع ذلك، فإنه بعد أن ظل في داخل تلك الغابة مختبئاً لعدة أيام، قرر تموچين أن ينهي مسألة اختبائه، حيث أخذ منه الجوع كل مأخذ، حتى كاد يهدده. وهناك قبض عليه القوم المتربصون به خارج الغابة من أفراد قبيلة تاي تشيوت، بسرعة فور خروجه، فوضعوا به أدوات خشبية مصنوعة خصيصاً لوضع رجلي السجين في فتحات بها (٢١) وحملوه معهم إلى حيث يقع مخيم قبيلة تاي تشيوت، وهناك بقي سجيناً بين ظهرانيهم، حيث أخذ القوم يتناقلونه بالتناوب كل يوم من خيمة إلى خيمة أخرى.

أقام أفراد قبيلة تاي تشيوت حفلة عظيمة، على ضفاف نهر أونون، وذلك في ليلة اليوم السادس عشر من أيام الشهر الرابع القمراء. وقد اجتمع كافة القوم لتلك الحفلة ولم يبق للاشراف على حراسة تموچين السجين سوى صبي صغير. وهنا اغتنمها

تموچين فرصة للهرب، فضرب الحارس الصغير بحافة خشبة القيد (التي كانت تطوق عنقه) وخرج من سجنه وهرب من الحي. شق طريق هربه حتى وصل الغابة التي تقع على ضفاف نهر أونون، وهناك هبط تلاً، ودخل في ماء النهر، وظل جسمه جميعه مغموراً في داخل الماء حتى رقبته، ولم يبق سوى رأسه ظاهراً فوق الماء.

شرع أفراد قبيلة تاي تشيوت في البحث عن السجين الهارب فوراً، عندما أخبروا بأن تموچين قد أردى الصبي القائم على حراسته أرضاً وهرب من سجنه. لقد كانت ليلتهم تلك ليلة قمراء واضحة فيها معالم الأشياء. كان سوركان ـ شيرا من قبيلة سولدوس، والذي كان يقيم في ذلك الوقت مع قبيلة تاي تشيوت، ممن ذهب وراء تموچين والبحث عنه، وهناك اكتشف مكان السجين الهارب، وقال مخاطباً: «لقد كان السبب الرئيسي، الذي أثار حقد وحسد قبيلة تاي شيوت تجاهك صفات كهذه المميزات التي أنت عليها، وهم يرددون قولهم بأن النار تتقد من عينيك والنور يسطع من وجهك. فأبق في مكانك حيث أنت، فسوف لن أخبرهم عنك ولا عن المكان الذي تختبىء فيه». بعد مضي بعض الوقت نجح سوركان شيرا في حث قوم تاي تشيوت، بأن يقلعوا عن البحث، وأن يتوقفوا تلك الليلة حتى الصباح في الغد الباكر، وفي الحال ذهب نفسه إلى حيث يختبىء تموچين وأخبره بما استقر عليه رأى القوم، وأوصاه بأن يهرب من مكانه ذلك ويعود إلى بيته بأقصى سرعة ممكنة. إلا أن تموچين وجد أن فرصة الهرب أمامه ضئيلة جداً، وأن نجاحه في مخططه أصبح معدوماً ما دام يحمل حول رقبته تلك الخشبة التي تطوق عنقه، لذلك قرر أن يزحف

(٢٢) سراً إلى حيث تقع خيمة سوركان ـ شيرا، على أمل أن يجد منه مساعدة أخرى هناك. لم يكن هناك أية صعوبة في معرفة الخيمة المقصودة، حيث استطاع أن يميزها من خلال الصدى المنبعث من مخيض حليب الأفراس، إذ كان يعرف مسبقاً بأن هذا النوع من العمل كان من اختصاص أسرة سوركان ـ شيرا، إذ أنه عرف ذلك خلال الأيام والليالي التي كان قد قضاها سجيناً بين ظهراني تلك الأسرة، حيث كان يعامل معاملة طيبة هناك. على الرغم من بعض التحفظات والتردد التي أبداها سوركان ـ شيرا في أول الأمر، فقد تحققت آمال تموچين على يدي هذا الرجل، الذي أيده في ذلك ابناه تشيلاون وتشينباي، فقد استقبل تموچين، وأزيلت عنه تلك الآلة الخشبية من حول عنقه، وخبىء في عربة خاصة لتخزين الأصواف، ووضع فوقه صوف (لئلا يكتشف مكانه).

في صبيحة اليوم التالي شرع أفراد قبيلة تاي تشيوت في البحث عن تموچين في كل خيمة من خيام القوم، حتى جاءوا إلى خيمة سوركان ـ شيرا وأخذوا يبحثون عنه علهم يجدونه عنده. وفي اللحظة التي اتجهوا فيها إلى العربة التي كان تموچين مختبئاً بداخلها تحت الكتلة الكبيرة من الصوف، ثنى سوركان ـ شيرا القوم عن البحث فيها عندما قال لهم: «إن المكان شديد الحرارة جداً، فلا يمكن لأي إنسان أن يظل حياً وهو تحت تلك الكومة الكثيفة من الصوف». حالما غادر الأفراد أولئك من تاي تشيوت مخيم سوركان ـ شيرا، شرع هو وأفراد أسرته في تجهيز تموچين، بصورة سريعة وسرية، بما يحتاج إليه في طريقه إلى منازله وودعوه

متمنين له سفرة موفقة في رحلته تلك.

ما أن وصل تموچين إلى مضارب خيامه حتى انتقل بجميع أفراد أسرته وخيم بهم في مونت بورقان ـ قلدون، إذ أن هـذه الأراضي هي أماكن رعوية (نوتوك، يورت) قديمة تخص عشيرة برجكيـن المغولية، حسب ما جرت عليه العادة منذ القديم. وهناك شرعوا في البحث عن أسباب الارتزاق والعيش عن طريق صيد حيوانات المرموط القارضة و(٢٣) الفئران البرية. كان مثل هذا النوع من الحرف قد استغرق جل فترة شباب رجل قدر له أن تسقط أمـام ضربـاته القـاصمة ممـالك مهيبـة الجانب (عـريقـة الحضارة)، ذلك الرجل الذي سوف لا يجـد أي حدود معينـة لتحقيق أهدافه ورغباته.

ذات يوم من الأيام جاء قوم قاطعوا طريق مجهولون، إلى أماكن رعي تموچين فاختطفوا ثمانية جياد لهذه الأسرة (المعدمة الفقيرة)، وذهبوا بها. امتطى تموچين صهوة الجواد الوحيد المتبقي للأسرة، والذي أُستنقِذَ منهم بمجرد صدفة عجيبة غير متوقعة، وأخذ في مطاردتهم (عله يسترد الجياد المسروقة)، كان بلكـوتي، (الأخ الأصغر لتموچين) في الفـلاة وراء صيد المـرموط لحـظة حدوث سرقة الجياد.

قابل تموچين صدفة في الطريق، وهو يطارد اللصوص، شاباً يافعاً بدت عليه مخايل الـذكاء والـدهاء الحـادين، فأعجب بـه تموچين غاية الاعجاب، وهناك أبدى له ذلك الشاب استعداده التام في مديد المساعدة بشكل غريب لم يكن متوقعاً . كان اسم ذلك

الرجل الشاب الداهية بكورتشـــي بن ناكو ـ بايان من أحد أفراد عشيـرة أرولات. عرج تمـوچين، في طريق العـودة، (بعـد أن استخلص جياده من مختطفيها بمساعدة ذلك الشاب الجسور) على مضارب خيام ناكو ـ بايان، الذي قال مخـاطباً لهمـا: «يا أيهـا الرجلين الشابين يجب عليكما أن تصيرا دائماً صديقين حميمين وألا تفترقا على الاطلاق» فانصاعا طـائعين لما أمـر به الـرجل الشيخ. لذلك نجد أنه منذ تلك اللحظة أصبح الشابان متلازمين مع بعضهما، وظلا على ذلك صديقين حميمين طوال حياتهما. وقد أصبح بوكورتشي هذا فيما بعد واحداً من كبار قادة جنكيز ـ خان العسكريين البارزين، وأحد الرجال العسكريين الذين حازوا على ثقته؛ وفي الوقت ذاته، نجد أن الأخير (يعني جنكيز ـ خان) لم يكف على الاطلاق أن يوله ثقته التامة والمطلقة، ويكن له التقدير والاحترام، ويشعر بالمحبة والود تجاهه.

وعلى وجه العموم، فإنه يظهر بأن هذه الحملة (التي قام بها تموچين بالتعاون مع بكورتشي) قد (٢٤) شجعته كثيراً. فبدأ يشعر في ذات نفسه بأنه أصبح الآن رجلاً كاملاً، يستطيع أن يدافع عن نفسه وعما يملك؛ كما أنه لم يكن هو الوحيد في ذلك العالم (فلديه من يعاونـه من أسرتـه، وأصدقـاء جدد مثـل بكـورتشي الداهية). وفي هذا الوقت بالذات عقد تموچين العزم على أن يذهب بحثاً عن تلك البنت التي تنتمي إلى قبيلة خـونكيرات، والتي كانت قد خطبت له عنـدما كـان صبياً صغيـراً (في سن التاسعة). ذهب تموچين، مصطحباً معه أخاه الأصغر بلكـوتي، إلى حيث تقع مناطق رعي داي ـ سِيتشن، الذي غمرت قلبه البهجة

والسرور عندما رأى أن تموچين قد عاد إليه، فقد أثبت أنه رجل صادق، وفيّ لتلك الخطوبة القديمة التي كانت بينه وبين بُرْتِهْ، لذلك فقد أصبحت هذه الأبنة زوجة تموچين. كان من ضمن ما حواه صداق بُرْتِهْ معطف أسود من جلد السمور (كان قد قدمه لها والدها)، كان جميع ما يملكه تموچين في ذلك الوقت شيئاً قليلاً لا يذكر، بحيث أصبح وجود ذلك المعطف في منزله شيئاً ذا قيمة كبيرة وهاماً جداً، الأمرِ الذي جعله يصمم أن يستفيد منه في (تحقيق) غرض معين خاص به.

كانت عشيرة المغول قد فقدت أهميتها السياسية في ذلك الوقت. إلا أن الدور البارز أصبح آنذاك للتتر (الذين أصبحوا في مركز بارز بين مجموع قبائل المغول ككل) وأصبح خطرهم على الكنز (وهي امبراطورية كانت تحكم في أراضي الصين الشمالية ومنشوريا) واضحاً، لذلك نجد أن الآخيرين لم يضيعوا وقتاً طويلاً (تجاه ردع هذا الخطر) وذلك بتأليب وتحريض القبائل البدوية الرعوية المغولية الأخرى ضد التتر؛ فهذا النوع من السياسة (وهي ضرب الأعداء بعضهم ببعض) ما هو إلا تأكيد صحيح للسياسة الصينية التقليدية القديمة (التي كانت تنتهجها حكومة بكين في تعاملها مع جيرانهم البدو والرعاة في الشمال). كانت مجموعة قبيلة الكيرايت تمثل أكبر منافس قوي يستطيع المنازلة في صراع ضد التتر، لذلك فقد بذل الكنز كل ما في وسعهم ليشعلوها حرباً شعواء بين تلك القبيلتين الكبيرتين. منح الصينيون طغرل ـ خان، حاكم قبيلة الكيرايت، لقب وانـگ، ونتيجة لذلك اللقب أصبح (طغرل خان) من ذلك الوقت فما بعد يعرف عادة ب وانـگ ـ

خان[1]. كانت قبيلة الكيرايت أمة رعوية، وتتكلم (٢٥) اللهجة المغولية، ومع هذا، فإنه من الناحية الحضارية والثقافية يعتبرون أرقى من قبائل التتر، وتاي تشيوت، وأغلب القبائل المغولية الأخرى. كان المسيحيون من أتباع المذهب النسطوري يعتبرون إلى حد كبير كثيري العدد بينهم، وكان الكيرايتيون على علاقات متبادلة بينهم وبين شعب التنگوت أو هسي ـ هسيا بشكل مستمر، حيث كانوا في ذلك الوقت يحكمون المقاطعات الشمالية الغربية من أراضي الصين، كما كانوا أيضاً يحتفظون بعلاقات من هذا النوع مع الشعب القاطن في تركستان وجِتِي ـ سو[2]. لقد أصبح وانـگ ـ خان شخصية مشهورة (خارج عالمه المغولي) وعلى وجه الخصوص في الأوساط الأوروبية رغم أنه كان في الحقيقة لا يستحق ذلك، حيث كانت قصص وأساطير خرافية قد شاعت هناك عنه وتداولها الناس، حيث اعتنقوا اعتقاداً يكاد يكون راسخاً لا يقبل الجدل أو الشك، عن ملك ـ قسيس جوهينز (بريسترجون) يحكم بأبهة عظيمة أمة مسيحية تقع أراضيها في مكان ما في الشرق البعيد. أصبح اللقب وانـگ ـ خان مناسبة لتعريف حاكم الكيرايت على أنه هو بريسترجون. الا أن طغرل ـ خان، حاكم

---

(١) عن شرح معنى هذا اللقب، انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية»، ص: ٦٦، والحاشية رقم: ٢ خاصة (المترجم إلى العربية).

(٢) جتي ـ سو (تعني بالروسية «سميرتشي») أي «الأرض ذات السبعة الأنهار»، والتي تشمل الأراضي الواقعة إلى الشمال ـ الغربي من جبال تين شان، وممردسونكاريا. وهذه الأراضي تقع في الوقت الحاضر ضمن جمهوريات قازقستان وقيرغيزيا (المترجم إلى الانجليزية).

الكيرايت،كان في حقيقة الأمر شخصية مغمورة (لا تستحق كل ما أثير حولها من قصص وأساطير خرافية). فقد كان قاسي القلب متوحشاً ورجلاً غادراً، وفوق ذلك كله، فقد كانت تعوزه جميع المؤهلات الأساسية المطلوب توفرها لحاكم امبراطورية بدوية. لذلك السبب عينه، فقد وجد نفسه، في مناسبات كثيرة، يقف في مواقف عصيبة،فكان يسوكاى ـ بهادر هو الذي ينقذه من الكثير من المآزق التي كان يقع فيها.

(٢٦) كان كل من وانـگ ـ خان ويسوكاى ـ بهادر يعتبر الآخر كصديق حميم، وعلى أنهما أخوان (اندا Anda) بالتبني (أي أن كل واحد قد تبنى صاحبه أخاً له). لهذا السبب نجد أن تموچين قد عزم الآن على أن يذهب شخصياً إلى وانـگ ـ خان وأن يُذَكِّرهُ بنفسه آملاً من وراء ذلك أن يحسن من مركزه (الاجتماعي) بمساعدة وانـگ ـ خان، ويحظى منه (على الأقل) بالحماية من الغير (حيث كان صديقاً حميماً لوالده منذ زمن ليس بالبعيد).

كانت أحوال وظروف تموچين في ذلك الوقت قد تحسنت قليلاً، رغم أنه لم يكن بأي حال من الأحوال رجلاً منبوذاً ويُتَرَقب داخل مجتمعه. فقد أحس بأنه قد آن الأوان بأن يشعر، إلى حد كبير، بأنه أصبح حاكماً من طبقة السهوب الارستقراطية. لأنه في حقيقة الأمر ينحدر من سلالة ذات محتد نبيل، كما أنه أصبح رئيساً لأسرة يشتمل عددها على اثنين أو ثلاثة محاربين أشداء، مثل كسار وبلكـوتي، وأنه أصبح أيضاً رجلاً متزوجاً من أسرة ذات شرف طيب، ويملك، على أقل تقدير واحداً من الاتباع، وهو بكـورتشي.

كان تموچين قد أرسل (أخاه)بلكـــوتي، وهو في طريق عودته إلى منازله مصطحباً عروسته، إلى بكورتشـي يطلب منـه أن يأتي إليه في مضارب خيامه. وقد روي (في هذا الشأن) بأنبكورتشـــي (ما أن سمع بأن صديقه تموچين يطلبه القدوم إليه) حتى سلك في الحال طريقه إليه، وحتى بدون أن ينتظر قليلاً لاعلام والده (بأنه ذاهب إلى تموچين).

ـ ٤ ـ

ظهور جنكيـــز

هكـذا ، قرر تمـوچين أن يـذهب إلى وانـگ ـ خـان؛ فأصطحب معه (أخويه) كسار وبلكـــوتي، كما أخذ معه معطف بُرْتِهْ (المصنوع من) فرو السمور الأسود، ليقدمه هدية إلى وانـگ ـ خان الذي كان حينئذ مخيماً على ضفاف نهر تولا. وهناك استقبـل وانـگ ـ خان ابن ذلك الأخ المتبنى (اندا ـ Anda) بكـل حفاوة واكرام. وقد أعجب غاية الاعجاب بتلك الهديـة التي جلبوهـا معهم، وهنا وعد تموچين بأن يقدم له المساعدة اللازمة لاستعادة أقاربه وأتباعه جميعاً، الذين كانوا قد انشقوا منفصلين عنه (منذ زمن).

كانت هناك أخبار سارة تنتظر تموچين عندما يعود إلى مضارب خيامه. حيث جاء إليه ذلك الرجل العجوز جارتشيوتاي الحداد، ليقدم له ابنه جِلْمِهْ، فقال: (مخاطباً تموچين): «عندما ولدتَ على (سفح جبل) دليون ـ بلداق، أعطيتُك ضماداً من القماط، مخططاً بفرو السمور، وقدمت إليك ابني جِلْمِهْ هدية؛ وبما أنه كان ما يزال آنذاك صغيراً، فقد أبقيته معي في منزلي حتى يشب عن الطوق ويكبر. وإنني الآن أقدمه إليك، فأجعله يسرج لك فرسك، ويفتح لك باب بيتك». بهذه الكلمات تنازل (جارتشيوتاي) عن

ولده لتموچين. إلى جانب كون جلمه أصبح المساعد المباشر لتموچين، (٢٨) وإلى جانب ما كان يحسه تموچين من الشعور بالأرستقراطية، فقد جاءت مسألة التبرع بجلمه، بهذه الطريقة، عاملاً كبيراً خلق في نفس تموچين شعوراً قوياً جعله يدرك أنه كان فعلاً في طريقه لأن يصبح سيداً رعوياً على الوجه الأكمل؛ كما أن بيئته (التي كان يعيش فيها) كانت قد بدأت تعترف له بأنه عضو فعال من طبقة السهوب الأرستقراطية.

لقد قدر لتموچين أن يمر، بعد ذلك مباشرة، بمصاعب كثيرة ومشاكل شتى، ثم نجده يتعرض مرة أخرى إلى ما يقع فيه سيد في المجتمع البدوي من هزائم ونكسات الحياة التي يعيشها. أثبت تموچين نفسه إزاء هذه الحوادث بأنه كان رجلاً شديد الحيطة والحذر لدرجة الجبن والخور، ولكن نجد مرة أخرى أن ظروفاً معينة اتخذت لها مجرى آخر جعلت تموچين، الذي عرف كيف ينتظر بصبر وتأن طويلين، يبرز في نهاية الأمر (الرجل الفائز والمتفوق).

في يوم من الأيام قامت عصابة من المركيتيين، بقيادة تكتوا من عشيرة ودويت المركيتية، بهجوم مفاجيء على مخيم تموچين، بصورة غير متوقعة، متلهفين شوقاً للانتقام (من هذه الأسرة وذلك لثأر قديم لها عند والد تموچين) حيث كان يسوكاى قد هاجم رجلاً من كبار رجالاتهم المركيتيين واختطف منه عروسته، وأخذها (زوجة له)[١]. وفي أثناء الغارة ظن تموچين بأن أعضاء تلك العصابة هم من (أعدائه التقليديين) من قبيلة تاي تشيوت. وهناك

(١) حول هذا الموضوع، انظر: أعلاه، ص : ٢٧، حاشية رقم : (٢)

عمدوا (يعني الأعضاء الساكنين في المخيم) إلى امتطاء صهوات جيادهم ولاذوا بالفرار إلى جهات متفرقة لا يلوي أحدهم على شيء، وتفرقوا شذر مذر، بينما نجد كذلك أن تموچين نفسه قد ركب جواده وأخذ يلهب جلده بالسوط ليسرع به هارباً بجلده باتجاه جبل بورقان ـ قلدون، حتى دون ملاحظة (أو الالتفات نحو) زوجته التي كانت قد تُرِكَتْ وراءهم دون أن يكون لها حصان تركبه لتهرب عليه مع القوم الفارين. لذلك، فقد أخذها المركيتيون (وهذا ما كانوا يسعون وراءه، حيث كانت هي الهدف الأساسي من هجومهم المفاجىء ذاك). كما أخذوا كذلك عمة تموچين، زوجة أبيه، وهي والدة (أخيه) بلكوتي.

بعد أن ظل تموچين في الخفاء مدة من الوقت قام بارسال رجاله (الذين لحقوا به) إلى خارج مكانهم السري الذي اختفوا فيه، ليروا ما كان يجري (٢٩) هناك. وعندما جاءته الأخبار بأن المركيت كانوا هم أصحاب تلك الغارة، وأنهم قد رجعوا (ومعهم زوجته بُرْتِهْ) نزل من على ذلك الجبل، وهناك ضرب صدره (بكلتا يديه) وأخذ يصرخ ويولول، وهو يقول، رافعاً يديه إلى السماء: «لقد استطاع جبل بورقان أن يحمي حياتي البائسة الهزيلة من الهلاك المحتوم. لذلك فإنه منذ هذه اللحظة فما بعد فإنني سوف أضحي وأقدم القرابين والتقدمات له على الدوام، وسوف أوصي أبنائي وأحفادي بأن يجعلوا من واجبهم تقديم الأضاحي والقربات إليه من بعدي». بعد ذلك حل تموچين حزامه وجعله معلقاً حول عنقه، ونزع قبعته وعلقها في يده، ثم ركع إلى أسفل تسع مرات، وفي كل مرة يضرب صدره، وهناك قام باهراق لبن متخمر من حليب الأفراس (كقربان للإله). لقد كانت تلك الطريقة في ذلك

الوقت هي طريقة يتبعها المغول للتعبد إلى الأشياء المقدسة عندهم: وذلك بخلع الحزام، وإزالة القبعة (من على الرأس) فإن ذلك يعتبر من قبلهم تعبيراً عن استسلامهم التام والمطلق إلى الإرادة الإلهية، لأن لبس القبعة (على الرأس) والتمنطق بالحزام حسب الطريقة العادية ـ تعتبران بالنسبة للمغول رمز شممهم وأنفتهم، وسمة حرياتهم الشخصية.

بعد الانتهاء من اشباع عاطفته الدينية (بما قدم من طقوس على النحو الذي شرح أعلاه) بدأ تموچين في العمل بكل جد ونشاط للثأر لما أصابه من ضيم (على أيدي المركيت). وقد بدأ في تنفيذ مشروعه ذاك بكل حنكة ودراية (حيث جعل في النهاية كلاً من) جاموقه ـ سِتِشِنْ[1] ،ووانـگ ـ خان يوافقان على تقديم مساعدتهما له وأن يعلناها حرباً شعواء ضد المركيت، الذين كانوا قد اختطفوا بُرْتِهْ وحملوها إلى ديارهم. لأن جاموقه ـ سِتِشِنْ كان رجلاً من أقرباء تموچين، فهو يرجع في أصله إلى عشيرة جادارات (أو جاجيرات) الذين يرجعون في أصلهم النسبي القديم إلى (عشيرة) بدونتشار، التي انحدر منها أيضاً الجد الأعلى لعشيرة تموچين نفسها. لقد كان جاموقه رجلاً نشيطاً وقديراً. كان قد (٣٠) جمع حوله عدداً كبيراً، إلى حد ما من النبلاء والاتباع ومن

---

(١) جاموقه هو رئيس عشيرة جاجيرات ابان بروز جنكيز ـ خان كرئيس لمجموعة عشائر المغول المتحدة، وكان من أكبر المنافسين له والمتحدين لسلطته. قتل فيما بعد، أي بعد الحروب التي خاضها جنكيز ضد مجموعة قبائل النيمان. لمعلومات أوفى في هذا الصدد، انظر التاريخ السري للمغول، الترجمة الفارسية، جـ ١ / ص .ص : ٤٧ ـ ٥٤ ، الترجمة الانجليزية، ص .ص : ٢٤٦ ـ ٢٥٦ ، رشيد الدين، جامع التواريخ، جـ ١ / ص .ص : ١٥٢ ـ ١٥٤ (المترجم إلى العربية).

عامة القوم، فكان من ضمن العدد الذي ضم اتباع جاموقه رجالاً من المفروض أن يكونوا أتباعاً لتموچين، لأن يسوكاى ـ بهادر هو الذي جمعهم أصلاً تحت قيادته. كان جاموقه قد اعتاد وهو صغير أن يتقابل مع تموچين، عندما كانا صبيين صغيرين، وفي ذات مرة، وعندما كانا يلعبان على جليد نهر أونون، تم بينهما تبادل الهدايا وأصبحا أخوين بالتبني (أي أن كل واحد منهما تبنى الآخر أخاً له) (اندا Anda). لم يجد تموچين صعوبة في اقناع أخي أبيه المتبنى (اندا) وأخيه هو ـ أي وانـگ ـ خان، وجاموقه ـ ستشن أن يساعداه (في محنته) إذ أنه كان لكلا الرجلين ظلامات وثأرات ضد المركيت منذ زمن بعيد.

كانت حملة كل من وانـگ ـ خان وجاموقه، والتي اشترك فيها تموچين بما تحت يديه من رجاله، ضد المركيت، عملية عسكرية ناجحة نجاحاً كبيراً. فقد أطلق سراح برته، زوجة تموچين. إذ أن المركيت، وعلى رأسهم كبير قومهم تُكتَا ـ Tokota، لاذوا بالفرار تاركين وراءهم غنائم كبيرة لتقع لقمة سائغة في أيدي الأعداء المنتصرين. وحول هذه المسألة بالذات، يقول التقرير المغولي: «إن الرجال الثلاثمائة، الذين اشتركوا في غارة جبل بورقان، والذين كانوا قد داروا حوله ثلاث مرات (أي المركيت الذين فاجأوا مخيم تموچين في هجوم مباغت واختطفوا زوجته برته) قد استؤصلت شأفتهم وأخذوا وقتلوا عن بكرة أبيهم حتى آخر رجل منهم، أما بالنسبة لزوجاتهم، فمن كانت صالحة للتزوج بها أخذن زوجات (وسرارى)، ومن كانت صالحة للرق فقد أخذن وجعلن اماءً». في اللحظة التي استعاد تموچين زوجته برته سالمة إلى حوزته، اتخذ اجراءات مناسبة ليوقف تعقب أفراد المركيت (الذين

هربوا لينجوا من القتل على أيدي القوات الغازية المشتركة) ـ لأنه كان لديه أسباب تؤيد عدم رغبته في استئصال شأفتهم بصورة تامة على أيدي وانـگ ـ خان (٣١) وجاموقه. لقد كانت تلك الحملة العسكرية بالنسبة لتموچين ناجحة نجاحاً كبيراً من نـواح كثيرة، (فإنه بالإضافة إلى استعادة زوجته، والتي كان اختطافها السبب الـرئيسي الكامن وراء تلك الحملة) فقـد جاءت منـاسبة نجـح تموچين بعدها في استعادة أناس من أتباع جاموقه والذين كانوا أصلاً من أصحاب تموچين، وفوق ذلك كله، فقد كانت أيضاً فرصة أظهر تموچين نفسه بصورة أكثر شهرة من ذي قبل؛ بالإضافة إلى ذلك نجد أن ذلك العمل المشترك أصبح مناسبة طيبة لتموچين في أن يدخل في علاقات مع أعضاء آخرين ينتمون إلى عدد كبير من العشائر الأخرى المختلفة. لذلك، فإنه منذ تلك اللحظة بدأ الناس في التحدث عنه. وفي مقابل تلك (الخدمات التي قام بها) أنصاره تجاهه، قدم لهم شكره العميق، إلا أنه استعمل في ذلك كلمات لَمَّحَ فيها مرة ثانية على أن الإله السمائي هو وحده ناصره وحاميه الرئيسي، وقال معبراً عن ذلك، مخاطباً حليفيـه: «أيها الوالد، وانـگ ـ خان، وأنت يا أيها الأخ جاموقـه! لقد منحتني السماء، من خلال مساعدتكما لي، القوة الكافية لكي انتقم لما ألحق بي من الأذى (على أيدي المركيت)».

بعد العودة من تلك الحملة العسكرية ضد المركيت رجع كل من تموچين وجاموقه وأقاما مراكز مخيماتهما معاً على أرض مكان يعرف بـ : كركوناك ـ جابور ، على ضفاف نهر أونون. وهنا تبادل (الحليفان) الهدايا مما كانا قد حصلا عليه من الغنائم التي وقعت تحت أيديهما اثر الغارة على مخيمات المركيت، مؤكدان بذلك

صداقتهما القديمة. وهناك، وتحت ظل شجرة كبيرة ممتدة الفروع، قام الطرفان بعمل مأدبة كبيرة لهم، وفي المساء نام الصديقان تحت لحاف واحد (تأكيداً للأخوة وعمق الصلة الودية بينهما). لقد أتاح وجود تموچين، في مخيم جاموقه فرصة ثمينة لمقابلة قادة وأعضاء عدد كبير من العشائر المختلفة (والتعرف عليهم بشكل أعمق). وعلى الرغم من تلك الصداقة التي تربطه بجاموقه ـ سِتِشِن، فقد أعطى (تموچين) أذناً صاغية، عن طواعية واختيار، لوشايات، كتلك التي قالها موكلي، من عشيرة جلاير[1]. قال له موكلي بأنه (في زمان بعيد مضى) كان قد خيم تحت ظل تلك الشجرة المتفرعة الأغصان نفسها، وعلى عين هذا المكان من كركوباك ـ جوبون (٣٢)، وحيث كانوا قد عملوا في هذا الوقت وليمة كبيرة مع جاموقة ستشن، كتولا (خان) وهو آخر من حمل لقب خان من بين أفراد عشيرة المغول، وعمل حفلاً صاخباً رقص فيه وابتهج بمناسبة انتخابه لذلك المنصب، (منصب الخانية على المغول). إلا أن أهمية وسمعة عشيرة المغول قد انحطت منذ تلك الأيام، ولم يعد ينتخب من بينهم خانات جدد يتولون أمرهم ويرعون شؤونهم. ومع ذلك، فإن (إله) السماء الزرقاء السرمدي سوف لن يتخلى عن عشيرته المختارة، تلك العشيرة التي كان لها أسلافها الخاصين الذين ينحدرون من سلالة واحدة. ولسوف يبرز من عشيرة المغول بطل، (فهو وحده) الذي سيكون في مقدوره أن يجمع حوله كافة أفراد عشيرته (ويلم شعثها)، ويصبح خاناً قوياً

---

(١) لمعلومات وافية عن قبيلة جلاير وشخصية موكلي، الذي كان واحداً من أبرز قادة جنكيز ـ خان العسكريين، انظر: رشيد الدين، جامع التواريخ، ج ١ / ص .ص : ٤٧ ـ ٥٤ (المترجم إلى العربية).

مرة أخرى، فيأخذ بثأر (قومه) من أعدائه. كان تموچين هو ذلك الخان المنتظر مجيئه، فقد أحس موكلي (في قرارة نفسه) أن تلك هي إرادة قضائية جاءت من السماء الخالدة، فالحديث بدأ ينتشر (في الأوساط العامة) حول هذه المسألة عينها! إذ أن رجالاً طاعنين في السن كوالد موكلي نفسه، قد أثبتوا تلك الإشاعات، وأصبح الجميع على قناعة تامة من أن تموچين سيصبح، بمعونة السماء، خاناً (عليهم) ويعلي (مكانة) عشيرته.

ظل تموچين وجاموقه ـ سِتِشِن معاً (يقيمان مخيماتهما وينتقلان مع بعضهما) لمدة سنة ونصف (تقريباً). كانت تلك المدة فترة كافية لتموچين ليعرف بأن طريقه (في الحياة) لا يمكن أن تتناسب مع منهج جاموقة. إذ أصبح تموچين بالتدريج يعتقد في ما سبق وقاله له موكلي، فأخذت طبيعته المستبدة الخاصة تسيره نحو ذلك الإتجاه. وهنا أضحى تموچين يعتقد (اعتقاداً راسخاً) بأن السماء كانت قد قضت له فعلاً بأن يصبح خليفة الخانات المغول (كما كتبت له أيضاً) بأن يحيي عظمة ومجد عشيرته. لذلك نجده من تلك اللحظة بدأ (٣٣) يدرك تماماً أنه يستطيع أن يحقق هدفه المنشود وغايته المطلوبة (وذلك) فقط عندما يكون لديه أشياع ثقات مخلصون له، بعدها سيكونون آلات قوية طيعة في يديه (يستخدمها كيفما شاء). (لذلك وكخطوة أولية) أصبحت غايته أن يجمع عشيرته حوله أولاً، ومعها كافة (رجالات) الطبقة الأرستقراطية في تلك السهوب الواسعة الأرجاء، الذين كانت آراء تموچين (بالنسبة لهم من الأشياء) المألوفة لهم والموافقة لمزاجهم. رجع تموچين بذاكرته إلى الوراء، فتذكر سني شبابه المحزنة

التعيسة، فأخذ يرنوا ببصره ويتوق إلى حياة حرة وافرة النعيم (كتلك التي ينعم بها ويعيشها أي) سيد بدوي، والسبب وراء ذلك أنه أحس وعرف أنه كان مؤهلاً لأن يتبوأ تلك المكانة، بحكم نسبه (المنحدر) من متحد نبيل، وكذلك بحكم شخصيته القيادية المهيبة. أما بالنسبة لجاموقه ـ سِتِشِنْ فقد تبين فيه ميول من نوعية مختلفة: فقد رأى (تموچين) إهتمام الأخير (جاموقه) بأمر الناس العامة، أو بالأحرى، بكل ما يتعلق بأولئك الذين يمثلون أوطأ فئة في داخل المجتمع المغولي. كانت نظرة تموچين تعكس وجهة النظر الأرستقراطية. في حين كان جاموقه يرى الأشياء بطريقة ديمقراطية. لذلك، لم يكن مستغرباً على الإطلاق أن يتشاجرا قبل أن يمضي وقت طويل. وفيما يلي وصف للكيفية التي تمت بها نقطة التحول الهامة تلك في حياة جنكيز ـ خان، حيث صورت (لنا) في (التقرير الذي أورده) التاريخ السري:

«ذات يوم من الأيام انتقل تموچين وجاموقه بمخيمهما بعيداً عن ذلك المكان (كركوناك ـ جابور)، كان الوقت (حينئذٍ) صيفاً، وكان اليوم هو السادس عشر من أيام الشهر الرابع. ركب تموچين وجاموقه جواديهما، وسارا في طليعة الركب المكون من العربات المنزلية، وبينما كانا سائرين التفت جاموقه إلى صاحبه وقال له: «إننا إذا أقمنا هذا اليوم الخيام على منحدر التل فإن أولئك الذين يرعون الخيول سيحصلون على مساكن، أما إذا ما ضربنا المعسكر إلى جانب مجرى الماء فإن أولئك الذين يعتنون بشؤون الأغنام والخراف سيحصلون على طعام (٣٤) يقيمون به أودهم، لم يجب

تموچين (على ما قاله جاموقه ببنت شفة) ولكنه لوى عنان جواده وذهب مصعداً ناحية أمه، أويلون، وهناك انتظرها حتى جاءت، عندما قدمت إليه (راكبة جوادها) أعاد لها كلمات جاموقه وقال لها: «انني لم أفهم كلماته تلك ولم أقل شيئاً إجابة لذلك، بناءً على ذلك ركبت وقصدت المجيء إليك، يا أمي، لأسألك أن تشرحي لي كلمات جاموقه، لم تترك برته لوالدته وقتاً تجيب فيه بكلمة واحدة (على مقالة ولدها) بل شرعت هي في الكلام قبلها قائلة، بصوت عال: «لقد صار القوم يتكلمون عن الأخ ـ جاموقه بأنه أصبح يحب كل جديد، ويحتقر كل ما هو قديم، وقد مكثنا معه إلى الآن وقتاً طويلاً كافياً، لذلك فقد سئم منا. ألا ترون أن كلماته تنم إلى حد كبير عن مقصد عدواني ناحيتنا؟ يجب علينا ألا نتوقف هنا، فلا بد لنا أن نواصل السير طوال الليل، فقد أصبح (واضحاً) أنه من مصلحتنا أن ننفصل عنه»، وهنا أجاب تموچين قائلاً: «إن برته تتكلم عين الصواب». وهكذا لم يتوقف تموچين (عندما توقف جاموقه وحط رحاله في المكان الذي ارتضاه سلفاً) بل ذهب بعيداً مواصلاً رحلته طوال تلك الليلة. عندما أوشك مشوار ذلك الليل على النهاية، وجاء وقت الفجر (وانبلج الصبح) فشاهد تموچين أن هناك رجالاً من عشيرة جلاير[1]. . ومن عشيرة قيان[2]. . ومن عشيرة بارين[3]، كما كان هناك أيضاً كرتشي

---

(١) انظر الحاشية السابقة (المترجم إلى العربية).

(٢) لمعلومات وافية عن هذه العشيرة، انظر: رشيد الدين، جامع التواريخ، جـ ١ / ص : ١٥٢ ، تحت عنوان كين (المترجم إلى العربية).

(٣) لمعلومات وافية عن هذه العشيرة انظر: المرجع السابق، جـ ١ / ص .ص : ١٤٩ ـ ١٥١ (المترجم إلى العربية) .

والشيخ وسوف.. وجميع رجالات عشيرة منه ـ بَارِين، كل أولئك أصبحوا أتباعاً وأشياعاً لتموچين».

كان جاموقه قد قصد من وراء كلامه ذاك «حول أولئك الذين يرعون الخيول» الأغنياء من القوم، وهي أعلى طبقة في المجتمع الرعوي، وهم الطبقة الأرستقراطية المتنفذة، أما «أولئك الذين يعتنون بالشياه والخراف» فقد عنى بهم ـ عامة القوم، وهم الذين كان جاموقه يتعاطف معهم. وبذلك، لم يكن في استطاعة تموچين (٣٥) أن يفهم مواربة جاموقه وما كان يقصده من وراء كلامه ذلك، بل أحس أن في كلماته تلك هدفاً عدوانياً، كما كان للملاحظة التي أبدتها زوجته برته حول جاموقه «من أنه يحب كل جديد ويحتقر كل ما هو قديم» دليلاً مؤيداً له في قراره الذي إتخذه حول الإنفصال عن جاموقه، صاحب النزعة الديمقراطية، والذي لا يستطيع بعد الآن أن يظل معه صديقاً لأنه متى فعل ذلك فإن الواقع الذي كان سيعيشه والظروف التي كان سيمر بها، سيكون قد ذهب إلى ناحية تتعارض تماماً مع مصالحه الشخصية الخاصة.

كانت مسألة انفصال تموچين من تحت مظلة جاموقه قد أصبحت، كما هو متبع في مثل هذه المناسبات، إشارة لعدد كبير من العوائل الأرستقراطية لأن تحذو على نهج ذلك المنوال، وأن تتكتل (في مجموعات) مع ذلك الرجل المنشق، بناءً على ذلك نجد أن الأفراد الأرستقراطيين، من عشائر كثيرة مختلفة، شرعت في الإلتحاق به، كذلك فعلت كثير من الأسر، وفي بعض

الحالات كافة العشائر (واحدة تلو الأخرى)، «وهم يحملون معهم كل أشيائهم وأمتعتهم» وأقاموا مخيماتهم إلى جانب مساكنه (مساكن تموچين). كان عمه داريتاي ـ أتشكين من بين أولئك الذين قدموا بأنفسهم على تموچين، وشيخ عشيرة جوركي، وألتان ـ أتشكين، وهو إبن لذلك المحارب العظيم كتولا ـ خان، الذي كان آخر خان لعشيرة المغول. (كان السبب الكامن وراء مجيء) هؤلاء الأرستقراطيين هو أن البعض منهم كانت قد جذبتهم قوة شخصية تموچين، وما كان يتمتع به من علامات الذكاء والمواهب الفطرية، والتأديب النفسي والضبط والنظام الشخصيين، فقد أصبح بالنسبة لهم شخص مثالي يتمتع بكل الصفات الواجب توفرها في رجل السهوب المحارب، كما بدا لهم أنه الرجل الأنسب الذي يمكن أن يوضع على رأس العشائر الأرستقراطية، حتى يقودهم إلى (٣٦) النصر، و(من ثم) الى اكتساب أراضي مراع غنية، (وكذلك إلى الحصول على) مواشي ورعاة ذوي خبرة ودراية. وفوق ذلك كله، فإن البعض (منهم) لم يشك (على الإطلاق) في كون (الإله) في السماء كان قد قدر وقضى بأن يصبح تموچين الحاكم المطلق (ليس فقط في قومه، بل وفي منغوليا، هذا إذا لم تكن الأغلبية قد بدأت تظن بأنه الحاكم الأعلى لجميع شعوب الأرض). أما بالنسبة لـ: كرتشي، والذي ينتسب إلى عشيرة بَارِين، فإنه عندما انضم إلى تموچين، قال له: «ان السماء قد قضت أمراً وذلك بأن تموچين سيكون حاكم المملكة الأعلى.. فإن ذلك (الأمر) قد أخبرني به الروح القدس حيث تم ذلك على مسمع مني، وأمام عيني، وها أنذا أميط اللثام

عن هـذا الخبر إليـك يا تمـوچين». أمـا البعض من الأتبـاع الآخرين، والذين كان ألتان، إبن الخاقان ـ كتـولا، من بينهم، فيبدو أنهم كانوا قد قرروا أن يحسموا الموقف المتردد (الذي كانوا يقفون فيه) فوقع إختيارهم على تموچين، والسبب وراء ذلك، هو أنه ظهر لهم بأنه كان أقل خطراً عليهم، فقد كانوا يأملون (من وراء إختيارهم لتموچين) بأنه سيكون أداة طيعة في أيديهم (يركنون إليها ويحركونها في أي إتجاه شاءت مصالحهم)، فقد كان العديد من أولئك ينحدرون من نسل أكثر عراقة ونبلاً من النسب الذي ينحدر منه إبن يسوكاى ـ بهادر.

لقد اتفق الجميع أن يقع إختيارهم على تموچين، إلا أن ذلك لم يتم دون أن يبدي العديد منهم تردداً، وان اختيارهم لتموچين كان فقط بعد أن رفض كوتشار، وألتـان، والأعضاء الآخـرون، الـذين ينتمون إلى أعلى وأكـرم محتد بين القـوم، أن ينتخبهم المجتمعون خانات..

(وحول هذه المسألة عينها) يخبرنا التاريخ السري للمغول «انه بعد أن عقد القوم مجلساً وتشاوروا في الأمر مع بقية الأعضاء الآخرين (المعنيين) قام ألتان، وكوتشار، وساتشال (الذي كان ابن حفيد قَبُول ـ خان من جهة ولده الأكبر) وأبلغوا تموچين (بقرارهم) قائلين: «لقد قررنا جميعاً بأن ننصبك خاقاناً[1]. وعندما تصبح

---

(١) لم يعلن تتويج تموچين خاقان على الاطلاق، بل أعلن كخان على المغول. أما منصب خاقان، أو قا آن، فلم يطلق على أي من سلالة جنكيز خان إلا بعد وفاته وتقسيم مملكته الواسعة، وأصبح كل حاكم على هذا القسم أو ذاك يدعى خاناً على =

خاقاناً، فإننا سوف نكون على الدوام في المقدمة في كل معركة (نخوضها) ضد أعدائك، فإذا ما تم لنا أسر (٣٧) بنات ونساء جميلات، فإننا سوف نقدمهن إليك. سوف نسرح باكرين في صبيحة كل يوم للصيد وسوف نقدم إليك كل ما يمكن أن نصيده من الحيوانات. (ولسوف نطيع كل ما تأمر به) وإذا ما عصينا أوامرك في وقت الحرب، أو إذا عملنا أي شيء فيه ما يخالف مصالحك أو يلحق أي ضرر لمصالحك الخاصة في زمن السلم (فإنك في حل بأن تفعل ما تشاء) ولك حينئذ أن تأخذ منا زوجاتنا ومواشينا وأن تتركنا نواجه مصيرنا المحتوم في القفر المجدب. بعد أن قطع القوم على أنفسهم هذا القسم، قاموا بإعلان تموچين خاقان وأعطوه إسم جنكيز».

هكذا كانت كلمات القوم حيث حدد المجتمعون (الذين ينتمون إلى) طبقة المغول الأرستقراطية، علاقاتهم التي تربطهم مع خاقانهم وقائدهم، وأخذوا على أنفسهم قسم الولاء له، كما أنهم في ذات الوقت حددوا صيغة معينة لمطالبهم (حسب الصيغة التالية): ان واجب الملك (في المجتمع) الرعوي كان يتمثل في قيادة أتباعه إلى النصر (ضد الأعداء) وذلك لغرض الحصول على كل شيء كان يعتبر شيئاً مفيداً بالنسبة لبدو السهوب ـ كالنساء الجميلات اللائي يتم أسرهن، والجياد الحسنة، والأراضي

= قسمه، وكلهم متساوون في هذا المنصب أمام الخان الأعلى في قرا ـ قروم. لذلك فقد خصص هذا اللقب «خاقان» أو «قا آن» للخان المتربع على العرش المغولي في قرا ـ قروم. (المترجم إلى العربية).

الفسيحة ذات الصيد الوافر؛ وفي الوقت ذاته، سيقوم المحاربون الأرستقراطيون، وهم المستفيدون بشكل رئيسي من هاتيك الأشياء، بإعطاء خانهم الشيء الأفضل مما يقع تحت أيديهم من غنيمة[1].

ومن الصعب جداً شرح معنى الكلمة «جنكيز»، التي أصبحت مشهورة في طول العالم وعرضه، كجزء أساسي للقب تموچين، قد تكون تخمينة ظاهرية (إذا قلنا) بأنه كان إسماً لشبح نور، حيث كان الشامانيون المغول يعبدونه في ذلك الوقت. إن هذا (٣٨) الإفتراض تؤكده حقيقة وهي أن العديد (من المغول وأتباع جنكيز خان) كانوا يعتبرون تموچين رجلاً مقدراً له (أن يحكم في القوم) من قبل السماء، كما أن تموچين نفسه يبدو أنه كان قد استسلم إلى حد كبير لفكرة تدخل (الاله) الخالد في السماء في تقرير مستقبله (المشرق الذي كان ينتظره ليكون فيه الحاكم المطلق)[2]. لهذا، فأن المسألة ستكون حشو كلام زائد وغير ضروري إذا أكدنا على الفوائد الجمة التي جناها تموچين من وراء إشاعة مثل ذلك المفهوم الذي تصوره الناس (حول ما قضت به السماء فيما يتعلق

---

(١) تبنى المؤرخون الروس نظرية الاقطاعية البدوية وهم يؤرخون للمغول. وقد رد عليهم في هذا الصدد د. كريدر في مقالة له، بعنوان: «الاقطاعية وحكومة التتر في القرون الوسطى، مجلة الدراسات المقارنة في المجتمع والتاريخ،(جـ ١ / ص .ص : ٧٦ - ٩٩ ، سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩) . انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية»، ص : ١٤٥ ، والحاشية رقم :١٠٢ (المترجم إلى العربية).

(٢) حول تفسير معنى كلمة «جنكيز» انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص : ٧٦؛ والحاشية رقم: ٣ على وجه الخصوص.

بحكم تموچين للقوم). كما أنه لم يضع أية فرصة سانحة لطرح تلك الأفكار، وذلك المفهوم والاستفادة منها على خير ما يجب لخدمة مصالحه الخاصة به نفسه.

كان أول عمل قام به الخان الجديد المنتخب هو تنظيم وترتيب «مخيمه الخاص به» أو بمعنى آخر إنشاء مركز لقيادته (العسكرية). كان تموچين قد عرف، من خلال تجاربه المريرة التي كانت تمر به، كيف كان الأمر سهلاً على البدو، ساكني السهوب والتلال، أن يقوموا بهجوم مباغت على بعضهم بعضاً، وفي أي وقت يشاؤون. كان تموچين قد أدرك جيداً الضرورة الملحة التي تحتم عليه أن يوجد لنفسه ملاذاً آمنا يلتجيء إليه، حتى وان كان ذلك المكان غير ثابت، ويمكن الإنتقال به من مكان إلى آخر، على أن يكون ذلك الملجأ مركزاً معيناً بحيث يصبح نقطة يحشد فيها أنصاره (وما يستطيع جمعه من قوات لمقابلة أي خطر قد يهدده، كأن يكون ذلك المركز) معقلاً، وإذا جاز لنا التعبير، لامبراطوريته البدوية. لذلك، فقد قام بتكوين بطانة صغيرة قوامها مجموعة من رجال السيوف ورامي السهام، الذين أصبح واجبهم المرابطة الدائمة الى جانب خيمته (والقيام بحراسته ليل نهار). بالإضافة إلى ذلك أخذ على نفسه تنظيم مسألة رعاية وحماية تلك القطعان الهائلة من الخيول، وتبني مشروع لتدريب جياد احتياطية (لتكون جاهزة لامتطاء صهواتها عندما تدعو الحاجة إلى ذلك)؛ فهذا النوع من الخدمات يعتبر شيئاً بالغ الأهمية وأساسياً بالنسبة للجماعة البدوية. كما وضع

أيضاً تحت تصرفه رجالاً دائمي الخدمة عند الطلب، بحيث يكون باستطاعته إرسالهم هنا أو هناك (سريعين) «كالسهام) طبقاً لما تمليه إحتياجاته ورغبته.

(٣٩) وعلى كل حال، فإنه مهما ظهرت هذه الإجراءات والتدابير (التي اتخذها جنكيز ـ خان) ساذجة أو تافهة فقد حملت في طياتها، بالنسبة لذلك الزمان والمكان مظهر عمل كبير ومعقد التنظيم ؛ كما تمخض في الحال عن نتائج إيجابية ملموسة. إذ أن بدو مناطق أواسط قارة آسيا أشتهر عنهم قصر نظرهم والكسل المفرطين، لأن كل حياة الراعي البدوي، مع جهلها المطبق بأي نوع من أنواع العمل المستديم، كانت قد هيأته مسبقاً إلى ذلك الاتجاه (من الخمول والجهالة وقصر نظرته إلى الحياة).

بمجرد أن أصبح تموچين خاناً، تذكر في الحال صاحبيه القديمين، فرغب أن يكافئهما وأن يرعى لهما ذلك الوفاء؛ لأن هذا النوع من الأخلاق هو سجية من سجاياه: كان قاسي القلب، ولكنه كان كريماً معطاءً، وسخياً في رد المعروف لكل صاحب جميل عليه. لذلك نجده يخاطب (ذلك الصديقين) بكورتشي وجلمه بهذه الكلمات التالية: «ان قلبي لم ينس لكما تلك اللحظات، حيث كنت في ذلك الوقت بلا صاحب أو نصير، عندما جئتما أنتما الإثنان، وقبل أي واحد من الآخرين، وأصبحتما مريدين لي: لذلك فإنكما ستحتلان المكانة الأولى على كافة المجتمعين». ثم التفت، بعد ذلك إلى طبقة المحاربين والأرستقراطيين المجتمعين حوله، وقال مخاطباً لهم: «انكم أيها

المجتمعـون هنا، وأنتم يـالذين انفصلتم عن جـامـوقـه وقـررتم الالتحاق بي ستكونون جميعاً الأصدقاء الأقدمين دوماً، وإذا حمتني السماء وساعدتني فستصبحون في نهاية الأمر رفاقي السعداء.

ـ ٥ ـ

«جنكيز ـ خان يوحّد القبائل المغولية ويكوّن إمبراطورية»

«بداية الصراع مع وانَك ـ خان»

(٤٠) لقد ثبت في النهاية أن وانـك ـ خان لم يكن إلا رجل دولة قصير النظر: إذ أنه لم يقم بإتخاذ أي إجراء يحتمي به ضد تموچين؛ كما كان مسروراً غاية السرور عندما تقلد إبن أخيه بالتبني لقب الخان. فعندما جاءته الأنباء (التي تفيد بأن تموچين قد نصب خاناً على المغول) قال: «إنها لمناسبة سعيدة تلك حينما ينصب فيها جنكيز ـ خاقان، إذ كيف تستطيعون أيها المغول، حقيقة، أن تقوموا بعمل ما بدون أن يكون لكم خاقان؟ لذلك، فعليكم دائما، أن تتذكروا ما فعلتموه الآن، فلا تنقضوا ما سبق وقررتموه بالإجماع فيما بينكم». ظلت علاقات جنكيز ـ خان بجاموقه مرضية على ما كانت عليه لبعض الوقت، إلا أنه لم يمض وقت طويل بعد انفصالهما حتى تحولت تلك العلاقات بينهما إلى صراع مكشوف: حيث وجدت السياسة الأرستقراطية التي تبناها كل واحد منهما قد أضحت متضاربة مع السياسة الديمقراطية التي انتهجها الآخر..

جرت حادثة (بسيطة بينهما) ألقت ضوءً بشكل خاص على الطبائع والعادات التي كانت تهيمن على سلوك المرء في المجتمع البدوي، (٤١) جاءت كذريعة (لقيام ذلك الصراع المرير بين الاخوين ـ جاموقه وتموچين ـ السابقين). كانت تلك الحادثة هي أن أخاً أصغر لجاموقه تجرأ فاستاق معه قطيعاً من الجياد، يمتلكها أحد أتباع جنكيز-خان. فنهض ذلك الرجل الذي أُعْتُدِيَ على جياده فلحق على أثر ذلك اللص الغازي، وتغلب عليه وقتله، فعاد وساق جياده المسروقة أمامه، وذهب عائداً الى حيث كانت تقام مخيماته. عمد جاموقه، بمجرد سماعه بخبر مقتل أخيه، إلى جمع أصحابه وسار بهم محارباً ضد جنكيز ـ خان. عند سماع الأخير خبر تجمع أصحاب جاموقه، وأنهم في طريقهم إليه تقدم بأتباعه لمصادمته؛ ولكنه أجبر على التراجع باتجاه نهر أونون، بعد ان دُحِرَ أمام خصمه. لم يقم جاموقه بتتبع أو بملاحقة عدوه، ولكنه أخذ بثأره من بعض الأرستقراطيين الذين كانوا قد وقعوا تحت أسره. لذلك نجد أن هذا التصرف من قبل جاموقه لم يمر دون أن يكون له أي تأثير مباشر، فقد قامت العديد من العشائر الأرستقراطية فانسحبت بأتباعها منفصلة عن معسكر جاموقه واللحاق بجنكيز ـ خان. كان على رأس أولئك المنشقين عن جاموقه مونليك، ذلك الرجل الذي كان يسوكاى ـ بهادر قد عهد إليه، وهو على فراش الموت، بأن يكون الوصي والراعي لشؤون أسرته من بعده.

كان كوكتشو، وهو واحد من أبناء مونليك السبعة، رجلاً شامانياً ومشعوذاً مشهوراً.

في ذلك الوقت بالذات وجد الكنز (حكام امبراطورية الصين الشمالية) أن الفرصة قد سنحت أمامهم لكي يحاولوا (بوسيلة أو بأخرى) في تدبير أمرهم للقيام بهجوم عسكري ضد التتر. (لذلك نجد) أنهم على ما يبدو قد نجحوا في اغراء مجموعة عشائر الكرايت للإشتراك معهم في مشروع الهجوم على التتر؛ وبناءً على خطة مرسومة، قام جيش الكنز بالهجوم عليهم من جانب، بينما قام وانـگ ـ خان بقيادة عشائره من الكرايت وهاجم التتر من الجانب الآخر. (كان وانـگ ـ خان قد طلب من ابن اخيه بالتبني ـ جنكيز ـ خان، أن يساهم في ذلك الهجوم) وهنا نجد أن هذا الهجوم على التتر قد أتاح له فرصة ثمينة للإنتقام منهم لمقتل والده، إلى جانب رغبته الصادقة لكي يعطي برهاناً جديداً لما يكنه من ولاء وإخلاص لحليفه القوي وانـگ ـ خان، لهذا نجد أن جنكيز ـ خان يغمره السرور والبهجة لأن يشارك في هذه الحملة العسكرية ضد التتر. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان جنكيز ـ خان (٤٢) يأمل أيضاً في أن يحصل على بعض المكاسب المادية لنفسه ولأصحابه ومريديه على حساب التتر. كان الأخيرون قد لاقوا هزيمة واحدة قبيل زمن قصير على أيدي الكنز عندما هوجموا من جانبين، حيث جاءهم وانـگ ـ خان من جهة وقاد جنكيز ـ خان هجومه عليهم من الجانب الآخر، لذلك نجد أن التتر في هذه الغارة الأخيرة منيوا بهزيمة منكرة. لقد كانت في هذه المناسبة عينها عندما تلقى شيخ عشائر الكيرايت، لقب وانـگ ـ خان من قبل امبراطور الكنز الذي كان شاكراً لتلك الخدمة التي قدمها رئيس الكيرايت، وقد أصبح وانـگ ـ خان معروفاً في الأوساط العامة بهذا

اللقب. أماتموچين فقد كوفيء (من قبل الصينيين) بلقب جوخوري وهو لقب أقل مكانة (من ذلك الذي منح لحليفه طغرل ـ خان) ويعني قائد منطقة الحدود العسكري.

بعد هذه الحملة مباشرة قام جنكيز ـ خان بإعلانها على رؤوس الأشهاد، في بيان لا لبس فيه ولا تحفظ، بأنه هو السيد والخان الحقيقي؛ ولذلك فإن ما يأمر به ويريده يجب ان يقبل وينفذ دون معارضة، فلا حصانة من العقاب لمعترض أو مخالف. لم تشترك عشيرة جوركي، والتي كانت برئاسة شيخيها الكبيرين ـ ساتشا ـ بيگي وداي تشو، وهما ابنا حفيد قَبُول ـ خان، من جهة فرع الأسرة الأكبر، في تلك الحملة العسكرية التي كانت ضد التتر. وهنا نجد أن جنكيز ـ خان يعيد إلى الأذهان مخالفات سابقة كانت قد برزت من تلك العشيرة وشيخيها، رغم أن هذه المسألة (عدم اشتراكهم معه ضد التتر) كانت التهمة الرئيسية. (لذلك، فقد وجدها جنيكز ـ خان مناسبة حملت معها ما قبلها من سوابق) فجمع جنده وهاجمهم برجاله جميعهم، فدمر منازلهم وأذل رجالهم، واستباح حرمهم وأخضعهم جميعاً تحت ذل الأسر. أما بالنسبة لذلك الشيخين، ساتشا ـ بيگي وداي تشو، فقد أنزلت بهما عقوبة الموت، رغم ما كانا يتمتعان به من مكانة ونسب راقيين. وقد شاركهما في ذلك المصير الأسود المحتوم عضو ثالث من تلك العشيرة ذات المحتد النبيل، هو بوري ـ بوكه. حيث قتل بطريقة قمة في الغدر والخيانة؛ وذلك نزولاً عندما أمر به جنكيز ـ خان، الذي (٤٣) كان يكرهه لكونه كان قد تشاجر ذات مرة، وهو

في حالة سكر، مع أخيه بلكوتـي، فجرحه في كتفه بالسيف جرحاً بليغاً.

في حوالي سنة ١٢٠١ م /٥٩٨ ـ ٥٩٩ هـ نجد أن جاموقه قد أصبح محور تجمع احتشدت حوله جميع القبائل والعشائر المعارضة للخضوع تحت نفوذ وسلطة جنكيز ـ خان. وبما أن كلاً من تموچين ووانـگ ـ خان كانا يعملان جهدهما في سبيل انشاء امبراطورية عظيمة، فقد أصبح من الأمر الطبيعي والمسلم به أن تعتبر تلك القبائل والعشائر (المعارضـة برئاسة جاموقه) أن كلاً من جنكيز ـ خان ووانـگ ـ خان وقومهما أعداء ألداء لهم. (وهنـاك اجتمع القوم، على ما يبدو، وأخذوا يتحزبون للأمر ويعدون له عدته، فعقدوا لهم اجتماعاً عاماً) على ضفاف نهـر اركون[١]، وهناك أُختير جاموقه ـ ستشن بأن يكون رئيساً على تحالف جديد، كونته عشائر وقبائل (معارضة لكل من جنكيز ـ خان وحليفه وانـگ ـ خان) وأعطى ذلك الرئيس الجديد (جاموقـه) لقب گور ـ خاقان، (يعني ذلك) ملك جميع البشـر[٢]، وقد ظهـر واضحاً هنـا أن العناصر الديمقراطية، من بين أتباع ومناصري جاموقه، أصبحت صاحبة الكلمة (داخل ذلك الاتحاد الائتلافي تحت قيادة جاموقه)،

---

(١) هو الرافد (الأيمن) الجنوبي لنهـر أمـور الأعلى، إذ أن (نهـر) كرولـن يكون مجراه الأعلى (المترجم إلـى الانجليزيـة).

(٢) لم يعط لقب خاقان، كما ذكر المؤلف، بل أعطى لقب خان. لمعلومات أوفى عن معنى كلمتي گورخان، انظر ما قلناه في هذا الخصوص في كتابنا «سقوط الدولة العبـاسية» ص : ٨٩، والحـاشيـة رقم : ١ في نفس الصفحـة (المتـرجم إلى العربية).

والعلة الكامنة وراء ذلك هو أنهم قد أصبحت لديهم، إلى حد كبير جداً، أسباب تجعلهم يخشون تصاعد قوة الأعداء، سواء أكان جنكيز ـ خان أو وانگ ـ خان. ومع ذلك، فإن العشائر الديمقراطية، التي ارتبطت بغيرها من القبائل الأخرى مع جاموقه، لسبب أو لآخر، قد شاركت في انتخابه وتنصيبه گور ـ خاقان.

لم يمض وقت طويل قبيل أن تنشب حروب شعواء بين جاموقه من جانب واحد وجنكيز ـ خان ووانگ ـ خان من الجانب الآخر. لم يحظ جاموقه بحظ طيب (في حروبه ومناوشاته تلك). حيث شرع جنوده ينشقون من حزبه. وهناك أخذ جنكيز ـ خان ووانگ خان في ملاحقته، الأمر الذي اضطر جاموقه إلى التراجع من أمام العدو، منسحباً إلى الخلف بقومه ومنازلهم، باتجاه المناطق السفلية لنهر أركون.

(٤٤) بعد الآن (أي بعد أن قوض قوة التتر وقضى على تفوق جاموقه بالتعاون مع حليفه وانگ ـ خان) وجدها جنكيز ـ خان فرصة سانحة لكي يلتفت إلى أقربائه (وهم المنشقون منذ زمن بعيد، أي بعد وفاة والده) أفراد عشيرة تاي تشيوت لتصفية حسابه معهم، ولكنه لم يحالفه النجاح في بداية الأمر. فقد فشل أن يهزم عدوه، بل انه نفسه كان قد أصيب بجرح بليغ في عنقه أغمى عليه بعدها (من أثر الدماء التي نزفها ذلك الجرح). كانت هذه الحادثة منشأ قصة تلك العملية الجريئة التي قام بتنفيذها ذلك الصديق والرفيق الحميم، جِلْمِهْ، فقد قام هذا الصاحب بمص الدماء المتخثرة (من أثر الجرح الذي أصيب به خانه) الى خارج مكان الجرح، ثم

زحف بعد ذلك إلى داخل مخيم العدو، واختطف منه سطلاً (مملوءً) بـ أيْرَان (اللبن الحامض) ليخمد به لهيب عطش جنكيز. إلا أن الرجال العسكريين من تاي تشيوت لم يثبتوا على أنهم قوم يعول عليهم (في الملمات)، (اذ سرعان) ما شرعوا في التفكك (فتشتتوا هنا وهناك)، وفي النهاية لم يجد جنكيز أية صعوبة تذكر في الإطاحة بجميع رجالهم، فوقعوا جميعهم أسرى في يديه، وسهلت عليه مسألة التخلص من أعدائه. وفي هذا الوقت بالذات، وبصورة مفاجئة، جاء شاب يافع، من عشيرة يسوت، والذي كان تابعاً لعشيرة تاي تشيوت، وتقدم بنفسه أمام جنكيز ـ خان. كان اسم ذلك الشاب جِيْر كُودَايَ. اعترف أمامه بأنه كان مع جاموقه، وأنه هو الذي أصاب جواد جنكيز ـ خان بسهم (في معركة كانت قد جرت بين الطرفين في زمان سابق). ثم قال مخاطباً جنكيز: «والآن أيها الخان، إن أنت أمرت بي لكي أقتل، فإنك بعملك ذلك سوف تلوث رقعة صغيرة فقط من الأرض، لا تتعدى (على الإطلاق مساحة) راحة اليد، أما إذا أنت تركتني حياً، فإنني سوف أخدمك بكل صدق وحماسة، سوف أقف أمام السيل الجارف وأمزق الصخور إلى قطع صغيرة (حماية لك)». كانت إجابة جنكيز ـ خان نماطاً متميزاً (تنم عن بعد نظر وتعكس أحد جوانب أسرار شخصيته، حيث قال مجيباً: «عندما يحاول عدو أن يقتل رجلاً، فإنه عادة ما يظل مطبق الصمت حول ما نوى به من عمل، ولم يقله لأي أمر آخر، أما أنت فلم تخف ذلك، لهذا فسوف (٤٥) تكون رفيقي». ثم أخذه معه إلى خيمته وغير اسمه، وأعطاه بدلاً عنه جِبهْ، والذي يعني السهم، وذلك إحياءً لذكرى ذلك

العمل الذي أخطأه (جبه) في إصابة الهدف (أي أنه أخطأ هدفه وهو جنكيز ـ خان بسهمه، فأصاب جواده). كان جبه هو ذلك الرجل، الموهوب الرائع، الذي أصبح فيما بعد واحداً من أعظم وأبرز قادة جنكيز ـ خان العسكريين. كان (جبه) أحد القائدين العسكريين الذين كانا في كالكا[1] حيث هزم جيش المغول الروس.

إستمرت قوة جنكيز ـ خان في التعاظم، كما ازداد عدد العشائر التي انضوت تحت لوائه. وفوق ذلك فإنه لم يفرط في صداقة (حليفه القديم)وانك ـ خان. فقد استطاع آنئذ أن يكمل مسألة تدمير التتر، بشكل نهائي، منتقماً بذلك منهم في كافة ثأراته السالفة عندهم، وبعمله ذلك يكون قد ضمن حماية نفسه من الخلف إن هو أراد فيما بعد أن يقوم بحملات عسكرية في مناطق منغوليا الوسطى. في عشية معركته الفاصلة مع التتر، كان جنكيز ـ خان قد أصدر إلى جنوده في ذلك اليوم القرار التالي، قائلاً: «يجب عليكم ألا تنجرفوا سعياً خلف الغنائم، إن نحن انتصرنا على العدو، لأننا عندما ننتهي من كل شيء (يعني يبدأون أول الأمر بتدمير العدو تدميراً كاملاً) فإن الأسلاب سوف تقسم إلى أسهم متساوية. أما إذا أجبر الرجال (رجال جنكيز) على التراجع إلى الخلف حيث كانت مواقعهم الأولى فلا بد أن تعاودوا الكرة عليهم مرة أخرى وليحاربوا بكل شجاعة وبسالة متزايدة، أما الذين

---

(١) تسمى في الوقت الحاضر كالميوس، وهو رافد صغير من بحر آزوف، يقع في المنطقة الجنوبية الشرقية من أوكرانيا (المترجم إلى الانجليزية).

يتراجعون إلى الخلف، ولم يعاودوا استئناف المسيرة إلى الأمام (ومواصلة الحرب)، فسوف يقطع رأس كل من يقدم على هذا النوع من العمل». لذلك، فقد استطاعوا أن يبيدوا التتر عن بكرة أبيهم، وأن يجتثهم جنكيز ـ خان وقومه، وأن يحوزوا على منازلهم وما حوت. كان من (٤٦) نتيجة ذلك النصر أن أصبحت المسألة واضحة أمام أعين كل من التان، وكوتشار، وكبار من في طبقتهم من الرجال الأرستقراطيين، من أن تموچين قد أصبح فعلاً جنكيز ـ خان بصورة لا تقبل الريب والشك، وأنه بعيد كل البعد عن أن يكون اداة طيعة في أيديهم (يديرونها حيثما شاؤا كما كانوا قد خططوه مسبقاً)، لأنه لم يسمح أوَ يدع لأي امرىء، مهما كانت نبل وشرف المكانة التي يتربع عليها، أن ينتهك أو يعصي أوامره، أو أن يخالف ذلك النظام الصارم الذي أشاد بناءه. إذ أنه ما أن بدأت المعركة مع التتر يحتدم أوارها حتى شرع أولئك الرجال الأشراف في جمع الأسلاب مما وقع تحت أيديهم من أملاك التتر. أخبر جنكيز ـ خان حول هذا الموضوع في الحال، فأصدر أوامره (إلى ذوي الإختصاص) بأن تؤخذ منهم جميع الغنائم التي جمعوها (وتوضع مع غيرها، أسوة بالبقية الباقية).

بعد أن تشاور جنكيز ـ خان مع رجال أقاربه، قام بارتكاب سلسلة من المذابح الشنيعة في حق التتر، رغبة منه في تدمير أعداء أهل بيته الألداء القديمين، وحباً منه في أن يجتثهم من جذورهم. أما الأحياء منهم فقد تم توزيعهم بين مختلف العشائر والقبائل (من أتباع جنكيز)، لهذا، فمنذ ذلك الوقت اختفى كل أثر للتتر من الوجود، وأصبحوا أمة منقرضة الكيان. أخذ جنكيز ـ خان

سيدتين جميلتين تتريتين، هما يسوى، ويسوكن، وأصبحتا زوجتين له. فارتفع بذلك عدد زوجاته الى ثلاث. إذ أن كل واحدة منهن أصبح لها «منزلها» الخاص بها، أو مقر سكناها ومنشأتها الخاصة بها، وذلك طبقاً لما تقتضيه العادات والتقاليد المغولية البدوية.

على الرغم من أن هزيمة التتر قد زادت من قوة جنكيز ـ خان بشكل هائل، إلا أنه كان مايزال يعترف (حتى ذلك الوقت) بسيادة وانـگ ـ خان عليه، فقد ظل، إلى حد ما، تابعاً لحاكم (قبيلة) الكيرايت (٤٧)، ومع ذلك، فإن إحساس وشعور الأخير تجاهه أضحى تدريجياً أقل ودية من ذي قبل، فقد دخل (وانـگ ـ خان) في اتفاقية مع جاموقه، الذي هيج روح وانـگ ـ خان العدائية المتزايدة تلك ضد تموچين. فقد دس إليه (إلى وانـگ ـ خان) بأن الأخير (تموچين) كان محتفظاً بعلاقات سرية مع النيمان[1]؛ وأنه قد وصل إلى نقطة يوشك معها أن يغدر (بحلفائه من قبيلة) الكيرايت. وهنا قال: «إنني أنا نفسي شبيه بـ «قنبرة» تعيش دائما في نفس المكان، ولكن تيموچين شبيه بـ «طائر» مسافر تغريده يدوي في الأجواء». في مناسبات كثيرة، كان وانـگ ـ خان (عندما يقوم بالهجوم على قوم أو عشائر فيكسب منهم أسلاباً ومغانم) يرفض أن يعطي (أو يرسل إلى حليفه) جنكيز ـ خان نصيبه من الغنائم العامة (التي كان يجنيها وانـگ ـ خان من غاراته أو غزواته والتي كان يقوم بتنفيذها بمفرده، دون أن يعلم ذلك الحليف

(١) النيمانيون أحد الأقوام التي كانت تقطن أواسط آسيا، وعلى وجه التحديد على السفوح الشرقية من جبال الطائي، لمعلومات أوفر، انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية»، ص . ص : ٧٢ ـ ٧٦ .

المغولي) بينما كان الحليفان عائدين من حملة عسكرية ناجحة كانا قد قاما بها ضد النيمانيين، عندما كان جنكيز ـ خان يسير مصحوباً بـ وانـگ ـ خان لقيا قوات جديدة للأعداء تترصدهم، في تجمع كانت قد عملته تحت رئاسة أحد رؤسائها العشائريين. وهناك، وبطريقة، تنم عن الغدر والخيانةهجر وانـگ ـ خان جنكيز ـ خان، حيث غادر المكان (بصورة سرية) وأخذ مواصلاً سيره خلال الليل متجهاً إلى أراضيه الرعوية الخاصة به وبقومه (تاركاً جنيكز ـ خان وحده ليقابل مصيره على أيدي تلك القوات النيمانية المترصدة له).

لم يتمخض انسحاب وانـگ ـ خان الغادر عن كارثة مدمرة لجنكيز ـ خان (كما كان يعتقد) فقد قام (بعد أن عرف بغدر حليفه) بتخطيط انسحابه بكل مهارة ودراية؛ فاستطاع بذلك أن يصل إلى بلاده سالماً (دون أن يتعرض لما كان يأمله وانـگ ـ خان). (وقد كانت النتيجة معاكسة لما خططه الأخير)، إذ هاجمه النيمانيون (فقتلوا، وأسروا من قومه) وحازوا منه على غنائم وأسلاب عظيمة. لذلك وجد نفسه في مركز أضحى معه مجبراً على أن يذهب إلى حليفه جنكيز ـ خان، ويطلب عونه (ضد القوم النيمانيين) وأن يرسل إليه أربعة من الكولوك (المقاتلون العظام)، بكورتشي، وموكلي، وبرولا، وتشيلاون. (وقد قام أولئك المحاربون الأربعة من رجال جنكيز ـ خان بأعمال عظيمة لخدمة ذلك الحليف، وإن كان غادراً) الأمر الذي جعل وانـگ ـ خان في وضع يجبره على أن يحيي ويشيد فيهم (٤٨) مواهبهم ومهاراتهم التنظيمية العسكرية (التي قاموا بها) والتي كانت نتائجها مثمرة، وحققت جميع توقعاته (التي كان يرنو إليها ضد النيمانيين).

على الرغم من النجاح الكبير الذي حققه تموچين في حملات عسكرية عديدة، فإنه حتى ذلك الوقت لم يفكر على الإطلاق في القيام في وجه، أو معارضة، وانـگ ـ خان، أو أن يتحدى سلطته. إذ أن جنكيز ـ خان، كان مايزال يعتبر، في نظر المغول، بأنه لم يخرج بعد عن كونه قائداً لعدد قليل من العشائر الأرستقراطية، ورجلاً مايزال يسير الحظ في ركابه، وانه لم يحقق بعض النجاح إلا لأن تلك العشائر كانت قد نجحت في أن تدخل في اتحاد فيما بينها وتكون وحدة كاملة منظمة تنظيماً جيداً. وفوق ذلك كله لا يخرج عن كونه رجلاً حديث نعمة. أما بالنسبة لـ: وانـگ ـ خان، من الناحية الثانية، فانه كان ذلك الحاكم لدولة كبيرة، وإن كانت مهلهلة التنظيم، ثم انه رجل سليل أسرة ملكية حاكمة ذات نسب عريق، اذ يبدو جلياً من مظهر خيامه التي تصور، إلى درجةكبيرة، الترف (الذي كان يعيشه وانـگ ـ خان)، كما أن امبراطور الكنز نفسه، وهو سيد القسم الشمالي من الأراضي الصينية الوفيرة الخيرات، كان قد شرفه بأن منحه لقب وانـگ ـ لذلك، نجد أن هذه الأشياء جميعها قد تركت طابعاً خاصاً أثر على أبناء السهوب ذوي العقليات الساذجة، إذ أنهم جعلوامن وانـگ ـ خان رجلاً فوق جميع القادة من البدو الآخرين في منغوليا. وهنا أصبح تموچين في وضع جعله يستغل العلاقات الطيبة التي تربطه بحاكم الكيرايت، استغلالاً مقنعاً سخره لخدمة مصالحه الخاصة. تبنى (جنكيز ـ خان) خطة ليؤكد فيها مكانته الخاصة به (في علاقاته مع وانـگ ـ خان،وادارة شؤون اتباعه من الناحية الثانية) وليعطي تلك المكانة، إضافة إلى ذلك، رونقاً جديداً، فكانت تلك الخطة هي

رغبته وتلهفه الدائمين في أن يدخل مع ذلك الحاكم العظيم في علاقات أبوية من نوع خاص، وأن يصبح نسيباً (كوركن) لذلك الخان القوي، فقد كان يمثل لقباً ذي مكانة مرموقة في داخل مجتمع السهوب. وهناك تقدم جنكيز بطلب يد تشور بيگي، ابنة وانـگ - (٤٩)خان لابنه الأكبر جوتشي، وفي ذات الوقت قدم جنكيز - خان نفسه ابنته كجين، إلى واحد من أحفاد وانـگ - خان، الذي كان أبوه، ابن حاكم الكيرايت، ويعرف في المصادر الصينية بلقب سِنْ - كونك[1]. إلا أن وانـگ - خان رفض، مع ذلك، تلك المقترحات (التي قدمها جنكيز - خان)؛ وهنا يقول (صاحب) تاريَخ المغـول السري أن ذلـك الأمر (رفض الاقتـراح)، جعـل قلب تموچين يتحجر (وكأنه) قطعة ثلجية متصلبة. وفي الحقيقة، فإن مسألة ذلك الرفض لا بد وأن يكون مصحوباً بخيبة أمل عظيمة بالنسبة له (لجنكيز - خان)، لأن الأمل في أن يصبح منتسباً (عن طريق المصاهرة) إلى خان عظيم ذي المحتد النبيل، قد حدت، بشكل قوي، من تخيله الأرستقراطي (الذي كان دوماً يتغنى به ويرنوا إليه). لم يمض وقت طويل بعد ذلك، حتى بدأت تمر به سلسلة إضافية من المحن المتتالية وخيبات أمل متتابعة.

قام كل من التان وأقرباء له آخـرين باعـلان انفصالهم عن

---

(١) هو الابن الأكبر لرئيس قبيلة الكيرايت، واسمه في المصادر الفارسية يلاق سنجوم، حول هذا الموضوع انظر: نصير الدين الطوسي، المقدمة الطويلة لجدول المرصد الايلخاني، حققها وترجمها إلى اللغة الانجليزية الأستاذ الدكتور ج. أ. بويل، مـجلة الـدراسـات الـسـامـيـة، ١٩٦٣ م، جـ ٨/ ص .ص : ٢٤٤ - ٢٥٤ (ص : ٢٤٨).

تموچين على رؤوس الأشهاد؛ ثم دخلوا في علاقات جديدة وحُسْن تفاهم أفضل مع جاموقه؛ فانتقلوا بمنازلهم إلى مكان أكثر قرباً من مخيمات سِنْ ـ كونك، ابن وانـگ ـ خان، الذي أصبح آنئذٍ يتبنى شعوراً معادياً وميلاً مناهضاً بشكل خاص تجاه جنكيز. فقد اكتشفوا عن كثب بأنه كان يتحتم عليهم طاعة مطلقة عمياء، وخضوعاً تاماً لإرادة ورغبة جنكيز، ما دام متربعاً على منصب الخان، (فوجدوا أن طاعتهم المطلقة له) أصبحت تتعارض كلية مع رغبات هؤلاء الأرستقراطيين، ذوي الميول والإحساس بالاستقلالية. نجح كل من سن ـ كونك (ابن خان الكيرايت) وأتباعه في اقناع وانـگ ـ خان بأن جنكيز كان على اتصالات (دائمة) بأعدائهم، النيمانيين، ولذلك فإنه أخذ يتهيأ للقيام (معهم) بعمل لالحاق الأذى بهم (بـ: قبائل الكيرايت ومن يدور في فلكها)، على الرغم من عدم اقتناع شيخ الكيرايت بما يَدَّعُونَ إلا أنه أجبر راغماً على أن يقوم بعمل حاسم ضد جنكيز ـ خان؛ بناءً على ذلك قرر وانـگ ـ خان أن يتولى تنفيذ (مخطط لحرب يشنها الحزب المعارض ضد الخان المغولي).

(٥٠) كانت الخطة التي تبناها أنصار سن ـ كونك تقضي بأن يحبك مخطط ليوقعوا في شراكه جنكيز ـ خان، ومن ثم يلقوا القبض عليه، وكان ذلك المخطط يقضي بأن يتظاهر القوم بأنهم يودون الالتحاق، برغبة صادقة، بركبه وأنهم يرغبون أن يصبحوا أتباعاً له، ولكن فشلت تلك الخطة الماكرة؛ وعندها تبنوا منهجاً جديداً، وذلك بمحاولة القبض عليه في هجوم مباغت يقومون به ضده. إلا أن نصيب هذا المشروع الأخير من النجاح كان مثيلاً

لما سبق وحظيت به الخطة الأولى، إذ لم تشأ الأمور أن تأخذ حيزها من الاطار العام. فقد ذهب راعيان من رعاة الأعداء إلى جنكيز ـ خان، وأعلاماه بما خططه القوم ضده، قبل الهجوم بوقت كافٍ، ولذلك، نجد أنه يأخذ للأمر أهبته، فعندما جاء اليوم التالي، وأقبل وانـگ ـ خان على رأس جيش أحزابه، كان جنكيز ـ خان على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسه وقومه. وهناك سأل وانـگ ـ خان جاموقه قائلاً: «يا ترى من يكون جند جنكيز ـ خان؟» فأجابه جاموقه قائلاً: «عشيرتان، هما أوروت ومَنْكُوتْ، فلديه رجال عسكريون من طرازٍ راقٍ، إذ أنهم حينما يلتحمون في مناجزة صاخبة (مع الأعداء) لا يصبحون معها في نظام مشوش أو مختل؛ ولقد تعودوا منذ نعومة أظفارهم على حسن استعمال الحرابِ والرماح، والسيوف، إن أعلامهم مخضبة (بالألوان) أو أنها سود، ولذلك، فإنهم عندما يظهرون لنا، فلا بد أن نكون على استعداد تام لملاقاتهم». استطاع جنكيز ـ خان أن يصد عادية جميع الهجمات التي قام بها وانـگ ـ خان وحلفاؤه في تلك المعركة التي نشبت بين الطرفين (والتي أرادت القوة المهاجمة من وراء هجومها المباغت ذاك، القبض على خان المغول ـ جنكيز وهو على حين غرة من أمره) فأصيب سن ـ كونك في ميدان القتال بسهم وجرحه. ومع ذلك قرر جنكيز ـ خان أن ينسحب من ميدان القتال، وأن يقضي تلك الليلة في مكان بعيد عن موقع المعركة. وفي صبيحة اليوم التالي، وعندما بدأت خيوط الفجر تضيء للقوم وتجلي عتمة الليل، واستقبل جنكيز ـ خان جنوده، لاحظ بأن ثلاثة منهم كانوا مفقودين (ولم يرهم بين بقية الرجال)؛ كان أولئك المفقودون هم: ولده أوگتاي، وبر ـ كولا، وبكورتشي. وهنا خاطب الحاضرين قائلاً: ، بأن: «أوگتاي، وبر ـ كولا، وبكورتشي أكثر جميع رجالي

ثقة، كانوا يعيشون معاً وأنهم (٥١) لا بد أنهم قد ماتوا سوية، فلم يريدوا أن ينفصلوا (عن بعضهم حتى في مسألة الموت أو الحياة)». إلا أنه بعد برهة من الزمن ظهر لهم بكورتشي راكباً (على جواده، وعندما رآه) جنكيز صرخ بأعلى صوته وهو يضرب صدره (بيده) رافعاً رأسه إلى السماء (وقال): «آه». وهنا يذكر (صاحب) التاريخ السري أنه «بعد لحظات قلائل ظهر لهم في الأفق البعيد فارس آخر ممتطياً صهوة جواد، وكلما اقترب شيئاً فشيئاً أصبح، على ما يبدو، بأن أربع أرجل تتدلى من على ظهر الجواد، فكان ذلك أوگتاي، وبر ـ كولا راكبين على صهوة ذلك الجواد. كان فم بر ـ كولا ملوثاً بالدماء، لأنه كان قد امتص قطع الدم المتجمد إلى خارج الجرح الذي أصيب به أوگتاي نتيجة سهم أصابه في عنقه. وعندما رأى جنكيز ـ خان ذلك انفجر يبكي، وخاصة عند مشاهدة المنظر المؤلم الذي كان عليه ولده، وأخذ الحزن بقلبه كل مأخذ». لم تكن القوات التي كانت تحت تصرف جنكيز ـ خان كافية لمواصلة صراعه المرير (ضد قوات وانگ ـ خان وحلفائه). لذلك لم يجد أمامه سوى طريقة واحدة وهي أن يواصل انسحابه (وأن يتراجع إلى الوراء أمام خصومه). كانت مؤن الجيش (جيش جنكيز ـ خان) الغذائية تتمثل في صيد ما يقع في أيدي القوم من حيوانات في مناطق الصيد الكبرى المتواجدة على الطريق الذي سلكوه أثناء تراجعهم. كان التقهقر ذلك محاذياً على طول (ضفاف) نهر كلكا[1]. بعد أن تراجع إلى

---

(١) يجب ألا يكون هناك التباس بين هذا النهر وبين النهر الذي ذكر في ص :٧٥ (المترجم إلى الانجليزية). فالأول يقع في الأراضي الروسية، بينما يعتبر هذا النهر أحد الأنهار في الأراضي المغولية (المترجم إلى العربية).

مسافة معينة، حيث واصل انسحابه محافظاً على تماسك نظام قواته بعض الشيء، أرسل جنكيز وفوداً من عنده إلى وانـگ ـ خان، وإلى سن ـ كونك، وإلى جـاموقـه، وإلى التان وإلى حلفـائهم الآخرين، حيث كان أعضاء هذا الوفد سينقلون إلى هؤلاء القوم نصحه لهم بأن يقبلوا الدخول معه في سلم وموادعة؛ كما حمل رسله وعوداً منه بأن يعلن استسلامه لهم. حتى ذلك الوقت كان كل من جنكيز ـ خان وأتباعه، كما هي الحالة أيضاً بالنسبة لبقية الأقـوام، أناسـاً جهلة (فهم قوم ليسـوا فقط لا يعرفـون القراءة والكتابة، بل وليس لهم أحرف أبجدية خاصة بهم، وكانوا حتى تلك الفترة لا يعرفون أن ما ينطق به المرء يمكن أن يدون كتابة). فكانت الرسائل المتبادلة بينهم تلقى إليهم (إلى الرسل) مشافهة بالفم، حيث يقوم بذلك رجال ذوي حافظة جيدة. (٥٢) ولكي يجعلون الرسالة أكثر سهولة لفهمها من ناحية واعادة قولها كلمة كلمة من جهة ثانية، فإن (الوسائل المتبادلة بين شخص وآخر) غالباً ما تنشأ وتصاغ في شكل أبيات شعرية، كما يوشى (ذلك الشعر) بالأمثلة السائرة وبالتعبيرات المجازية. كانت رسالة جنكيز ـ خان (التي بعث بها) إلى وانـگ ـ خان تشتمـل على المقاطـع التالية: «أيها الأب! لماذا أصبحت الآن غاضباً عليّ وأدخلت الهلع في (قلبي)؟ إذا كان هناك داع إلى أن تؤنبني فكان من الأولى والأجدر أن يكون ذلك بطريقة ودية مسالمة، حتى يمكن معها أن نتحاشى تدمير ممتلكاتي.. على الـرغم من صغري (في أعين الآخرين) فإنني أقدر بالكثيرين (من الرجال)، ومهما كنت رديئاً، فإنني أعادل أولئك (الذين يعتبرون من) الصالحين. إلى جانب ذلك، فإنني وأنت، شبيهان بساريتي عربة الكارّة، إذ أنه عندما تنكسر إحداهما فإن الثور (الذي يقوم بجر تلك العربة) لا يستطيع

الاستمرار في جر عربة الكارّة، إنني وأنت، مثلنا مثل عجلتي عربة الكارّة، فإذا ما انكسرت إحداهما، فإن عربة الكارة لا تستطيع أن تتحرك، لهذا، أفليس من الجائز لي أن أقارنك بسارية (أو بعمود خشبي) وبعجلة (عربة الكارة)؟ ». أما رسالته (التي بعث بها) إلى التان وكوتشار فكانت تحتوي على مضمون تذكيري بذلك القسم الذي كانا قد قطعاه على نفسيهما في الوقت الذي تم فيه انتخاب جنكيز، كما (كانت الرسالة هذه) تؤكد على نوعية المنهج الذي كان ينهجه في القيام بأداء واجباته كسيد وملك من طبقة الارستقراطيين في مناطق السهوب (قائلاً): «عندما (كنت أغزو قوماً) وآخذ منهم العديد من الجياد إلى حوزتي، وكذلك الكثير من قطعان المواشي، وأعداد كبيرة من النساء والأطفال كنت أعطيكم ذلك جميعه. وإذا ما كنا نقوم بترتيب مشروع صيد، أو إثارته من مكامن صيده للاقتناص، فإنني كنت أقوم بتهيئة الأمور على خير ما يجب أن تكون عليه، كل ذلك كان من أجلكم، فكانت طرائد صيد الجبل تثار من مكامنها وتساق إلى حيث تكون وجهتكم (لتتمكنوا أنتم من الفوز بصيدها)».

ومع كل ذلك، فإن أعداءه لم يعيروا، إلى أي من هذه الكلمات المسالمة، أية التفاتة أو انتباه. وهنا يقول سن ـ كونك: «لقد غصت بتعمق إلى المعنى السري (٥٣) الذي يحويه كلامه (كلام جنكيز ـ خان) إلا أن الكلام الحقيقي والوحيد بيننا هو القتال. فارفعوا الراية العظيمة، وسمنوا جيادكم في (أحسن وأفضل) الأماكن الرعوية. فلا سبيل (أمامنا) إلى أي مجال للتردد». (بناءً على ذلك، نجد أن) جنكيز أجبر على أن يرحل إلى مكان بعيد حتى سواحل المستنقعة السبخة الواقعة على ضفاف

بحيرة بلجون، حيث أصبح في استطاعته أن يتوارى بنفسه (عن أنظار الأعداء) وأن يشعر بأنه في مأمن كافٍ (إلى حد كبير) من أن يقع تحت هجوم غير متوقع. كان مركزه (مركز جنكيز ـ خان حتى هذا الوقت) ما يزال محفوفاً بالمخاطر، كما أن الضرورة التي ألجأته إلى أن يقيم مخيماته في داخل تلك المستنقعات والسباخ، قد جعله ذلك كله يحس بأن هذه الأمور أصبحت جميعها فوق كل ما يمكن أن تتحمله طاقته وصبره.

(رغم ظروف جنكيز ـ خان العصيبة التي أصبح يعانيها) إلا أن عدد أتباعه ومريديه أخذ يتزايد مرة أخرى، فقد شرع رجال يلتفون حوله، حيث أحسوا بأن الأمر أصبح مسألة مربحة إذا ما هم شايعوه وأصبحوا من أنصاره؛ كان اعتقادهم في مستقبله المبشر بالخير مسألة راسخة رسوخاً عميقاً في الأذهان. كان تجار مسلمون من بين أولئك الذين جاءوا وربطوا مصيرهم بمصيره[1]. إذ أن تجارة جميع مناطق آسيا الوسطى كانت آنذاك تتمركز في أيديهم، وقد دخلوا إلى الأعماق الداخلية من قارة آسيا. وبالدخول في تعامل وتبادل مصالح مع فئة من هذه النوعية من الرجال يكون قد أعطاه فرصة قيمة لتوسيع أفق مداركه بشكل جعله يتعلم الكثير جداً عن عالم زمانه في مجموعه آنذاك، وكذلك عن طريقهم استطاع أن يعرف معلومات وافرة عن أراضي وأمم أخرى كثيرة. ربما كانت سماحة وكرم وتسامح جنكيز هي التي جذبت أولئك التجار وجعلتهم ينضوون تحت رئاسته، فالمسألة لم تكن بدون أي سبب

---

(١) تكلمنا عن دور المسلمين الفعال في بناء امبراطورية جنكيز ـ خان في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص . ص . : ١٠٩ ـ ١١٤.

عندما كان الناس يقولون عنه: «إن الأمير تموچين يأخذ جزءً من لباسه الذي يرتديه ويقدمه هبة (لأصحابه)؛ إنه يترجل عن جواده الذي يركبه، ويعطي ركوبه (لغيره بدلاً منه، مؤثراً في ذلك الغير على نفسه).

كان أخوه كسار، الذي كانت زوجته وكان أطفاله ما يزالون (٥٤) باقين تحت سلطة ونفوذ وانـگ ـ خان، ممن جاء أيضاً إلى جنكيز، حيث وجد في هذا (في مجيء كسار إليه) فرصة طيبة يجب ألا تفوت(لاحبـاك مخطط ضـد الأعداء). فحسب ما يمكن أن نفهم، فإنه أخذ يخطط الآن لمشروع غادرٍ، حتى بدون أي وخز من ضميره، أراد تنفيذه ضد ذلك الرجل الذي كان يدعوه بالأمس القريب «بالأب». فقد كان هو نفسه (جنكيز ـ خان) في أوضاع عصيبة، كما كان على علم ويقين لا يرقى إليه الشك بأنه إن خرج وانـگ ـ خان (من ذلك النزاع معه) منتصراً، (ووقع هو في قبضته) فإنه يتحتم عليه ألا يتوقع أي رحمة يحصل عليها من على أيدي خصومه، وفي مقدمتهم وانـگ ـ خان وابنه وحلفاؤه، الذين انشقوا من تحت رئاسته). وهناك آمن إيماناً راسخاً بأن من واجبه أن يستمر في مواصلة كفاحه، بدون توقف أو انحراف عن المنهج الذي اتخذه، لتحقيق غرضه الأساسي، ألا وهو استعـادة مجد وعظمة عشيرة المغول، بحيث يصبح هو نفسه لها ومتربعاً كذلك على رئاسة طبقة السهوب الأرستقراطية. إلى جانب ذلك، فانه لا الظروف التي ولد وشب (جنكيز ـ خان) فيهـا عن الطوق، ولا الحياة التي عاشها والتي عرفها، كانت تشتمل على أية مبادىء أو مثل ما يمكن أن يكون لها أي تأثير كابح له (يقف أمام تحقيق ما يصبو إليه بشتى الوسائل). لذلك أرسل رجلين مدعيين بأنهمـا

رسولان أرسلا من قبل كسار (أخو جنكيز) إلى وانـگ ـ خان، إذ أن التعليمات الصادرة إليهما تقضي بأن يسلما إليه الرسالـة التاليـة (على لسان كسار): «لم أتمكن على الاطلاق أن أجد أي أثر، في أي مكان، استدل به على وجود أخي (جنكيز)، فلقد سرت جميع الطرقات والنواحي (هنا وهناك بحثاً عنه) ولم أتمكن من العثور عليه؛ ناديته بأعلى صوتي، ولكنه لم يجب ندائي ـ فأمسيت خلال هذه الليلة مستلقياً على الأرض أنظر إلى النجوم. فزوجتي وأطفالي هم الآن تحت يديك، أيها الأب والخاقان؛ فإن أنت أرسلت إليّ رجلاً ثقة (ليحضر لي أماناً منك وضماناً على حياتي) فإنني سوف آتيك في الحال». اعتقد وانـگ ـ خان الصدق فيما قالا له ذلك الرسولان وفي رسـالتهما إليـه فأرسـل رجلاً من ثقـاته ليصحب الرسولين المرسلين من قبل كسار. أما بالنسبة لجنكيز ـ خان، فإنه تجهز في الوقت (٥٥) ذاته وتقدم بجميع رجال جيشه، فقد أخبره هؤلاء الرسل بأن الاحتفال كان قد بدأ على قدم وساق في مراكز مخيمات حاكم الكيرايت كما أنه لم تؤخذ أية احتياطات وقائية (ضد أي هجوم مبـاغت في مجتمع يقـوم أصحابـه على الغزو المفـاجىء ضد بعضهم البعض الآخـر، كمجتمع أولئـك القوم حينئذٍ). واصل جنيكز مسيرته بقواته متجهاً، يغـذون في السير والاسراع باتجاه منازل قبائل الكيـرايت، وهناك أحـاط بمعسكر وانـگ ـ خان وشرع يهاجمه. على الرغم من أنهم أخذوا على حين غرة من أمرهم، فقد أظهر الكيرايت مقاومة عنيفة، ولكنهم في نهاية الأمر غلبوا على أمرهم وسحقوا على أيدي (جنكيز وقومه) سحقاً محققهم، فلم تقم لهم بعدها قائمة. هرب وانـگ ـ خان وابنه سن ـ كـونك، فقتـل الأول حال وصـوله بـالقـرب من الحـدود النيمانية، أما ابنه فقد هرب إلى داخل أقطار بعيدة، حيث هلك

هناك[1].

هكذا نجح جنكيز ـ خان في سحق قوة أكبر وأقوى حاكم في منغوليا بضربة واحدة مفاجئة، وأن ينصب نفسه (حاكماً) في مكانه بدلاً عنه. قسم جنكيز ـ خان عامة شعب قبائل الكيرايت فيما بين أتباعه ومريديه؛ أما طبقة الأشراف (من قوم كيرايت) فقد أخضعوا كأتباع تحت سلطة وولاية المغول المباشرة، والبعض الآخر منهم أصبحوا موالي لحلفاء جنكيز ـ خان. رويت الحادثة التالية، التي تجسد خلق وموقف جنكيز ـ خان تجاه الأفراد المغلوبين على أمرهم، كما أنها تصور بشكل حي، الطباع والخلق البدوية: «قال رجل محارب من الكيرايت، والذي يسمي كدك ـ بهادر حيث كان قد قاتل (مع قومه الكيرايت) في تلك المعركة، مخاطباً جنكيز ـ خان: «لقد كانت لحظة حاسمة يصعب علي تحملها وذلك بأن أسمح لك أن تأخذ مليكي الشرعي وتقتله، لذلك فقد حاربتك ثلاثة أيام متتابعة، لكي أمنح وانگ ـ خان وقتاً كافياً ليهرب بعيداً كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. والآن، فإن أنت حكمت علي بالموت، فسوف أقضي نحبي؛ أما إذا منحتني (٥٦) حياتي، فإنني سوف أتفانى في خدمتك بكل همة ونشاط. وهنا خاطبه جنكيز قائلاً: «إن الرجل الذي يأبى كل الأباء على ألا يترك خدمة سيده، وذلك لكي يفسح أمام الأخير (يعني أمام مليكه) مزيداً من الوقت ليتمكن من الهروب، ووقف في وجهي يحاربني بمفرده لمدة ثلاثة

---

(١) كانت المعركة التي أهلك جنكيز ـ خان خصومه فيها هي معركة ووركو. لمعلومات إضافية في هذا الشأن، انظر، ما قلناه في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص. ص: ٦٩ ـ ٧١، حول هذه المعركة وكل ما يتعلق بمصير كل من وانگ ـ خان، وابنه يلاق سنجوم، أو سن ـ كونك (المترجم إلى العربية).

أيام متتالية، لهو رجل نبيل شجـاع. فلتكن أنت رفيقي». كان جنكيز ـ خان دائماً وأبداً، وفي أية بقعة من الأرض، وحتى وإن كان بين أعدائه، يتمسك بالمبادىء الأرستقراطية ويدعمها، فكان يمارس سلطة السيد الاقطاعي على الرجل المُقْطَع، ويزاول هيمنة الحاكم على عبده. كان على الدوام يشجع روح الولاء والطاعة والاخلاص لدى الخدم (والأتباع)، ويعاقب بالموت أولئك الذين يخونون سيدهم، حتى وإن كان الأخير (سيدهم) من بين ألد أعداء جنكيز. فهناك حالة متميزة (في خلق جنكيز ـ خان من هذا النوع) وهي تصرفاته التي انتهجها في معاملته تجاه أتباع شيخ عشيرة تاي تشيوت، تاركوتـاي ـ كيريلتوك (وهو عدو لدود قديم لجنكيز) فقد قاموا بالقبض على سيدهم وعقدوا العزم على التآمر عليه وتسليمه إلى جنكيز ـ خان. إلا أنهم في آخر لحظة تذكر أولئك الخونة ما يعامل به جنكيز ـ خان هذه النوعية من الناس، فأطلقـوا سراح سيدهم، وقرروا على الذهاب إلى جنكيز ـ خان، وهناك قصوا له قصتهم بحذافيرها. فقال لهم جنكيز: «إنكم لو أسلمتموه فعلاً في يدي، فإنني بكل تأكيد، سوف أحكم عليكم بالموت». بالإضافة إلى هذه الحادثة، فهناك أمثلة عـديدة، لحـالات مشابهـة لهذه القصة، تحكي وجهة نظر جنكيز ـ خان، والكيفية التي يتعامل بها مع القوم الذين ينتمون إلى هذه الفصيلة، يمكن ايرادها هنا. بعد الآن فإنه أصبح حتمياً على رجال الطبقة الأرستقراطية أن يكونوا فخورين إلى أقصى حد بخانهم الجديد. فكان بكل حق وحقيقة واحداً منهم، والمتكلم الحقيقي عما يدور في خلجات قلوبهم وأفكارهم، والناطق الصادق والمعبر الحق عن آمالهم.

ـ ٦ ـ

«الحـــرب مع النيمانيين»

«نهاية جاموقـــه»

(٥٧) كان جنكيز ـ خان قد بدأ اتصالاته، واحتك مع قبيلة النيمانيين القوية، والذين تقـع أراضيهم إلى الجهة الغـربية من ممتلكات قبائل وعشائر الكيرايت، منذ زمن بعيدٍ، منذ أن كان ما يزال تحت حماية وانـگ ـ خان. كان القوم النيمانيون أكثر حضارة وتقدماً بين كافة الشعوب المغولية، وذلك لأنهم كانوا قد تأثروا جـداً بالحضـارة الأويغوريـة[١]. من المحتمـل جـداً أنهم (أي النيمانيون) كانوا أول من تبنى الأحرف الهجائية الأويغورية ونقلوها إلى اللهجة المغولية، وكتبوا بهـا لغتهم المغوليـة. وإلى جانب الأويغوريين كان (النيمانيون) على صلات وعلاقات تربطهم بأقاليم

---

(١) كان الأويغوريون، والذين يرجعون في أصلهم إلى العرق التركي، يقطنون في الجزء الشمالي الشرقي من أقليم التركستان الصيني (وهي المقـاطعات همي ـ Hami، وأورومتسي ـ Urumtci، وتوريان ـ Turian، وكوتشنـگ ـ Kucheng، (المترجم إلى الانجليزية). لمعلومات وافية عن الأويغوريين ومصادرهم، انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص .ص : ٧٩ ـ ٨٥ (المترجم إلى العربية).

التركستان، وجتيسو[1]. كما كانت بلادهم (بلاد النيمان) يزورها مسلمون يمتهنون حرفة التجارة؛ فقد لعبوا دوراً بارزاً في التأثير الثقافي الذي كانوا يمارسونه عليهم من خلال تعاملهم معهم، وخاصة على أفراد الطبقات العليا في داخل المجتمع النيماني، وعن طريق أفراد تلك الطبقات انتشر ذلك التأثير الثقافي إلى كافة الشعب. كان الكثير من قوم النيمانيين يعتنقون الديانة المسيحية ومن ذوي المعتقد النسطوري.

(٥٨) لم يخفق النيمانيون في أن يبدو قلقين للأوضاع الجديدة الراهنة، والتي أصبحت ماثلة أمام أعينهم من جراء ظهور جنكيز ـ خان، وخاصة بعد أن طوح بقوة قبائل الكيرايت، فأصبح بذلك أقوى حاكم في أواسط وشرقي أراضي منغوليا. بناءً على ما خلقه ذلك الخان المغولي من اختلال في موازين القوى في المنطقة فقد حاول تايان ـ خان الحاكم النيماني[2] أن يكوّن حلفاً مع قبيلة أنگوت، التي كانت تعيش في المناطق القريبة من سور الصين العظيم، وذلك محاولة منه أن يهاجموا معاً جنكيز ـ خان من كلا الجانبين. (لم ير الانگوتيون ما رآه النيمانيون وخانهم)؛ لذلك، فقد رفضوا مقترحاته (بل لم يقفوا عند هذا الحد فقط) بل وذهبوا إلى جنكيز ـ خان، وأخبروه بما خطط القوم

---

(١) كانت أراضي هذا القطر، والتي تسمى الأراضي ذات الأنهار السبعة ـ سمير يتشي ـ يحكمها آنذاك القرا خطائيون، وعاصمتهم بلاساغون (المترجم إلى العربية).

(٢) لمعلومات إضافية عن هذا الخان، وقومه، أنظر كتابنا الآنف الذكر، ص .ص : ٧٢ ـ ٧٦ (المترجم إلى العربية).

النيمانيون ضده، بعدها مباشرة شرع في الحال يخطط هو الآخر للقيام بحرب جديدة. كما بدأ أيضاً بتنظيم جيشه، الذي أصبح الآن يمثل قوة كبيرة جداً (إذا ما قورنت بالقوى المجاورة لها آنذاك). إذ قسم جيشه، طبقاً لما يقضي به العرف القديم، إلى آلاف، وإلى مئات، وإلى عشرات. ثم عين أناساً، من القادة العسكريين، ذوي الخبرة والمراس، وهم أفراد معروفون شخصياً إلى الخان، ليكونوا قواداً لتلك (الكتائب المكونة من) الآلاف، والمئات. أستحدثت وظيفة جديدة هي وظيفة تشربي ـ Cherbi، وصاحبها أضحى المسؤول عن المهام التموينية من مؤن وتجهيزات (وما يحتاجه القوم من مأكل ومشرب). وبالإضافة إلى ذلك فقد أوجد كتيبة حراسة عسكرية (كشيك ـ Keshik) لكي تكوّن حرس الخان الشخصي، كما أصبحت تمثل النخبة العسكرية الممتازة (بين صفوف بقية كتائب جيش المغول) إذ أن تنظيم هذه النخبة كان قد بني على أساس أرستقراطي صارم (من حيث النوعية والتأهيل والكمية) فقد أقتصر في فتح باب القبول للانخراط في سلك الخدمة في هذه الكتيبة العسكرية الخاصة «على فئة من الشباب الرشيقي الحركة ذوي القوام المتناسق، على أن يكون أولئك الشبان من عوائل القادة الكبار (نو يانات) ومن الرماة الكفاة، ومن قادة المائة، بالإضافة إلى رجال من المواطنين (المغول الأصليين من قبيلة جنكيز ـ خان نفسها) الأصليين (تركت ـ Tarkat)».

كما ضمت كتيبة الحراسة المختارة العسكرية تلك، بين أعضائها ألف رجل أختيروا (من بين مختلف الكتائب المغولية

الأخرى) من الرجال «الأبطال الشجعان» من فئة البهادريين. أما مكانة هذه الكتيبة العسكرية في أية معركة، فقد خصص بأن يكون (٥٩) على الدوام في الجبهة الأمامية، أما في أوقات السلم فتصبح مهمة أفراد هذه الكتيبة هي الاشراف على عملية الحراسة (خاصة حراسة منزل الخان وأتباعه القريبي الصلة به). كان جنكيز يعرف تمام المعرفة كيف كان من السهولة بمكان (في مجتمعه الذي كان قد عاش فيه) بحيث يصبح البدو في السهوب ضحايا (بريئة) لعدوان غير متوقع (يأتيهم مباغتة من حيث لا يعلمون) إذ أن هجوماً من هذا النوع قد يأتي ضده في ساعة من نهار، وربما تأتي ضربة واحدة (في هجوم مفاجىء) فتقضي قضاء مبرماً على أكبر وأضخم مشروع (شرع في تنفيذه). لذلك، فمعرفة (جنكيز ـ خان بامكانية وقوع هجمة عليه من هذا النوع، وهو على حين غرة من أمره) جعلته يبذل عناية خاصة لتنظيم الحماية ذات القدرة الفعالة تقوم على حراسة مراكز سكنى الخان (الأردو).

كانت مسألة انشاء ذلك الحرس الأرستقراطي الخاص، وتعيين الرماة الأكفاء وقادة المئات، قد وضعت القواعد الأساسية للتنظيم العسكري في (مجتمع) أرستقراطي السهوب، لم تعد طبقة الاشراف (منذ الآن) مجرد رؤساء عديمي الانضباط يتزعمون قوماً محاربين فوضويين. إذ أنهم أضحوا خاضعين لذلك النظام الصارم الذي وضع موضع التنفيذ، كما طُبِّق أيضاً على فئة الحرس وكذلك على (كافة كتائب الجيش المختلفة) الآلاف الواقفين على خط جبهة القتال، كما أجبر كل من يسكن داخل المخيم (الأردو)

على أن يخضع لنفس ذلك النظام الصارم.

بدأ جنكيز ـ خان الحملة العسكرية ضد النيمانيين في أوائل (فصل) الربيع (من سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م). حيث أن حركته تلك في فصل الربيع فتحت أمامه الفرصة لكي يأخذ زمام المبادرة هو، وإن كانت تشتمل في طياتها على بعض المخاطر، لأن جياد البدو، التي تعتمد في غذائها على الرعي على مدار السنة، تكون بطبيعة الحال هزيلة في فصل الربيع على وجه الخصوص؛ قدم جنكيز خان أضحية إلى رايته قبيل الشروع في المسيرة للقيام بتلك الحملة، لأن الروح الحارسة (الإله الحارس حسب زعمهم) للجيش، سولده، تسكن في العلم. سار النيمانيون، تحت قيادة تايان ـ خان وابنه كوتشلوك (٦٠) لمقابلة المغول، إلا أنهم منيوا بهزيمة ساحقة (على أيدي المغول)، فبينما هرب كوتشلوك، وهو رجل صاحب نشاط جبار، إلى جبال الطائي، فإن تايان ـ خان (والد كوتشلوك) فقد حياته (في ميدان المعركة)[1].

فيما يلي كيف يصف (صاحب) التاريخ السري للمغول جنكيز ـ خان نفسه وأنصاره البارزين، وكيفية تقدم جيشه وسير المعركة ضد النيمانيين، حيث دونت (تلك المعلومات) بأسلوب طويل في شكل ملحمة: «في ذلك الوقت كان جاموقه أيضاً مع النيمان. سأل تايان (أي سأل تايان جاموقه): «من يكون هؤلاء، الذين يطاردون رجالنا، على شاكلة ذئاب وهي تتعقب قطيعاً من

(١) لمعلومات إضافية تفصيلية عن هذه المعركة، معركة مونت ـ ناقو، انظرها في كتابنا المذكور أعلاه ص. ص: ٧٤ ـ ٧٥ (المترجم إلى العربية).

الغنم إلى نفس حظائرها؟ » أجاب جاموقه (قائلاً): «إنهم كلاب صيد[1] تموچيـن الأربعة، يغذون على لحـوم البشر، إنـه (أي جنكيز ـ خان) يحبسهم موثقين بسلسلة من حديـد[2]، فجماجم (رؤوسهم) من الصفر، وأسنانهم صقلت من الصخر، وألسنتهم تشبه الخناجر (التي تخرز) وقلوبهم (تشبه في قسوتها قطع من) الفولاذ. وهم يحملون معهم سيوفـاً مقوسـة عوضـاً عن سياط الخيول. إنهم يشربون (قطرات) الندى، ويركبون على متن مهب الريح، وهم في معمعة القتال يلتهمون لحوم البشر. انهم قد حلّوا الآن وأطلقوا من وثاقهم، وقد سال لعابهم[3]، والبهجة والفرحة تغمرهم. إن كلاب الصيد هذه (بطبيعة الحال يعني الرجال الأربعة المغاوير) هم جبه، وكوبيلاي، وجلمه، وسوبداي.. ومرة أخرى سأل تايان جاموقه (قائلاً) من يا ترى يكون ذلك (الرجل الذي يجري) خلفهم، منطلقاً إلى الأمام متلهف، وكأنه باز جائع (منقضاً على صيدته)؟ «فأجابه جاموقه (بالقول): «إن ذلك (الرجل) هو أخي بالتبني تموچين (اندا ـ Anda) مكسوا بالأسلحة الحديدية من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وها هو قد انقض إلى هنا بسرعة وكأنه نسر جائع (٦١) فهل تراه؟ فأنت اعتدت أن تقول، بأنه

---

(١) وصف لنا الرجال بكلاب الصيد التي لا تعرف الرحمة تجاه صيدتها التي تنوي الايقاع بها. (المترجم إلى العربية).

(٢) ربما كانت هذه اشارة إلي النظام العسكري الصارم الذي أصدره جنكيز ـ خان لضبط وتنظيم رجال عسكره (المترجم إلى العربية).

(٣) هذا وصف مستعار، وكأنهم فعلاً كـلاب صيد تـطارد فرائسهـا. (المترجم إلى العربية).

حالما يأتي المغول فإن مصيره سيؤول إلى الدمار، كالحمل، فلن يبقى عليه لا جلده ولا حتى أظلافه. ولكن (الآن) انظر إليه (فقد أصبح هو صاحب الجولة، بعكس ما كنت تتوقع)»[1].

هزم النيمانيون (على أيدي جنكيز ـ خان وقومه المغول) هزيمة ساحقة كان من نتائجها أن ذاق شعبها في مجموعه مذلة الأسر والهوان، سار جنكيز (بعد ذلك) يقود جيشه (في هجوم كاسح) ضد أعدائه القديمين، قوم المركيت ساكنوا الغابات، الذين كان رئيسهم تكتار. (استطاع المغول أن) يسحقوا هؤلاء القوم أيضاً، ولكن بالنسبة لقائدهم، فإنه نجح في الهرب (من مقصلة المغول) مصحوباً بأبنائه وبعدد قليل من أتباعه. وهناك أخذ جنكيز في ذلك الوقت من بين النساء المركيتيات زوجته الرابعة كولان ـ Kulan صاحبة الجمال الذائع الصيت، الذي اشتهر في الشعر المغولي.

واصل جنكيز أيضاً حملاته العسكرية إلى مسافة أبعد، وراء جبال الطائي خلال السنة التي تلت (أي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م) يحدوه الأمل بأن يتم له القضاء النهائي على أعدائه (الذين ما زالوا يهربون من أمامه من مكان إلى آخر، وعلى رأسهم) كوتشلوك النيماني وتكتار المركيتي. في المعركة التي نشبت بينهم هزموا (أي كوتشلوك وتكتار) هزيمة منكرة. فقد قتل في هذه المعركة تكتار، بينما لاذ كوتشلوك بالهرب إلى داخل

---

(١) لمعلومات أوسع حول النص الذي ورد هنا، انظر كتاب: (التاريخ السري للمغول) الترجمة الانجليزية، ص .ص : ٢٧٨ ـ ٢٧٩، (المترجم إلى العربية).

جتيسو ـ Jetysu، (فاراً غرباً في طريقه) إلى القرا خطائيين الذين كانوا في ذلك الوقت هم حكام ذلك القطر؛ أما (القائد الكبير) سوبداي، وهو واحد من أحسن قادته (من قادة جنكيز) العسكريين فقد أرسل ليلحق بالأحياء من أبناء تكتار الذين كانوا أيضاً قد هربوا مع البقية (القليلة) الباقية من المركيت[1].

جعلت هذه الانتصارات (المتتالية، أولاً ضد وانـگ ـ خان وقبائله وعشائره من الكيرايت، ومن ثم ضد النيمانيين، وبعد ذلك ضد المركيت وبقايا النيمانيين بقيادة كوتشلوك) جعلت من جنكيز حاكماً لكافة (أراضي) منغوليا الشمالية لا ينازعه أي منازع. فقد جاءت قبائل المغول جميعها و(انضوت تحت سلطته) وأصبح (أفرادها) رعيته. ولم يبق هناك سوى جاموقه (٦٢) ـ ستشن فقط، ولكن ظل مصيره المشئوم يقترب (شيئاً فشيئاً نحو النهاية). بعد أن أصبح منبوذاً من قبل الجميع (الغالبية الساحقة) والذي أضحى ذلك القائد الديمقراطي على رأس عصابة يكون أعضاؤها مجموعة من اللصوص؛ فقد قبض عليه في نهاية المطاف رجاله (واحكموا القيد في يديه ورجليه) وأخذوه إلى جنكيز ـ خان (فسلموه إلى عدوه اللدود هذا). مرة أخرى (نجد أن) جنكيز لم يخفق في دعم (ذلك) المعتقد الأرستقراطي الأساسي الذي وجه (سلوك الخان المغولي) وحياته، إذ اغتنم تلك المناسبة (للتعبير

---

(١) تكلمنا سابقاً بالتفصيل عن حروب جنكيز ـ خان مع قبائل المركيت حتى قضى عليهم نهائياً، انظر كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي» مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١ هـ ص .ص : ٢٢١ ـ ٢٣٤، (المترجم إلى العربية).

عن نظرته تلك). فقال: «هل من الممكن أن يترك قوم غدروا بسيدهم على قيد الحياة؟ فليقدموا إلى الموت، وليقتلوا وأبناؤهم وأبناء أبنائهم (جميعهم). تذكر (جنكيز ـ خان ماضي) جاموقه معه، وأنهما كانا (في يوم من الأيام) أخوين بالتبني ـ أندا Anda ـ فقد سمح جنكيز لسجينه أن يموت بدون أن يهرق دمه (على الأرض)[1]. إذ أن هذه مرحمة (من قبل جنكيز ـ خان تجاه ذلك الصديق والأخ (القديم)، والسبب في ذلك أن روح المرء تكمن في دمه طبقاً لماً تتصوره الديانة الشامانية التي يعتنقها المغول.

(١) من عادة المغول ألا يهرقوا دماء الأمراء والملوك والسلاطين على الأرض. وذلك لاعتقادات دينية. (المترجم إلى العربية).

ـ ٧ ـ

«جنكيز ـ خان امبراطور المغول كافة»

(٦٣) «وهكذا وعندما أصبح كافة الأجيال (الشعب المغولي في مجموعه) الذين يعيشون في الخيام (المصنوعة) من اللبود متحدين تحت سلطة واحدة، فإنه في سنة النمر (١٢٠٦الموافق لعام ٦٠٢ ـ ٦٠٣ هـ) اجتمع القوم بالقرب من منابع (نهر) أونون، وهم ينصبون الراية البيضاء على تسع قوائم، فأسبغوا لقب خاقان ـ Kagan على جنكيز[١]. أخذ جنكيز ـ خان في ذلك الوقت في يديه إدارة حكومة الشعب المغولي، وقال (مخاطباً المجتمعين) : «لا يسعني إلا أن أعبر بكلمات الشكر والامتنان لتلك النعمة الإلهية، ولسوف أمنح (قيادة الكتائب العسكرية ذات) الآلاف إلى أولئك الذين عملوا معي (منذ البداية) في تكوين (المملكة) الخانية، وإنني لمعينهم قادة حتى يترأسوا إدارة قيادة (تلك الكتائب العسكرية ذات الألوف)». ذلك هو التقرير الذي ورد من قبل (صاحب) التاريخ السري للمغول الذي اعتبر (هذه المناسبة) واحدة من أعظم اللحظات الهامة في حياة

---

(١) في هذا الاجتماع العام كانت المناسبة التي أعطى فيها تموچين ـ خان لقب جنكيز ـ خان، ولم يلقب بلقب خاقان أو قا آن، كما يدعى المؤلف انظر «التاريخ السري للمغول» الترجمة الانجليزية، ص .ص : ٢٨٥ ـ ٢٨٧ (المترجم إلى العربية).

تموچين ـ جنكيز ـ خان، في (اللحظات التي تم فيها) تتويج تموچين جنكيز ـ خان، والذي يعني امبراطور الأمة المغولية (أمة المغول المتحدة) وفي هذا «الاجتماع الكبير» أو كور لتاي، والذي دعى إليه جنكيز ـ خان وعقد في سنة ١٢٠٦ (م / ٦٠٢ ـ ٦٠٣ هـ) على (ضفاف نهر) أونون والذي جاء إليه جميع (٦٤) أقاربه ورفاقه، وكل القادة والأبطال وكافة طبقة النبلاء المغول، جاءوا جميعهم، كل ذلك ليؤكد لهم فقط ما كان قد سبق أن عملته مجموعة صغيرة من الطبقة الأرستقراطية في خلال السنوات القليلة السابقة. وأخيراً أصبح ذلك الحلم الذي كان يعيش في قلبه ويتردد دائمًا في مخيلته منذ زمن طويل حقيقة واقعة. إذ أنه أصبح قائداً لعشيرته، وعشيرته أضحت رئيسة على مختلف «الأقوام الذين يعيشون في خيام اللبود». (وهكذا نجد أن) قبيلة برجكين قد أحيت مرة أخرى مجد وعظمة اسم المغول، وكذلك (مجد وعظمة جميع الشعوب التي تنتمي إلى سلالتهم) فإن كافة (الأقوام الذين يعيشون في خيام اللبود) سوف يعرفون من تلك اللحظة فصاعداً بالمغول. وهكذا أصبح جميع القادة والأبطال والنبلاء والأمراء، (أو بمعنى آخر) جميع أفراد الطبقة الأرستقراطية ـ أي كافة مجتمع طبقة الملاك في كافة صفوف العشائر المختلفة ـ من الآن أتباعاً (ومواطنين يخضعون في ولائهم) لقبيلة المغول، طالما قبلوا (أن يتسموا باسمها). إذ أن هذه هي المرة الأولى تصبح فيها أمة متحدة لها اسم عام واحد، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا الاسم (المغول) متألقاً جداً لدرجة جعلت كل بدوي يفتخر كثيراً لأن ينسب نفسه كرجل مغولي.

تقدم جنكيز ـ خان بفكرة دينية محددة المعالم، عن سلطاته

(وسيادته المهيمنة) وعن عشيرته نفسها، وأدخلها في المفهوم السياسي (لدى المجتمع الجديد الذي تكون واتحد تحت سيادته الشخصية). فقد لعب ذلك الساحر والشامان كوكتشو، ابن مونليك، دوراً بارزاً أثناء الاجتماع العام الكورلتاي الذي عقد في سنة ١٢٠٦ (م / ٦٠٢ - ٦٠٣ هـ)؛ فقد كانت نظرة المغول تجاه هذا الرجل الشامان الساحر نظرة هيبة يشوبها الاحترام والتبجيل المشبعين بالأوهام والخرافات. ففي ذلك الاجتماع أعلن كوكتشو بأن السماء الزرقاء السرمدية الوجود قد أيدت جنكيز - خان، الذي كان (٦٥) قد قدرت له بأن يكون مندوبها الخاص (جاي گتاو - Jaygatu) إلى الأرض، وإلى كافة أفراد عشيرته. وفي الحال قبل جنكيز نفسه باستعداد تام وجهة النظر تلك. حيث قال: «إن السماء قد أمرتني بأن أحكم عامة الشعب». «حيث استطعت أن أهزم (قبائل) الكيرايت بمساعدة وبحماية السماء الخالدة وأن أصل إلى المنزلة الأسمى». فقد أصبحت الآن روح عشيرة جنكيز الحارسة (سولده Sulde) تسكن في تلك الراية البيضاء المنصوبة عالياً على تسع قوائم (أي في علم جنكيز - خان وعشيرته). فالإله الحارس سوف يحمي كتائبه العسكرية، وسيقود رجالها إلى النصر، ولسوف يخضع كافة الشعوب، لأن السماء الزرقاء السرمدية الوجود قد قضت وقدرت بذلك الأمر. فجنكيز أصبح خاناً بقوة (وقدرة) السماء الأبدية (مونكك تنگري - ينكوتشون - دور). منذ هذا اليوم (أي أيام انعقاد ذلك الاجتماع الكبير على ضفاف نهر أونون) أصبح المغول يصونون ويوقرون راية الروح الحارسة (سولده - Sulde) البيضاء، إذ أنهم يظنون، حسب ما يعتقدون، بأنها هي التي قادت جحافل جنكيز -

خان الجرارة من نصر إلى نصر. فهم (أي المغول) يعتقدون بأن روح الامبراطور العظيم (يعني روح جنكيز ـ خان) نفسها دخلت واستقرت في راية الروح الحارسة (سولده)، وبناءً على ذلك، فقد أصبح هو بنفسه روحاً حارسة لعشيرته المجيدة، والتي ما تزال، حتى يومنا هذا، تحكم المغول[1].

قام جنكيز ـ خان بايجاد قانون لامبراطوريته، ومن ثم تأسيسه على أسس أرستقراطية صارمة، مراعياً في ذلك كافة وجهات نظره الاجتماعية والدينية. فلقد كان مفهومه لذلك هو التصور المتناسب مع أفكار طبقة السهوب الأرستقَراطية (٦٦)، (والتي تتمثل بشكل أوضح ما تكون عليه في) القانون المتعارف عليه على وجه الخصوص بين أفراد عشيرته الخاصة، (مع فارق بسيط واحد وهو) انه توسع فقط في ذلك المفهوم توسعاً هائلاً وعلى نطاق كبير (بحيث يشمل كافة العشائر والقبائل المختلفة التي انضوت تحت سيادة عشيرة برجكين برئاسته هو). إذ أن هذا النظام الذي انتهجه جنكيز ـ خان يسير بنفس المنوال (وبشكل متدرج السلطة، فرجل ينتمي إلى) أسرة أو عائلة أرستقراطية يكون شيخاً للقبيلة، أي «العشيرة الذهبية» (التان أو روك) ومعها كافة مقطعيها وأتباعها (وسيد هذه القبيلة أو العشيرة يقف مقام) الزعامة لكافة القبائل المغوليةِ ورئيساً «للأجيال الساكنة في خيام اللبود» ملكاً على كل الشعوب، وعلى جميع أقطار

---

(١) كتب هذا المؤلَّف قبل إقامة الجمهورية المغولية في عام ١٩٢٤ (م / الموافق ١٣٤٢ ـ ١٣٤٣ هـ) إلا أن هذه الجملة في حد ذاتها قد لا تكون صحيحة ولا تنطبق إلا على منغوليا الداخلية، أو منغوليا الصينية فقط (المترجم من الروسية إلى الانجليزية).

الأرض. فيقف الامبراطور في قمة (الهرم القبلي) على رئاسة العشيرة الحاكمة، والذي هو نفسه يكون رئيساً لعشيرته، ولكافة أفراد الطبقة الأرستقراطية، الذين انضموا تحت سلطانه، (وله سلطة) أكثر، إلى حد كبير، من المكانة التي يكون فيها رئيس القوم، أو سيد الأمة. إذ أن جنكيز ـ خان لم يكن على الاطلاق يعتقد في نفسه كقائد أمة شعبي. فقد كان وظل الرئيس على العشيرة الأرستقراطية، التي قامت بتوحيد كافة الطبقات الأرستقراطية المغولية. فرسائله، وخطبه، وقراراته، وشرائعه لم تكن، بأي حال من الأحوال، موجهة إلى الشعب، ولكنه يوجهها دائمًا وأبداً إلى الأمراء، والقادة والأبطال.

في نفس تلك السنة ١٢٠٦ (م / ٦٠٢ ـ ٦٠٣ هـ) أكمل جنكيز ـ خان مسألة تنظيم الحرس الخاص به، والذي كان، بطبيعة الحال يعتمد في نظامه الصارم اعتماداً رئيسياً على قواعد أرستقراطية محكمة. كانت الغاية التي يسعى جنكيز ـ خان إليها، من وجهة نظره، بأن يكون لديه ليس فقط كتيبة منتقاة من الرجال العسكريين تمثل حرسه الشخصي الذي يمكن أن يعول عليه (لحراسة) مقر مراكز سكناه ومعسكراته المتنقلة، بل ايجاد منظمة، تكون تحت ارشاده وقيادته ومراقبته الشخصية الدائمة، لتصبح مكاناً (لمدرسة) حضانة (لتخريج) ضباط يكونون موضع ثقته. (٦٧) كان شخصياً يعرف كل رجل (حق المعرفة)، وبناءً على ذلك أصبح يوكل إلى ذلك الرجل مهاماً طبقاً لما يتفق مع استعداده وذكائه ومقدرته الفردية.

اشترط أن يكون جميع رجال الحرس (كِشِيكتِكْ) من سلالة

تنتسب إلى محتد شريف. «والآن فقد أمرتني السماء بأن أحكم كافة الأمم، فليتجند رجال بأعداد كبيرة لا تحصى، بالمئات، وبالآلاف، وبالعشرة آلاف، ورماة للسهام وآخرون، ليكونوا حرسي الشخصي الخاص (كتشيك). وهؤلاء الرجال، الذين سيرتبطون بي شخصياً، يجب أن يتم اختيارهم من بين أبناء الأشراف أو من المواطنين الأصليين (تركت ـ Tarkat) (أي من عشيرة جنكيز ـ خان نفسها ـ برجكين)[1]. ولا بد أن يكونـوا رشيقي القوام، وذوي أجسام قوية، وأصحاب قوة شديدة التحمل، . . . فكل فرد من الجنود تشيليارك، سواء أكان من أعضاء العشرات أو المئات، يقف معارضاً لهذه الأوامر، سيعتبر إنساناً مذنباً، وسيعاقب (على ذلك). أعطى الرجل الحرسي امتيازات خاصة ومنزلة تشريفية (تميزه عن غيره من أفراد الكتائب العسكرية المغولية الأخرى). أعلن جنكيز أن: «الرجل الحرسي من بين أعضاء حرسي الشخصي (كشيك) هو أرفع مقاماً ومنزلة من الرجل الخارجي (أي الفرد المنخرط في سلك أية كتيبة عسكرية أخرى (أي: من بين القوات المقـاتلة الأخرى)، كما أن أسرته هي الأخرى أعلى مكانة من المركز الذي تحتله أسرة أي جندي خارجي ممن ينتمي في خدمته إلى المئات أو العشرات. وإذا نظر جندي خارجي (عن حرس الخان الخاص) إلى نفسه على أنه مساوٍ (من حيث الرتبة العسكرية أو المكانة) للحرسي كشيكتو من حراسي الخاصين، أو حاول أن يدخل معه في خلاف أو عراك، فإنه سوف يعاقب». فقد أصبح كافة أعضاء

---

(١) انظر ص : ١١٠ ، أسفل فيما يتعلق بـ: التركت (المؤلف).

جنود الحرس تحت صلاحيات ومعرفة الامبراطور (الشخصية) حيث هو نفسه الذي يحكم في شكاياتهم. «لا يحق لقادة الحرس الشخصي الخاص أن يعاقبوا، دون أن يأخذوا موافقتي الخاصة في هذا الشأن، (٦٨) أياً من مرؤوسيهم حسب تقديرهم الشخصي الخاص. وإذا ما قام رجل من الحرس الخاص، بارتكاب عمل شرير فيجب أن يرسل إليّ تقرير، وأن أبلغ عن ذلك في الحال، وحينئذٍ ننظر في الأمر، فمن وجدناه يستحق أن يقطع رأسه، فسوف تضرب عنقه، ومن نجده يستحَق أن يعاقب بالجلد فإنه سوف يجلد».

قال جنكيز ـ خان، مخاطباً رجال حرسه الخاصين الأوائل: «إنكم جنود الحرس في خفارة الليل (كبتوت ـ Kebteut) للعمل على أمن وسلامة بدني وطمأنينة روحي، أيها الفرسان لتمتطوا صهوات جيادكم ولتبقوا جميعاً حول خيمتي وألا تبارحوها (في جميع الحالات) في الليالي الممطرة، وفي الليالي الثلجية، كما تحمونها أيضاً ابان الهجمات المباغتة في الليالي ذات السماء الصافية، وذات المعارك الضارية مع الأعداء... إذ أنني ما أحرزت هذه المكانة السامقة إلا بسببكم... وسينظر كافة أفراد سلالتي (من بعدي) إلى رجال حرسي الخاص هؤلاء على أنهم أثر باق لشخصي، وليعتنوا بهم عناية فائقة، وسوف لن يثيروا استياءهم، فلينظروا إليهم على أنهم جن طيبون».

أثبتت الكيفية التي كان جنكيز ـ خان يختار بها رجاله العسكريين والطريقة التي كان يعينهم بها في أماكنهم ومهامهم

المختلفة والمتعددة، مهارته التي تفوق الوصف، ومعرفته الفائقة لمعدن الرجال، (وحسن انتقائهم). انه هناك (وفي أشياء أخرى من هذا القبيل) تتجلى عبقريته في أوضح مظاهرها. كانت متطلباته (التي فرضها) على أتباعه (في منتهى) القسوة؛ ومع ذلك، فقد كان دائماً متيقظاً (وسريعاً) لمعرفة احتياجات أولئك الذين يعرفهم معرفة شخصية (على أنهم جديرون باهتمامه). لقد كانت رغبة منه عندما جعل مصيرهم، في كل الأوقات (وفي جميع الحالات ومختلف الظروف) منوطاً فقط بيديه شخصياً، حتى وإن كان أولئك الأفراد مشتركين في حملات عسكرية نائية. فهذه، وفقاً (لما كان يراه) جنكيز ـ خان، كانت نتيجة طبيعية (٦٩) للامتيازات التي (كان يتمتع بها أفراد الطبقة الأرستقراطية. فعلى سبيل المثال، (نجد أن جنكيز ـ خان) يصدر تعليماته (الصارمة) إلى (قائده العظيم) سوبداي ـ بهادر، عندما أرسله على رأس جيش له ليتعقب أبناء تكتا المركيتي، على النحو التالي : «عندما يعصاك أي امرىء، فإن كان ذلك المرء ممن أعرفه أنا شخصياً، فأحضره لأقوم بمحاكمته أنا بنفسي، وإن لم يكن (معروفاً لدي) فنفذ فيه حكم الإعدام فوراً».

أصبح كافة المغول الآن يكونون جيشاً منظماً واحداً. فكانوا جميعهم مقسمين إلى أقسام مئات، وإلى آلاف؛ وهذه بدورها متحدة ومندمجة مع بعضها في شكل مجموعات مكونة (كل مجموعة) الفين، أو ثلاثة آلاف، أو خمسة آلاف، ثم الى وحدات أكبر ـ (في شكل) كتائب عسكرية ـ عشرات آلاف (تومانات ـ Tumen). ولتحقيق هذا الغرض، جعلت العشائر والقبائل المنفردة

في شكل كتل مجمعة، ومقسمة (إن كانت العشائر أو القبائل كثيرة الاعداد) إلى أقسام، (حسب الحاجة)، مكونين بذلك وحدات عسكرية بحيث تستطيع أن تفي بالعدد الأساسي المستلزم من الرجال العسكريين ليكونوا جاهزين عند الحاجة من دون التفريط في الوقت الذي يمنح لأخذ الحيطة أو الاستعداد. وضع جنكيز ـ خان على رأس كل وحدة رجالاً يعرفهم شخصياً تمام المعرفة، وممن هم موضع ثقته، كما جند تحت قيادتهم رجالاً من أقرباء أولئك القادة (الذين يقفون على قمة تلك الوحدة). لذلك نجد أن هذه السياسة حفظت قانون العشيرة من التفكك (أو الانحلال الأسري، فحافظ على الكيان العائلي الذي يربط أفراد العشيرة أو الأسرة بعضها مع بعض)، بينما يعطيها في نفس الوقت هيكلاً عسكرياً منتظماً، حتى وإن كان غير متطور. وضع في أماكن الرجال، الذين أصبحوا رؤساء عشائريين عن طريق الصدفة، قادة عسكريين ممن ينتمي إلى نفس المحتد الأرستقراطي، ولكنهم مقيدون بخدمتهم للخان، وملتزمون بذلك النظام العسكري الصارم. إذ أنه، حسب العرف المغولي السحيق، كان الجيش مقسماً إلى (٧٠) أجزاء ثلاثة: القلب (كول ـ Kol) والذي جعل على قيادته نَيَاَ؛ وجناح المسيرة، أو الجناح الشرقي (جون ـ گار Jun Gar) ووضع تحت قيادة موكلي؛ ثم جناح الميمنة، أو الجناح الغربي (بارون ـ گار Barun - gar) والذي كان يقوده بكورتشي. (وهناك) قال جنكيز ـ خان، موجهاً خطابه إلى بكورتشي، عندما عينه قائداً على جناح الميمنة العسكري، : ـ«لقد أعفيتك من عقوبة تسع جرائم، فلتكن قائدي العسكري على عشرة آلاف رجل،

واحكم كافة القطر الغربي حتى الجبال الذهبية (الطائي ـ Altai) ».
(ثم التفت في نفس المناسبة إلى) موكلي، وقال له: «ولتكن قائدي العسكري على عشرة آلاف جندي، جناح الميسرة العسكري، واحكم جميع أقسام الجانب الشرقي حتى جبال كَرَوْن، وسوف يرث أبناؤكم وأحفادكم منصبكم الرفيع».

كانت رغبة جنكيز ـ خان هي أن يقوم هو شخصياً بانتقاء قادته العسكريين بنفسه، ومِمن تكون طباعهم وميولهم الفردية مألوفة إليه، في كل جزء من أجزاء امبراطوريته؛ كان (جنكيز ـ خان) تواقاً باستمرار على أن يتذكر على الدوام، ويسيطر شخصياً على، أفعالهم. صرح (على ملأ من القوم المجتمعين) بأن القادة العسكريين (النويانات) لعشرات الآلاف، ورؤساء الآلاف، وضباط المئات، الذين يجتمعون في بداية السنة ونهايتها، ليستمعوا إلى ما نأمر به ومن ثم يعودون إلى قياداتهم، لهم أهل لما يقومون به من مهام قيادية (على قومهم ومن تحت أيديهم)، أما بالنسبة لحالة أولئك الذين يتخلفون (ويظلون قابعين) في داخل خيامهم، ولم يستمعوا إلى قول ما ننوي عمله فمثلهم في هذا الشأن كمثل الصخرة التي تسقط في ماء عميق، أو كسهم أطلق (من قوسه) إلى نباتات الأسل النامية... فرجال ينحدرون من مثل هذه الطينة (٧١) لا يصلحون لأن يكونوا قادة عسكريين». وقال مخاطباً (قائده الكبير) سوبداي، وهو يودعه لحظة قيام الأخير على رأس حملة عسكرية: «على الرغم من أنك ستكون بعيداً عني، إلا أن الحالة ستكون عينها وكأنك قريباً مني. [لأنك] وأنت سائر في طريقك، ستحفظك السماء وستساعدك، ما في ذلك ريب أو شك».

وباختصار، فإن طبقة المغول الأرستقراطية تقوم بقيادة الجيش، وتخدم في أعمال الحراسة وتزاول أعمالاً مختلفة في مراكز إقامة ومعسكرات الخان. (حيث تشمل تلك المساكن، أو المنازل، التي هي الخيام بطبيعة الحال) أربع خيام (أو أكثر أو أقل) حسب عدد زوجات الخان الرئيسيات) كما يتواجدون ويزاولون وظائف أخرى تتعلق بالناس، الأقربين إليه من ذويه، ومساكنهم. وإلى جانب أعضاء هذه الطبقة الأرستقراطية المولد (التي يكوّن طبقتها الراقية كبار فئة القادة العسكريين ـ نويانات) تقف طبقة الرجال الأحرار (أي المواطنين المغول غالباً من عشيرة برجكين) تَرْكَتْ، وهم الذين قد أعفوا، لأغراض الغوص، من دفع الضرائب، كما منحوا الحق في «ألا يسلموا ما قد يحوزون عليه من الغنائم التي يأخذون في أثناء المعارك، أو ما يحرزونه من صيد إبان أعمال مطاردة الوحوش في الفلاة، ولكنهم يحتفظون بها لأنفسهم». وقد تدرج البعض من أفراد هذه الطبقة (طبقة الأحرار) وأصبحوا قادة عسكريين. أما أولئك الذين لا يملكون شيئاً بأنفسهم، فقد أعطوا (مكانة) المُقْطَعِين والأتباع، إذا كانت خدماتهم تستحق أن تكون صنوا لمثل هذه المكافأة. قال جنكيز ـ خان، مخاطباً جبه وسوبداي (وهما قائدان عسكريان من أكبر قادة المغول العسكريين) ما يلي: «إن الأقوام الذين جمعتما تحت قيادتكما ستحكمان فيهم بما أتيتما من مهارات عسكرية قيادية». كما أن هناك حالات وردت من هذا القبيل، كالحالات التالية: «أمر جنكيز ـ خان راعي الغنم دگي ـ Degei بأن يقوم بجمع الأقوام، الذين لا يملكون منازل، وأن يكونوا (٧٢) فئة عسكرية

تحت رئاسته. بعد أن تم التوزيع لكافة الشعب، فقد ثبت في النهاية أن الرجال الذين وضعوا تحت إدارة النجار گوتشوگور ـ Guchugur قليلي العدد جداً. ولكي يكمل العدد المطلوب من الرجال لهذه الكتيبة العسكرية فقد أمر جنكيز كل قائد أن يعزل جانباً، من بين رجال عسكره، عدداً من أصحاب كل ألف (على أن ينضموا إلى تلك الكتلة التي جاء عددها قليلاً) وعين عليهم گوتشوگور، ومعه أيضاً مولكالكو، الذي ينتمي إلى عشيرة جادرات[1].

بالإضافة إلى أن جنكيز ـ خان قام بانجاز هذا الاصلاح العسكري (لكافة رجال المغول) فقد قام أيضاً بتنظيم أفراد الطبقة الأرستقراطية في السهوب؛ فقد بذل عناية فائقة لتيسير دفة ما يتعلق بمراكزه الإدارية، وكذلك قام بتنظيم عملية الصيد؛ وبشكل عام، فقد اهتم كذلك بترتيب أمر المهام التموينية للجيش، كما أنجز أيضاً عملية تنظيم الدولة من الناحية المدنية. ربما كانت هذه المسألة الأخيرة عملاً أكثر صعوبة من مسألة الاصلاحات والتنظيمات العسكرية، لأن المسألة كانت معروفة فيما يتعلق به وبرجاله المغول، فقد كانوا جميعاً على درجة بدائية جداً من الناحية الحضارية. فالخاقان لم يتعلم، ليقرأ أو يكتب، على الاطلاق، كما أنه لم يكتسب أية لغة أجنبية إلى جانب لغته

---

(١) ربما كانت هي قبيلة جاجيرات عند رشيد الدين، جامع التواريخ، جـ ١ / ص .ص : ١٥٢ ـ ١٥٦ ، والتي وردت في كتابه تحت عنوان جوريات (المترجم إلى العربية).

المغولية المحلية (فجنكيز ـ خان، وربما كافة قومه، لم يكونوا يعرفوا أي وجود لكتابة ما يتكلم به) لأنه قد يبدو أن معرفة وجود الكتابة نفسها لم يماط له اللثام عنها إلا بعد انتصاره على النيمانيين فقط، وذلك عندما ألقى المغول القبض على رجل أويغوري هو تاتاتونگا ـ Tatatunga، وأسروه، فقد كان هذا الرجل منخرطاً في سلك الخدمة (الإدارية المدنية) لدى تايان ـ خان (النيماني) كحامل الخاتم. أصبح تاتاتونگا معلم المغول الأول. أما جنكيز ـ خان نفسه فإنه لم يقم بأية محاولة لفهم الأحرف الهجائية، ولكنه، بحدة ذهنه وبثاقب نظره المعتادين، قدر (٧٣) في الحال تمام التقدير أهميتها العظيمة؛ وفوق ذلك كله فقد كان لا بد منها، وذلك لسد احتياجاتَ الامبراطورية التي كان قد عقد العزم على بنائها. كذلك، فقد أصدر تعليماته في الحال، والتي تقضي بأنه لا بد وأن تُعَلَّم القراءة والكتابة إلى كافة أقربائه وإلى جميع رفاقه. أفلح أخوه المتبنى شيكي ـ كوتاكو[1]، فلاحاً كبيراً، وعمل تقدماً ملحوظاً في هذا الميدان؛ وبوجه عام يبدو أنه أصبح أشد المغول قاطبة ذكاءً وميولاً لتلقن الثقافة الأويغورية. ولذلك السبب عينه قام جنكيز ـ خان بتعيينه قاضي القضاة، مقدماً له في

---

(١) في الحقيقة هو شخص تتري عثر عليه وهو في المهد طفلاً رضيعاً؛ هجره أهله إبان الغارة التي شنها على قومه جنكيز ـ خان وقضى فيها عليهم. وقد أخذ ذلك الطفل وتولت أم أو زوجة جنكيز ـ خان، باختلاف الروايات بتربيته، كابن لها. فأصبح شيكي ـ كوتاكو أخاً أو ابناً عن طريق التبني للخان المغولي.

لمعلومات أوفر عن هذا الرجل، انظر كتابنا: «أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي» ص. ص: ٣١٨ ـ ٣١٩ وبالذات الحاشية رقم ٤ في نفس الصفحات وكذلك المصادر التي أشير إليها في هذه الحاشية المذكورة. (المترجم إلى اللغة العربية).

تلك المناسبة نفسها (مناسبة توليه المنصب وفي ذلك الاجتماع ـ القوريلتاي) التعليمات المميزة التالية: «الآن وبعد أن أكدت سيادتي على كافة الأمم، فإنك ستكون عينيّ (اللتين أبصر بهما) وأذنيّ (اللتين أسمع بهما). فلا تدع أحداً يذهب ويتخطى إلى العكس مما تقول. فلقد فوضتك لتدبير مسألتي الحكم والعقاب في حالات السرقة والتزوير.. وستحكم بالأعدام على أولئك الذين يستحقون عقوبة الموت، وتنفذ عقوبة الحد على أولئك الذين يستحقون ذلك الحد. فبعد أن تنتهي من البت في قضية ما فلا بد أن تدون ذلك الحكم على لوح أسود اللون، وذلك لئلا يتمكن أحد في المستقبل، أن يغير قرارات المحكمة التي كنت قد أصدرتها».

إن اختيار جنكيز ـ خان لرئيس القضاة قد أعطى برهاناً قاطعاً على معرفته المبدعة عن نوعية ومعدن الرجال (الذين ولاهم المناصب الإدارية المدنية الهامة) بنفس المنوال الذي كان قد نهجه عندما اختار قادة جيشه العسكريين؛ فلقد أدى شيكي ـ كوتاكو واجباته (القضائية) بنشاط وفعالية يحتذى بهما، وبطريقة مثالية في فضائلها، بحيث أصبحت أحكامه القضائية النماذج التي سار على نهجها قضاة المستقبل. وقد دون (في سجل القضاء) بأنه لم يعط أهمية إلى الأدلة التي تقدم إليه (أثناء سيره في الحكم في قضية من القضايا المطروحة بين يديه) والتي كانت قد أديت بدافع من الخوف (فإن أجبر شخص على أن يدلي بأدلة غير صحيحة كان قد أدلى بها نتيجة تهديد أو تخويف من جهات أخرى، فإنه يستبعدها من حيثيات قرار حكمه).

(٧٤) كما كان جنكيز ـ خان مبرزاً في كل ما فعل، فقد قام هنا باستخدام الأحرف الهجائية الحديثة الوجود (والاستعمال في مجتمع المغول) لتخدم غرض تدوين وكتابة أقواله (بيليك) وقوانينه (جاساق، أو ياساق، أو ياسا)، والتي كانت عبارة عن تنظيم (وتصنيف) قانون المغول الشائع، والمتعارف عليه في داخل مجتمعاتهم. لم يصنف لابيليكه (أقواله) ولا ياساه (قوانينه) في وقت واحد: فقد نمت وتدرجت على مراحل وهي من عمل جنكيز ـ خان في طوال حياته. ولقد أعطى أهمية أولية في تصنيف الياساق. «إذا لم يقم الحكام، الذين يأتون بعد الحاكم الحالي (يعني بذلك نفسه)، وعلية القوم، والابطال، والقادة العسكريون، الذين يحيطون بهم (يحيطون بالحكام) بتنفيذ جميع الأشياء التي جاءت في الياساق، فإن عمل الحكومة سيعرض للأخطار المحدقة به من حوله، ومن ثم فإنه سينتهي. وحينئذٍ فإنهم سيكونون في غاية السعادة انهم وجدوا جنكيز ـ خان ثانياً، ولكنهم سوف لا يجدون أحداً قط». ومرة أخرى: «إذا قام الأبناء والأحفاد، والذين سيولدون ويحتلون مكانتي، (لمدة) خمسمائة أو ألف سنة، أو عشرة آلاف سنة منذ الآن، بالحفاظ على هذه القوانين ولا يغيرون ياساق جنكيز ـ خان. . . فإن السماء سوف تمنحهم نجاحاً مذهلاً وثراء اقتصادياً عظيماً». وهكذا (نجد أن) «الياسا العظيم قد جعل إلزامياً على الجميع، بما في ذلك رئيس الامبراطورية الأعلى، الخاقان نفسه. كانت فكرة جنكيز ـ خان هي أن يأتي بقانون لا يمكن تغييره على مدى العصور والأيام، وانه سيخضع الأبناء والأحفاد (والأجيال) القادمة لطاعة (وتنفيذ ما جاء فيه، والتمشي

بموجبه)، بنفس المستوى الذي هو عليه في أيام (٧٥)المعاصرين له. لم يصنف (جنكيز ـ خان) هذا القانون الراسخ البناء لا من قوانين أو نظم الأمم التي كانت أكثر تحضراً أو تمدناً، والتي أصبح (هو وقومه) على اتصال مباشر معهم، تلك الحضارة وذاك التقدم الذين لم يخفق في تقدير قيمتهما (أو الاستفادة منهما بكل ما في وسعه). كما أنه لم ينشيء تلك القوانين من الإيحاءات التي كانت (حسب زعمهم) توحيها إليه الروح العالية (على الرغم من أن هذه (الايحاءات) كان هو نفسه يعترف بها أيضاً) ولكنه صنفها من الأعراف والتقاليد والنواميس والأفكار القديمة التي كانت سائدة بين عشيرته وشعبه وأمته (المغولية في مجموعها). فقد كان على يقين راسخ من أنه متى ما أشاد، ورفع من منزلة هذه الأعراف، وهذا القانون العامي، إلى منزلة قانون عام، وكما كانت ستصبح (بمنزلة القوانين) التشريعية؛ فانه بذلك يكون قد أقام قواعد أبدية، صالحة لكل زمان، والسبب في ذلك أنه لم يكن يتصور، على الاطلاق، بأن يكون من الممكن أن يستطيع المغول أن يصنفوا أي قانون آخر غير ذلك الذي أصبح ساري المفعول بينهم يتمشون بمقتضاه؛ والذي كان قد أجازه هو نفسه، وصدَّقت عليه السماء الزرقاء السرمدية، وعلى الرغم من كل ذلك، فإن كل شيء يتغير، وكافة الأشياء تمضي وتنقضي. فقد توقفت (الياسا العظيمة) ولم تعد قانوناً؛ كما فقد المغول في الوقت الحاضر جميع ما يتعلق بها حتى أنهم نسوها من ذاكرتهم. (وفوق ذلك كله) فإنهم لم يحافظوا ولا حتى على نصها. فلم يقدر لها أن تعيش إلا ضمن نصوص متقطعة وأشلاء هزيلة، والتي يمكننا بواسطتها أن نعيد بنائها في

مجموعها، وإن كان ذلك بشكل غاية في الصعوبة. إلا أنها، على الرغم من كل ذلك، قد لعبت دوراً هائلاً في حياة تلك الامبراطورية التي أسسها جنكيز ـ خان، كما أصبحت ذات تأثير عميق جداً في كل وجه من وجوه حياة المغول، وكذلك (فقد كان لها عليه التأثير في كافة مناحي حياة) الشعوب والأمم التي أخضعها المغول تحت نفوذ امبراطوريتهم المترامية الأطراف.

(٧٦) لقد طُبِّقَ قانون الياساق بكل قوة وصرامة؛ ولذلك لم يمض وقت طويل حتى ساد الأمن وعم النظام كافة أرجاء الامبراطورية، من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها؛ فأصبحت جرائم القتل، وحوادث السرقة، وأقوال الكذب، وارتكاب الزنا نادرة الوقوع إلى أبعد حد. كما أن الياسا منحت النظام الأرستقراطي موافقتها النهائية. أما بالنسبة لعامة الشعب وطبقة العبيد (الذين كان عددهم يتضخم بشكل متصاعد، وفي صورة مستديمة عن طريق حروب المغول) المنتصرة، فقد جاءت الياساق ثقيلة الوطأة جداً عليهم؛ فأصبحت أداة قوية للظلم والاضطهاد المسلطين على رؤوسهم.

أما أقوال جنكيز ـ خان، أو البيليك، فقد كانت عبارة عن كلام (تفوه به) في مناسبات متعددة وجمع على مراحل؛ إلا أنه لم يبق من تلك الأقوال، التي ضمنت في مجموعه أقواله التي جمعت، إلا ما رغب الخاقان في أن يحفظ من الضياع. وبطبيعة الحال فإن الكثير مما سمعه القوم منه قد يكون ظل يعيش في ذاكرة أتباعه ومريديه. وقد سهلت هذه العملية الحقيقة التي مؤادها

أن جنكيز ـ خان، مثله في هذا المضمار مثل غيره من المغول ذوي القدرة والكفاءة في وقته، كان يملك موهبة (خاصة) في اعطاء أفكاره شكلاً قياسياً (أي يجعل كلامه ذي وزن وقافية)، إذ أن هذا العرف المتبع أصبح (عند المغول) منذ الزمن الماضي، والغابر السحيق، الأمر الذي جعل من الممكن لقوم يجهلون القراءة والكتابة أن يحتفظوا بأمثلة وحكم آبائهم وأجدادهم السائرة. وقد أسبغ المغول، في العصور المتأخرة، على أقوال مؤسس امبراطوريتهم أعظم أهمية (وأولوها جل وكبير اهتماماتهم). فلقد كانت تمثل جزءً مما يحصل عليه كل حاكم وكل موظف إداري من التعليم. إلا أن أقوال (جنكيز ـ خان)، البيليك، أضحت شبيهة في ذلك بـ : الياساق، قد جاءت إلينا في حالة مهلهلة. (٧٧) إذ أن بعض تلك الأقوال قد حفظت من قبل المغول، بينما تم الحفاظ على البعض الآخر في مؤلفات الكتاب الصينيين والمسلمين.

ولكي يكمل جنكيز ـ خان مسألة تنظيم النواحي الإدارية، سواء عسكرية أو مدنية، فقد قام بايجاد وظيفة (جديدة) وهي وظيفة بيگي، والذي كان سيصبح كبير رجال الدولة الدينيين، فقد خوله سلطة دينية، واعترف بذلك بشكل رسمي. وكما يتذكر القارىء (الكريم) فإن اللقب بيگي كان معروفاً منذ العهود القديمة؛ كما أنه كان قد تلقب به، بصفة عملية أكثر، قادة (أي مشايخ) العشائر أو القبائل التي تسكن في الغابات. ومثل هؤلاء القادة (رؤساء العشائر القبليين) كانوا يضيفون إلى ذلك اللقب الديني لقباً آخر ذا سلطة دنيوية هو لقب أمير، بالإضافة إلى ذلك

اللقب ذي السلطة الروحانية الخاص برجل الدين الشاماني، والذي يعتمد (اعتماداً كبيراً) على صلاته النسبية التي ترتبط بجد العشيرة الأعلى، وكذلك بعلاقته بأرواحها الحارسة (كجزء من معتقدهم الديني). وهكذا أوجد جنكيز ـ خان الآن وظيفة رجل الدولة الشامان[1]. وقد كان ذلك الرجل هو شخص يسمى أوسون، حيث كان أول من عين على وظيفة بيگي، وهو رجل كبير السن، حيث كان أكبر عضو (من أعضاء رجال) عشيرة بَارِين ـ Baarin، إذ أن هذه العشيرة هي أكبر فرع من سلالة أبناء وأحفاد الأب الأسطوري بدونتشار ـ Bodunchar. لهذا السبب فإن أوسون يمكن أن يعتبر صاحب علاقات وصلات نسبية خاصة تربطه بذلك الجد الأعلى، وانه كان قادراً تماماً بأن يقوم مقامه. قال جنكيز ـ خان مخاطباً له: «يا أوسون انك الرجل الأكبر سناً من سلالة بَارِين؛ لذلك فلا بد أن تكون بيگي (رجل الدين في الدولة)، وبما أن ميزتك بيگي، فسوف تركب على جواد أبيض، وستلبس ملابس بيضاء اللون، وستأخذ المكانة الأولى والصدارة بين كل الضيوف (في كل مناسبة)، وسيكون من (٧٨) واجبك أن تحدد أي سنة، وأي قمر[2] يكونان مبشرين بالخير».

كانت حدود الامبراطورية في الوقت ذاته آنئذٍ قد اتسعت إلى مناطق أبعد، فيما وراء تخوم أراضي المغول الأصلية (وذلك بعد أن قام جنكيز ـ خان) بعمل سلسلة من الحملات العسكرية (هنا

---

(١) هو رجل الدين، ومرجع المغول عليه في هذه الناحية (المترجم إلى العربية)

(٢) يعني هنا أي شهر (المترجم إلى العربية).

وهناك، إلى الشرق تارة وإلى جهة الغرب تارة أخرى) والتي لم يشارك جنكيز ـ خان بنفسه شخصياً مشاركة فعالة في الأغلبية الكبرى من تلك الحملات العسكرية التوسعية. إذ قام في سنة ١٢٠٧ (م / ٦٠٣ ـ ٦٠٤ هـ) فأرسل ابنه الأكبر جوتشي على رأس رجال الجناح الأيمن العسكريين، ليقوموا بحملة ضد «أقوام الغابة»، (من قبائل وعشائر) الأويرات والقرغيز[١]. لم يكن (أفراد القبائل) الأخيرة ينتمون إلى أصول عرقية مغولية، والذين كانوا يسكنون المناطق العلوية لوادي (نهر) ينسي[٢]، فهذه الأراضي عبارة عن قطر خصب، حيث كان في ذلك الوقت، يزرع فيه كميات كبيرة من الحبوب، ويقوم بتصديرها التجار من المسلمين والأويغوريين. وإلى جانب ذلك، فإن أراضي «أقوام الغابات» كانت غنية بفرو السمور والجلود الأخرى ذات الفراء؛ كما أن صقور الصيد كانت تأتي أيضاً من هناك. أنجز جوتشي مهمته تلك بنجاح كامل، (فقد كان عمله ذلك مهماً جداً، حيث قام) بتأمين (حدود) الامبراطورية من كافة الأخطار التي قد تهددها بهجمات مفاجئة من هاتيك الربوع، كما (قام) بوضع طرقٍ تجارية حيوية (وهامة جداً) تحت سلطة الامبراطورية. (أما فيما يتعلق بمسألة) استسلام الأويغوريين[٣]، فقد جاءت (كما هو متوقع) بصفة

---

(١) لمعلومات وافية عن قبائل الاويرات والقرغيز، انظر التفاصيل في كتاب رشيد الدين، جامع التواريخ، جـ ١ / ص .ص : ١٠٩ ـ ١١٠،ص. ص. : ١٢٧ ـ ١٣١ (المترجم إلى العربية).

(٢) وهي مقاطعة مينوسينسك الحالية (المترجم إلى الانجليزية).

(٣) لمعلومات عن الاويغوريين، انظر رشيد الدين، جامع التواريخ، جـ ١ / ص .ص ١٠٥ / ١٠٨ (المترجم إلى العربية).

عفوية، إذ أن حاكمهم، الذي كان يحمل لقب يدي قوت[1]، أرسل بعثة سياسية إلى الخان، ثم جاء هو شخصياً فيما بعد (إلى جنكيز ـ خان) ليعبر عن ولائه لسيده الجديد. (بعد ذلك نجد أن) جنكيز ـ خان يمنحه ابنته التشالتون لتكون زوجة له[2].

في عام ١٢١١ (م / ٦٠٧ ـ ٦٠٨ هـ) استطاعت قوات مغولية أن تسير إلى الجزء الشمالي من جتيسو، وأن (٧٩) تفتحه بقيادة كوبيلاي ـ نايان. وهكذا بدأت سلطة الامبراطور المغولي، سيد امبراطورية بدوية، تتسع لتشمل أراضي حضارة عريقة؛ حيث كانت الغالبية الساحقة من سكانها يعيشون حياة مستقرة (تقوم على الزراعة بشكل رئيسي على العكس من حياة التنقل والترحال).

كان جنكيز ـ خان ، في الوقت ذاته، قد انتهى، في حقيقة الأمر، من انجاز قانون امبراطوريته البدوية، (فقد قام) بتعيين أراضي أميرية ، من بين (أراضي وأقوام) الشعوب المهزومة، لوالدته، ولأخوته، ولأبنائه؛ اتبع جنكيز ـ خان في هذا الخصوص، كما هو الحال بالنسبة لمناسبات أخرى مشابهة، الأعراف المغولية القديمة. فقد كان على علم تام بأنه عندما يعطي أقساماً من امبراطوريته إلى ذويه وأقاربه، فإنه لم يكن في أي وضع يجعله يقبل أي تنازل أو مساومة فيما يتعلق بوحدة الامبراطورية ككل،

---

(١) حول هذا اللقب ومعناه، انظر، كتابنا «سقوط الدولة العباسية»، ص: ٨٠ (المترجم إلى العربية).

(٥) انظر كتابنا الآنف الذكر ، ص. ص: ٨٣ ـ ٨٥، فيما يتعلق بهذا الزواج ومعلومات تفصيلية أخرى في هذا الشأن، (المترجم إلى العربية).

تلك الوحدة التي أمسكت بها مجتمعه سلطة الخاقان الفولاذية، وياساه الراسخة (الذي حرم أن يتعرض لأي تغيير). ان مسألة اعطائه أراضي أميرية لأقاربه وذويه فإن جنكيز كان فقط قد أثبت مرة أخرى تمسكه وتقيده الشديدين بمبادىء وبقيم الطبقة الأرستقراطية في السهوب، كما أكد على حقيقة مؤداها أن امبراطوريته ما هي إلا ملك لعشيرته. (وفي هذه المناسبة) قال مخاطباً ابنه جوتشي، عندما عاد الأخير من حملته العسكرية[1] : «إنك الابن الأكبر من بين أبنائي، والآن وقد سرت ولأول مرة إلى الحرب، واستطعت أن تهزم كافة الأقوام الذين يعيشون في الأدغال (وأن تفتح أراضيهم) دون أن تعرض جنودك للارهاق، فإنني أمنحك هؤلاء الناس (أي أن تكون الحاكم فيهم وتكون أراضيهم جزءً من أراضيك الأميرية)[2]».

كان (عمر) جنكيز ـ خان في ذلك الوقت قد تجاوز الخمسين (سنة) قليلاً. إلا أنه كان يتمتع بصحة ممتازة، كما كان (٨٠) ينظر إلى المستقبل بثقة متناهية، مدركاً (تمام الإدراك حسب اعتقاده) لحماية السماء الخالدة ومساندتها، والتي كانت رغبتها هي تقديم كافة أقطار العالم إليه وإلى عشيرته المجيدة.

---

(١) ربما كانت حملته تلك هي التي وجهت ضد قبائل وساكني الغابات والادغال من عشائر الاويرات والقرغيز. (المترجم إلى العربية).

(٢) لمعلومات تفصيلية حول تقسيم مملكة جنكيز ـ خان على أبنائه وذويه، انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ـ ص. ص : ١٤١ ـ ١٤٣. (المترجم إلى اللغة العربية).

ـ ٨ ـ

الصراع مع الشامان كوكتشو

(٨١) لم يكن جنكيز ـ خان رجلاً متديناً فقط، بل كان أيضاً رجلاً يؤمن بالخرافات. (ولعل السبب في ذلك يكمن في طبيعة دينهم)، حيث كان دين المغول البدائي أرضاً خصبة للإيمان بالأمور الخرافية. لأن الرغبة، أو ربما أنه حق لنا حتى أن نقول، بأن الحاجة إلى معرفة مشيئة السماء الزرقاء السرمدية الوجود (والاطلاع على إرادة) الأرواح الحارسة كانت مسألة حافزة بشكل مستديم على تبادل الأحاديث والمشاعر الودية مع الشامانات، والسحرة، والمشعوذين، والكهنة، الذين (يدعون بأنهم) يتنبأون بعلوم الغيب. ومع هذا فإن جنكيز ـ خان، هنا كما هو الحال بالنسبة للأشياء الأخرى، كان يحتفظ بحاسية معينة ذات طابع (خاص) كما (كان يتمتع) بالحرية العقلية. وهذا شيء لا بد أنه لم يكن بالعبء الخفيف عليه، لأنه كان لا بد أن يصارع (ويجاهد بعنف شديدين) لمقاومة مخاوف الإيمان بالخرافات والتي طبعت في ذاته من كافة الأشياء التي كانت تحيط به منذ السنوات الأولى من عمره. فالحادثة التالية، والتي تكوّن موضوع الفصل الحالي هذا، ذات أهمية ومغزى خاص فيما يتعلق بهذا الشأن، لأنه بعد

هـذه الأحداث غيـر المتـوقعة، وعلى الرغم من أنـه استمر في استشارة الشامانات والعرافين، ظل جنكيز ـ خان في هذه الأمور دائماً ضمن اطارات محددة ومعقولة. فإذا ما وجد أن (٨٢) الإجابة (التي يدلي بها إليه) الكاهن، أو حتى أن أفكاره العاطفية المؤمنة بالخرافات، كانت متعارضة مع الفطرة السليمة، أو مع أهـدافه (الذاتية) التي قد أضحت قوام حياته الخاصة، فإنه يأبى أن يتبع ما جاء فيها. لم يستسلم على الاطلاق إلى بواعث (أو حوافز) ذات جانب واحد؛ كما كان يمتلك إرادة حديدية، وقادراً على أن يكبح جماحها، لتظل (على الدوام) في العنان، (كما كان قادراً على التحكم) حتى في تحيزاته الخاصة المؤمنـة بالخـرافات، والتي يتشارك في ذلك مع كافة شعبه.

كان لدى مونليك، الرجل الذي كان قد عهد إليه يسوكاى ـ بهادر، وهو على فراش الموت بأمر رعاية أسرته والعناية بها بعد وفاته، سبعة من الأولاد. وقد اشتهر واحد منهم وبرز من بينهم، وأصبح رجلاً شاماناً معروفاً. كان اسمه كوكتشو؛ ولكنه كان معروفاً أيضاً بلقب تب ـ تنگري. (وكلمة تنگري تعني باللغة المغـولية السماء، أو الله). اكتسب كوكتشو ثقة جنكيز ـ خان، الذي يظهر أنه اعتقد اعتقاداً عميقاً جـداً، بأن كـوكتشو كـان يتحادث مـع الأرواح، وأن باستطاعته أن يصعد إلى السماء، وأنه كان يمتلك حماة أقويـاء من بين العفاريت من الجن. كمـا يبدو أنـه (أي كوكتشو) قد لعب دوراً معيناً في تنصيب جنكيز ـ خان على (عرش) الامبراطورية، كما لم يكن لديه أي استعداد، مهما كان طفيفاً،

لأن يظل في منأ عن الأنظار. وبما أنه كان ينتمي إلى أسرة ذات علاقة قريبة تربطها بعائلة جنكيز ـ خان، فقد كان لديه كل الحق أن يعتبر نفسه على أنه واحد من أفراد الطبقة الأرستقراطية.

كانت آمال وطموح كوكتشو (كبيرة جداً، وتحثه دوماً على) أن ينتفع إلى أقصى حد ممكن من منزلته، كرجل شامان، ومقدرته الشخصية في التحدث مع الأرواح؛ ولكي يستخدم تأثيره (٨٣) ونفوذه الكبيرين في مجتمعه، على جنكيز ـ خان للتدخل في شؤون الدولة. وبالإضافة إلى ذلك فإنه من المحتمل جداً أن يكون لديه حتى خطط أكثر طموحاً، لأن قوة تأثيره على أفراد الطبقة الأرستقراطية كان عظيماً. ذات مرة، وبعد أن تشاجر مع أخ لجنكيز، كسار الرياضي، جاء تب ـ تنگري (وهو الرجل الشامان كوكتشو) إلى الأمبراطور وقال له: «لقد أوحت إلى الروح أمراً مقدساً من السماء الخالدة: أن تموچين سوف يحكم على الأمم، وأنه سيأتي إلى الحكم من بعده كسار. وانك إن لم تستأصل شأفة كسار فإنك ستعرض أمرك (حكمك) إلى الخطر». كانت تحسبات تب ـ تنگري صحيحة؛ كما كانت كلماته قد وقعت موقع ذي تأثير (على الخان)، لأن جنكيز كان غيوراً بشدة على السلطة. وفي ليلة ذلك اليوم ذهب جنكيز ـ خان إلى مسكن كسار، وهناك ألقى القبض عليه، وجرده من القبعة والحزام (وهذه تعتبر كعلامة تدل على أن صاحبها قد فقد حريته). ومن ثم بدأ يعيد التحقيق معه (حول مسألة ما قاله له الرجل الشامان). ولكن في تلك اللحظة، وبشكل مفاجيء لم يكن متوقعاً، جاءت أمهما العجوز أويلون ـ

يك، والتي كانت قد أطلعت (على ما يجري بين ابنيها) من قبل خدمها. (وهناك تقدمت) فحلت وثاق كسار، وأعادت إليه قبعته وحزامه. ثم جثمت على الأرض وكشفت عن ثدييها وقالت لهما، بغضب ونغمة ساخطة: «هل ترون هذا؟ إن هذين الثديين هما اللذان رضعتما الحليب منهما أنتما الاثنان. فما هي يا تري الجريمة التي ارتكبها كسار والتي جعلتك (يا جنكيز) تعقد العزم على أن تدمر لحمك أنت؟ فإنك يوم أن كنت طفلاً رضيعاً لم ترضع إلا من واحد فقط من ثدييّ؛ أما كاشيون وأتشيگين فإنهما لم يستطيعا أن يرضعا الثدى الآخر. ولقد كان كسار فقط (٨٤) هو وحده الذي استطاع أن يرضع (الثديين) كليهما معاً، وأن يخفف عني من عبء حليبي ويريحني. إن لدى روح تموچين نبوغاً متقداً؛ ولكن كسار يملك القوة والمهارة في حسن استخدام القوس والرمي بالسهام. وفي كل زمان (من الزمن الماضي) كانت الأقوام تقف ضدك (يا تموچين) فيقوم هو (كسار) باخماد نهوضهم بقوسه وسهامه، أما الآن، وبعد أن دمرّ الأعداء جميعاً لم يعد كسار يصلح لأي عمل يقوم به لخدمة أغراضك». وهنا أحس جنكيز بوخزة الضمير وخجل، فذهب إلى الخارج. إلا أنه، على الرغم من ذلك قام فجرد كسار من بعض رجاله.

على الرغم من أن محاولته قد باءت بالفشل، في أن يوقع الشر بين الأخوين، والتي كادت أن تجعل جنكيز ـ خان في موضع معقد جداً، وفي مكانة ذليلة، فإن تب ـ تنگري استمر في مجيئه في صبيحة كل يوم (إلى منازل) الخان، ويقدم إليه كل توجيهات

وتعليمات مهذبة. نمت أهمية وقوة تأثير (ذلك الرجل) الشامان بسرعة مضطردة. ونتيجة لذلك، أصبح يملك أتباعاً ومريدين من بين أفراد الطبقة الأرستقراطية، حيث كانوا ينظرون إليه نظرة مؤمنة بالخرافات ويشوبها الخوف والرهبة، في حين بدأ عامة الناس ينتقلون بولائهم من أسيادهم ويدخلون تحت نفوذه. لذلك، فقد زادت نظرة الشامان المتغطرسة بشكل أكبر تجاه (أعضاء) أسرة جنكيز ـ خان)، وكان يساعده في ذلك أخوته (الستة الآخرون)، وعلى المدى الطويل ذهب إلى أبعد من ذلك و(تجرأ) على اهانة أخي الأخير (أخو جنكيز) الأصغر. فبدأ الناس يتهامسون (بالحديث في هذا الخصوص). وهناك قالت له بُرْتِهْ، زوجة جنكيز: «ما هذا الوضع (المهين)؟ إذا كان هؤلاء الرجال يحاولون أن يقضوا على اخوتك، الذين هم رجال عظام، وأنت ما تزال على قيد الحياة، فإن الناس، الذين يشبهون (٨٥) قطيعاً من الطيور أو مثل العشب تحت الريح، سيرفضون، أن يخضعوا لأبنائك بعد أن تموت».

في هذا الوقت عرف جنكيز ـ خان أن هذا الشيء لم يعد يطاق تحمله، أو يمكن التغاضي عنه. (وهناك استدعى الخان) أخاه أتشگين، ذلك الذي كان قد أهين على يد كوكتشو، وقال له، بعد أن قمع (في نفسه) الرعب الخرافي (الذي كان يكمن في ذاته) تجاه هذا الرجل الشامان: «عندما يأتي تب ـ تنگرى هنا في هذا اليوم، فإنه بإمكانك أن تفعل به ما تشاء».

حينما جاء تب ـ تنگري مصحوباً بوالده، مونليك و(بقية) اخوته، إلى مكان وجود الخان، قبض عليه، بعد ذلك بقليل،

تيموج ـ أتشگين من عنقه، فطلب جنكيز منهما أن يخرجا إلى خارج منزله، إن هما أرادا أن يتصارعا. فخرجا إلى خارج المكان وكل واحد منهما ممسكاً بغريمه بكل قوة. وما أن أصبحا خارج الأبواب حتى ظهر، من مخبأ هناك، رجال أشداء، كانوا قد وضِعوا هناك على أهبة الاستعداد خصيصاً لهذا الغرض، فقبضوا على تب ـ تنگري وكسروا عمود ظهره الفقري. عاد أتشگين فدخل إلى الخيمة وهو يقول بأن تب ـ تنگري لم يعد يرغب في المصارعة، إلا أنه قد استلقى على الأرض ولم يستطع أن ينهض. وفي الحال عرف مونليك، والد الرجل الشامان، ماذا كانت القضية. وهناك انفجر في البكاء، وقال (مخاطباً) جنكيز: «أيها الخاقان! لقد أصبحت تابعاً لك قبل أن يبدأ صعودك (يعني قبل أن تصبح رجلاً عظيماً كحالتك الراهنة)، وبقيت كذلك حتى اليوم».

ولكي يهدىء من (روع) الرأي العام، الذي أهاجه مقتل (ذلك الرجل) الشامان المشهور، قام جنكير باعلان البيان المشهور التالي: «(كان) تب ـ تنگري (٨٧) يكره اخوتي ويفتري عليهم بشكل ظالم وشرس، فكان ذلك هو السبب الذي جعل السماء (الإله) تسحب منه حبها له، كما أخذت معه (مع حبها له) حياته وجسده».

ذكر جنكيز ـ خان جسد الرجل الشامان، وذلك لما تردد في الأوساط المغولية من الخرافات من أنه في اليوم الثالث بعد وفاته (وفاة الشامان) كان جثمان تب ـ تنگري قد خرج من خلال فتحة الدخان التي تقع في الخيمة فوق جثمان الشامان المقتول، والتي

وضعت خصيصاً في (سقف تلك الخيمة). كما أشار جنكيز ـ خان بشكل واضح في بيانه ذلك أيضاً من أن السماء دعمته وما تزال تدعمه هو وعشيرته؛ كما أنه على أتم الاستعداد لأن يعاقب أي امرىء يقوم بمحاولة الوقوف ضد خان المغول، أو أقربائه؛ وفوق ذلك كله، فقد سلم بمسألة أن الشامان كان قادراً على عمل «شناعات جائرة» (ضد أي امرىء يريد اذاءه). ومع هذا، فإن هذه الكلمات، مهما تبدو متميزة، قد قصد من ورائها (مخاطبة) طبقات الجماهير العامة، وذلك (لما يتمتع به) الشامان من مهارات خرافية، ووهمية. على أنه مهما يكن عليه الأمر، فإن ما قاله جنكيز إلى مونليك، والد تب ـ تنگري، كان يختلف اختلافاً كبيراً جداً (عما قاله للناس)، كما أنه يميط اللثام فعلاً عما كان يدور في خلده (إذ قال له): «إنك لم تفلح في تربية أبنائك. لقد كان (يعني الشامان الذي قتل) يتوق بأن يكون مساوياً لي؛ ولذلك السبب عينه الذي جعلني أقضي عليه. إذ لو كُنتُ قد استطعتُ أن استطلع في حجب الغيب عن مثل هذه الخلال فيك وفي أبنائك، لكنت قد أهلكتكم كافة منذ زمن بعيد». إلا أن جنكيز ـ خان، في هذه المناسبة، وكما هي الحالة دائماً في كل مناسبة، قد أعطى برهاناً قاطعاً على (مدى ما كان يتمتع به من) ضبط للنفس، وعلى مقدرته في عدم التمادي في ارتكاب أعمال قاسية هو في غنى عنها. قال (جنكيز) مخاطباً مونليك: «إن امرىء يعطي كلمته في (٨٧) الصباح ثم يعمد بعد ذلك إلى تغييرها عند المساء، أو بعد أن يقولها في الليل ثم يسحبها في الصباح، فإنه لجدير بأن يجلب

على نفسه العار، إذا ما وضع تحت مجهرِ معيارٍ لمعدن الرجال، لقد سبق أن أعطيت وعدي لك بأن أعفيك من القتل. والآن نترك الأمر يقف هنا، ولنجعل نهاية المسألة على ما هي عليه».

وبموت كوكتشو ذهب معه آخر رجل في منغوليا، الذي كان في مقدوره أن يحاول أن يقف في موقف الند أمام جنكيز، أو أن يكون معارضاً له، أو أن يخالف له أمراً. بعد الآن انحنى الجميع خضوعاً للامبراطور الحديدي وإرادته الفولاذية، ذلك الرجل الذي شق الطريق العسير من خلال حياة البؤس والشقاء، والجوع والحرمان من داخل خيمة مهجورة (منبوذة من الأصحاب ومن الأنصار، دون وجود حامٍ أو مدافع يدرأ عن ساكنيها غوائل الدهر الغادرة) من على (ضفاف نهر) أونون ، حتى وصل إلى مراكز قيادية ملكية (ومتربعاً على عرش) امبراطورية محكمة البناء والتنظيم.

ـ ٩ ـ

«الحملات العسكرية ضد التنگوت والصين»

(٨٨) الآن، وبعد أن أكمل اخضاع كافة أراضي منغوليا ووحد جميع «الأقوام التي تسكن داخل خيام اللبود» تحت حكمه، أصبح جنكيز ـ خان وجهاً لوجه، أمام ممالك ذات حضارة عظيمة، والتي كانت تقع ممتلكاتها مباشرة إلى الجنوب من السهوب المغولية المرتفعة (وهذه الدول المتحضرة هي) الصين والتنگوت (سي ـ هيا)[1]. كانت ثروة الصين ـ من حيث ما تغله تربتها الخصبة، وما تملكه من حضارة ـ شيئاً مرغوباً فيه على الدوام (وخاصة) من قبل جيرانها من البدو الشماليين؛ والذين كانوا بصورة مستمرة على أتم استعداد لغزوها، أو، أن يدخلوا معها في معاملة تجارية في حالة فشلهم في الهجوم عليها. وكثيراً ما كانوا يقومون بالدخول إلى أراضي الصين في أوقات كثيرة متقطعة، حيث كانوا يقومون باحتلال مدنها وأخذ مقاطعاتها. وهناك تقوم (على أثر تلك الغزوات البدوية الشمالية) أسرة بدوية الأصل وتؤسس لها حكماً (على الأراضي الصينية)؛ ثم بعد ذلك، وبسرعة مماثلة للسرعة

---

(١) وهي الامبراطورية المعروفة في التاريخ بـ «هسي ـ هسيا» انظر الحاشية التالية للمترجم إلى الانجليزية المترجم إلى اللغة العربية.

التي كونت بها، تختفي (تلك الأسرة البدوية الحاكمة) وذلك بأن يمتصها المحيط الصيني، ذو الكتل البشرية الهائلة، فيندمج أفراد (السلالة البدوية) ضمن الحضارة الصينية. لقد تكرر هذا النوع من التفاعل في الاختلاط (بين أجناس البدو في الشمال والحضر في الجنوب) مراراً كثيرة في أزمنة مختلفة خلال مجريات أحداث التاريخ الصيني (العريق) فلا يقع إلا اختلاف طفيف فقط في الناحية التفصيلية (للأحداث المواكبة لكل حالة). كانت الصين (شيئاً) جذاباً، بحيث (٨٩) يغري السكان البدو الذين لا يقدمون إلا النزر القليل (من الناحيَة الحضارية) نظراً لأن ما يملكونه (من هذا الأمر)إلا شيئاً زهيداً لا يكاد يذكر، بل لم يكن لديهم ما يقدمونه للأمم والحضارات التي خضعت تحت نفوذهم؛ هذا مع إضافة أمر مهم في هذا المضمار(وهو) أنهم قوم يعشقون السلب والنهب. إذ أنه بمجرد أن تصبح أمة بدوية تقطن في السهوب الشمالية، ذات قوة، مهما كانت، فإنها (كأول عمل تقوم به) توجه جل انتباهها أولاً إلى الصين، ثم تعقبها بعد ذلك انتهاكات ضد الأراضي الصينية؛ ثم تتلوها بغارات عسكرية (منظمة) وهجمات يتلو بعضها بعضاً. وفي الوقت الحاضر أصبح جنكيز ـ خان يرأس (القبائل والعشائر) البدوية المتحدة في الشمال، فوجد نفسه في عين ذلك الوضع المتكرر دائماً في حالات كثيرة سابقة من هذا النوع بناءً على ذلك نجد أن جنكيز ـ خان ينجذب إلى الجهة الجنوبية، مثله في هذا المضمار كغيره من أسلافه السابقين، جرياً خلف الاسلاب والغنائم، وسعياً وراء المجد التليد.

كانت في ذلك الوقت الأراضي، التي تعتبر أنها تُكَوِّنُ ما عرف عادة بالصين في مجموعها، مقسمة بين ثلاث امبراطوريات، تكاد تكون متساوية تقريباً من حيث الحجم. (وأراضي هذه الامبراطوريات الثلاث هي): أراضي الشمال الغربي، ويلحق معها أيضاً الأقسام المجاورة من جوبي الكبرى، وتعود جميعها لـ: التنكوتيين[1]، والتي كانت امبراطوريتهم تحمل اسم سي-هيا، أو كشين- Kashin ؛ ثم (الثانية) ما نعرفه اليوم بمنشوريا، ومعها أيضاً المقاطعات الشمالية الشرقية من أراضي الصين الأصلية، وهذه تكون مملكة جورجه[2]، وهم أمة (تعود في أصلها العرقي إلى فئة المانشو- تنكوز، والتي كانت امبراطوريتهم تسمى باسم سلالتهم الحاكمة، أي: الكن، (أو الكنزيين) أو الذهبية؛ ثم (الثالثة) القسم الجنوبي من الصين حيث يُكَوِّنُ امبراطورية مستقلة، إذ كانت تحكم فيها سلالة وطنية صينية هي (أسرة) سُنْگ[3] - Sung Dynasty.

---

(١) كان التكوتيون ينتمون في أصلهم السلالي، إلى حد قريب، إلى السكان التبتيين (المترجم إلى الانجليزية).

(٢) كانت أراضي منشوريا وأراضي الصين الشمالية تسمى في المصادر الإسلامية الفارسية: جورجه وختاي على التوالي. انظر مثلاً: رشيد الدين، جامع التواريخ، ج ١ / ص. ص: ٣٢٠ - ٣٢١، (المترجم إلى العربية).

(٣) تسميها المصادر الفارسية بـ: ننكياس، وهي كلمة مأخوذة من اسم صيني نان-تشيا، وتعني سكان الجنوب، انظر رشيد الدين، جامع التواريخ، ج ١ / ص: ٤٦٠، كذلك الترجمة الانجليزية للأستاذ: ج. أ. بويل، بنيويورك، ١٩٧١ م، ص: ٢٢، والحاشية رقم: ٤٣ (المترجم إلى العربية).

بدأ جنكيز ـ خان غزواته العسكرية الصينية بالهجوم على امبراطورية التنگوت، متخذاً في ذلك كل الاحتياطات، واحتراسه العادي المعهود (في حالات من هذا النوع). ولما كان الكيرايتيون، والنيمانيون، وقبائل مغولية أخرى ذوي علاقات مستمرة منذ زمن طويل (٩٠) مع التنگوتيين، فقد كان يملك تحت تصرفه كافة (ما يحتاج إليه من) معلومات في منتهى الدقة عن بلادهم. كما كان الأويغوريون، ذوي فائدة عظيمة أيضاً في هذا الخصوص، وخاصة تجارهم الذين كانوا يزورون التنگوت، والذين كانوا على علم واسع بالأراضي وأوضاعها، إذ كان اخضاع جنكيز ـ خان لأراضي النيمانيين قد جعله المجاور المباشر لامبراطورية التنگوت[١].

في عام ١٢٠٩ (م / ٦٠٥ ـ ٦٠٦ هـ) سار (مرة أخرى) إلى داخل أراضي التنگوت، وهزم جيشهم، وتعمق إلى الداخل حتى وصل مدينة جونسين(لينگ ـ تشو[٢] ـ Ling - Chow، وهي المكان الذي يسكنه حاكم التنگوت. وهناك (توصل الطرفان إلى اتفاق) فعقد السلام بينهما؛ كان واحداً من تلك الشروط، هو أن يقوم التنگوت بدفع ضريبة سنوية؛ بعدها عاد جنكيز ـ خان إلى مراعيه (في أراضي قومه المغول) وهو يحمل أسلاباً وغنائم هائلة.

---

(١) كانت أراضي امبراطورية التنگوت تحدها مملكة النيمانيين من الجنوب والجنوب الغربي (المترجم إلى العربية).

(٢) (تقع هذه المدينة) في كان ـ سو Kan - Su ، على(نهر) هوانگ ـ هو Hwang - Ho (المترجم من الروسية إلى الانجليزية).

تذكر بعض مصادرنا أنه كان هناك حملة عسكرية (قام بها المغول) ضد التنگوت (كانت قد جاءت) قبل فتح أراضي النيمانيين، وأخرى في سنة ١٢٠٧ (م / ٦٠٣ - ٦٠٤ هـ). ومع هذا فيبدو ممكناً بأن جنكيز لم يشترك شخصياً في هذه (الحملات)، كما أنه لم يعرهم حتى كبير اهتمام. أما ما يتعلق بحملة عام ١٢٠٩ (م / ٦٠٥ - ٦٠٦ هـ) العسكرية فإنه لم يحصل من ورائها على جلب أسلاب وغنائم وفيرة فقط، ولكنها أيضاً أضعفت امبراطورية سي - هيا إلى درجة كبيرة، بحيث أصبح معها جنكيز - خان يستطيع أن يشعر بالأمان من ذلك الجانب على الأقل لبعض الوقت (ليس بالقصير). وإلى جانب ذلك، فقد أتاحت له تلك الحملة العسكرية فرصة (٩١) لاختبار جيوشه (ومدى مقدرتها في القتال) ضد عدو يتحصن وراء مواقع محصنة.

كانت الحرب (مع امبراطورية) الكن هي المهمة التالية، التي أصبحت تقف أمام جنكيز - خان، والتي كانت ذات طابع مهيب؛ فقد كرس نفسه (وبذل جهوداً مضنية) لهذا الغرض بيقظته وثباته المعتادين (وبما عرف عنه من حذر وقوة العزيمة). فإلى جانب الحافز الذي يحث كل حاكم قوي للأقوام البدوية الشمالية، بأن يقوم بغزو أراضي الصين، فقد كان لدى جنكز - خان نفسه ثأرات خاصة به ضد سلالة الكن الحاكمة. إذ أن حكام الكن كانوا دائماً وأبداً حذرين لأن يحموا حدود أراضيهم من الجهة الشمالية، لذلك فقد بذلوا كل ما في وسعهم لكي يبقوا أقوام السهوب الطليقة تحت المراقبة الدائمة، لكبح جماحهم. (فتبنوا سياسة فرق تسد،

وسلاح ضرب الأخصام بعضهم ببعض) فانتهجوا سياسة ثابتة لا تتغير (وذلك) بإثارة النزاع (وأسباب الخلاف) فيما بين أولئك البدو، وتحريض قبيلة واحدة ضد الأخرى. ففي القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري) وضع الحكام الكن نهاية لعظمة عشيرة المغول، تارة بمساعدة (قبائل) التتر من جانب، وتارة أخرى بوسائلهم الخاصة. فقد (أُسِرَ) قائدان كبيران من شيوخ المغول، (وأخذا بطريقة غادرة إلى الصين) وقتلا شر قتلة، وبكل قسوة في عاصمة الكن[1]. والآن وبعد أن أعاد جنكيز ـ خان وحدة عشيرة المغول، بل لقد جعلها حتى في مركز أكثر قوة (عما كانت عليه أيام أسلافه) ووضعها على رأس امبراطورية بدوية عظيمة، فقد أصبح من واجبه أن يثأر للضيم والأضرار (التي ألحقها حكام الكن بأسلافه). إذ أنهم كانوا هم الدّ الأعداء، وهم مدمروا (أسرته) ومضطهدوا رجال عشيرته. إذاً (وبعد أن حانت الفرصة) فلا بد أن يأخذ بثأره منهم، وينتقم لاسلافه انتقاماً شرساً. كان وعيه تجاه عشيرته وإدراكه لواجبه أمام قبيلته يؤشران إلى (٩٢) ذلك الاتجاه. كما كان لنظرة كهذه امتيازات كثيرة أيضاً في أنظار رجال أسرته الأقربين، وكذلك في أعين كافة أعضاء طبقة المغول الأرستقراطية. (إذ أن نظرته تلك وموقفه ذلك تجاه عشيرته ورجاله المغول) سيحولان ذاك الغزو الناهب داخل أراضي الصين إلى مشروع «مثالي» هائل. فهذه الاعتبارات «المثالية» لا بد أنها

---

(١) كان ذلك الزعيمان الكبيران المغوليان هما: قَبُول ـ خان، وانبگاي ـ خان. (المترجم إلى العربية).

(وبكل تأكيد) قد ألهبت حماساً رهيباً في جنود جنكيز ـ خان، الذين كانوا يدركون كل الإدراك، بأنهم يذهبون، على رأس حملة عسكرية هدفها فقط مجرد النهب والسلب، بل والـذهاب (إلى داخل حدود الأعداء) لتنفيذ العقوبة ضد أعداء امبراطورهم، وضد أعداء العشيرة المجيدة، تلك العشيرة التي وحـدت الآن كافـة «الأقوام الذين يسكنون في خيام اللبود».

ومع ذلك، فإن هذا لم يرض جنكيز ـ خان. فقد حاول أن يضيف إلى هذا (الحماس) نوعاً من التدين الكهنوتي. إذاً فلا بد أن تساعده السماء السرمدية الزرقاء، لأنها أحبت عشيرته، كما أنها كانت قد اختارته لذلك السبب عينه. فسوف تقود السماء جنوده ليثأروا للظلامات، والضيم الذي الحق برجال عشيرته؛ لأن هذه الاضرار (التي ألحقت بالعشيرة) أصبحت (بعد الآن، وبعد أن توحد المغول تحت قيادة زعيم عشيرة برجكين) ظلاماتهم الخاصة. بناءً على ذلك، فقد عمد، قبيل الشروع في السير على رأس تلك الحملة العسكرية (ضد الصين) إلى أن أغلق على نفسه بـاب خيمته، فظل قابعاً هناك وحده لمدة ثلاثة أيام في داخلها، كما كـان في نفس الوقت، جنـوده والنـاس المحيـطون (بـالخيمـة) يصرخون «تنگري ! تنگري! (أيتها السماء! أيتها السماء!)». وفي اليوم الرابع خرج عليهم من خيمته، وأعلن على رؤوس الاشهاد أن السماء السرمدية الوجود قد منحته النصر؛ والآن ما عليهم إلا الذهاب، فليسيروا وليعاقبوا (حكام) الكن.

(٩٣) كما سجلت بعض التقارير أن جنكيز ـ خان (قام أيضاً

قبيل الشروع في تسيير حملته تلك) وصعد تلاً (هناك) وخلع قبعته من على رأسه، وحل حزامه من خصره، وعلقه حول عنقه، وأخذ يتوجه بالدعاء إلى السماء الخالدة لكي تمنح العون له، وأن تبارك خطاه، وما نوى القيام به من الثأر للظلامات التي ألحقت بأجداده ورجال عشيرته، وأن ينتقم للقتلة الشنيعة التي ألحقت بـ : أنبگاي ـ خان.

في خلال الفترة التي كان يستعد، ويتهيأ في عدته وعتاده للحملة العسكرية تلك، استطاع جنكيز ـ خان أن يستفيد من فرصة أتيحت له ليطلع على معلومات دقيقة حول ما كانت عليه الأوضاع الداخلية في أراضي امبراطورية الكن، وعن تنظيمات كتائب جيوشها، وعن مواقع مراكزهم العسكرية الحصينة، وعن مخازن أسلحتهم فقد قام باعطائه تلك المعلومات لاجئون، كانوا قد هربوا من أراضي امبراطورية الكن، لأسباب تعود إلى عداوات وحزازات وطنية، أو لأسباب أخرى. كما قدم الانگوت المغول، الذين كانوا يعيشون إلى جانب السور العظيم، وعلى مقربة من عتبة الصين نفسها، له عوناً، وبرهنوا على تزويده بمعلومات مفيدة (فخدمته لعين ذلك الغرض). كما كان هناك شيء ما زال غاية في الأهمية، وهو التقارير التي جاءه بها التجار المسلمون، والذين كانوا على مستوى راقٍ من الثقافة والمعارف، وذوي تجارب ذات جوانب متعددة، فقد جاءت (معلوماتهم هذه في الوقت المناسب)؛ فوضعتهم في موضع خاص مبشر بالنجاح (والسبب الكامن وراء ذلك هو أن) تجارة كافة [المناطق الواقعة] بين الصين وآسيا

الوسطى كانت في أيديهم. فقد كانوا مطلعين اطلاعاً واسع النطاق على جميع الطرق (التجارية وغيرها)؛ كما كانوا يعرفون أوضاع كل ولاية يتعاملون مع أصحابها أثناء تبادل السلع التجارية، كما كان لديهم أعداد هائلة من المعارف والأصحاب، ولهم علاقات (تجارية) تربطهم بأغلب الأقاليم (الصينية) المختلفة.

لقد كانوا هم الناس الوحيدين تقريباً في أراضي منغوليا والصين، الذين كانت معرفتهم عن العالم غير (٩٤) مقتصرة على قطر واحد، ولكنها تمتد إلى كافة البقاع من فارس إلى الصين. كان جنكيز ـ خان قد تعرف على هذه الفصيلة من الرجال؛ كما عرف كيف يقدر أهميتهم وتسخير معرفته بهم لخدمة أغراضه الخاصة. ولقد جعل منهم نبراساً يسير على هداه الآخرون في كيفية أداء واجباتهم على خير ما يجب، فأشار في أوامره (تعليماته الخاصة إلى جنده) إلى التجار كأمثلة للرجال الذين يعرفون جيداً كيف يديرون أعمالهم. (حيث قال): «يجب على القادة العسكريين لجيشي أن يُعَلِّمُوا الصبيان كيف يطلقون السهام، وكيف يمتطون صهوات الجياد، وليظلوا على الدوام يمرنونهم على هذه الأعمال، ولينهجوا في ذلك نفس الطريقة التي يمارسها تجارنا الذين (يسافرون من مكان إلى آخر ومعهم القوافل التجارية) تحمل الأقمشة المطرزة وبضائع أخرى من الأشياء الطيبة على أمل الحصول على ربح، حيث أصبحوا ذوي مهارات فائقة جداً، وذوي خبرات طويلة في معرفة تلك البضائع والمصنوعات؛ وأن يجعلوهم جسورين وشجعاناً على نفس المستوى الذي يتمتع به

التجار في أدائهم لأعمالهم التجارية، من حيث خبراتهم في حسن تدبيرهم لتلك المهارات التي يملكونها». هذا من جانب، ومن جانب ثانٍ، فإن التجار أصبحوا مع مرور الزمن على يقين من أمرهم من أن جنكيز ـ خان لم يكن فقط حاكماً عادلاً وكريماً سخياً، ولكنهم اكتشفوا بأن مصالحهم كانت متطابقة وتسير متماثلة تماماً مع منافعه الشخصية.

لقد رأى التجار أن التدابير والترتيبات التي تستخدم لإدارة دولته أصبحت تزداد صرامة، والدولة أكثر ثباتاً؛ (وكنتيجة لذلك) فقد جاءت العلاقات والتبادل التجاريين بين الأقطار المتباعدة المسافات أكثر سهولة ويسراً (بسبب الأمن وسلامة الطرق والسفر داخل هاتيك البقاع)؛ فازدادت الأرباح في الأعمال التجارية، وفي ذات الوقت نفسه نجد أنه كان ينظر إليهم على أنهم رجال لا يمكنه الاستغناء عنهم، فهم الذين يستطيعون أن يدبروا مسألة أمر الحصول على البضائع والسلع والحاجيات (الأخرى) التي تنتجها الأقطار المتحضرة، وتزويد امبراطوريته بهذه المتطلبات ـ بحيث أصبح الطلب والحاجة إلى هذه السلع في ازدياد مضطرد، خاصة منذ أصبح أعضاء الطبقة الأرستقراطية في السهوب (٩٥) هم الفئة الحاكمة لامبراطورية عظيمة. رسخ التفاهم المشترك والحلف المتبادل (الذي عقد بين) جنكيز ـ خان وطبقة المغول الأرستقراطية وطبقة الشامانات، رغم أنهم ظلوا مستمرين (على ما كانوا عليه، من ناحية مكانتهم في المجتمع المغولي) من جهة، وبين التجار المسلمين الرأسماليين (من الجهة الثانية)؛ وقد جعل من الأخيرين

مساندين وأنصار القضية المغولية.

على الرغم مما كانت تبدو عليه امبراطورية الكن من أوضاع متدهورة، وان الدولة كانت آخذة في الانحدار (وخاصة) منذ بداية القرن الثالث عشر (الميلادي / السابع الهجري)، إلا أنها لم تكن بأي حال من الأحوال عبارة عن تمثال ضخم يقف على أقدام من الطين. فقد أثبتت قدرتها على أنها كانت ما تزال دولة قوية، وذلك عندما ردعت عادية كان خصومها قد قاموا بهجوم على ممتلكاتها في وقت ليس بالبعيد، فأعطت برهاناً على نشاطها وقدرتها (من الناحيتين العسكرية والإدارية). (وهذه الحقيقة لم تكن لتغيب عن بال) جنكيز ـ خان، الذي كان على علم تام بأنه كان يهاجم عدواً قوياً، وانه يملك تحت يديه عدداً هائلاً من المدن والمعاقل المحصنة، والتي أصبحت مزودة تزويداً جيداً، بما تحتاجه من مؤن وعتاد حربيين، وأنها محاطة بأسوار طويلة وسميكة.

بدأ حملته العسكرية (من قلب منغوليا، ومتجهاً ناحية الجنوب) مغادراً ضفاف نهر كِرُولِن في فصل ربيع سنة ١٢١١ (م / ٦٠٧ هـ مصحوباً بأبنائه الأربعة جوتشي، وتشغتاي، وأوكتاي، وتولوي، ومعه أيضاً أفضل قادته العسكريين جميعهم. ولكي يقوم بحماية مؤخرة (جيشه وخطوط مواصلاته من الخلف) وليضمن سلامة مضارب خيامه في أرض الوطن، فقد ترك كتيبة عسكرية صغيرة وراءهم في منغوليا (للقيام بهذه المهمة). عرف حكام امبراطورية الكن بالغزو المنتظر ضد أراضيهم، ولذلك استعدوا له، واتخذوا كافة الاحتياطات اللازمة للدفاع عنها، وقد

يكون (من ضمن تلك الاجراءات) أنهم قد خططوا القيام بهجوم (معاكس) يوجهونه إلى قلب (منطقة) جوبي المغولية؛ ولكن، وكما أثبتت مجريات الأحداث، كانت استعداداتهم غير كافية (للدفاع عن أراضيهم، ناهيك عن مشروع للقيام بهجوم معاكس، كما كان مخططاً). فعلى الرغم من أن جيوشهم (٩٦) كانت تفوق في أعدادها الهائلة (ما كان يملكه المغول الغزاة) إلا أنها أثبتت بأنها كانت (من حيث الكفاءة والقدرة والصبر والقتاليين) لا تقف موقف الند مع قوات جنكيز ـ خان. وفوق ذلك كله، فإن جيش الكن كانت تنقصه وحدة التجانس (من حيث مصادر تكوين أفراد جنده وقادته العسكريين)، إذ أنه كان يتكون من رجال ينتمون إلى أجناس ثلاثة، مختلفة [الأصول، والمشارب، والأهواء] من الصينيين (الأهليين)، ومن الجرجيين، ومن الكئيتانيين[١]، وهؤلاء الأخيرون ينتمون إلى أقوام من البدو الذين حكموا أراضي الصين الشمالية قبل أن يأتي الكنز[٢].

بعد أن عبر جنكيز ـ خان منطقة الحدود (الصينية الشمالية مع حدود المغول الجنوبية) مباشرة، تقابل مع قائد الكن العسكري تا ـ شي ، وهزمه، الأمر الذي ترتب على ذلك النصر أن أصبح جنكيز

---

(١) من الأقوام المنشورية والخطائيين، الذين يرجعون في أصولهم إلى الأقوام التي سكنت منشوريا، انظر الحاشية التالية (المترجم إلى العربية).

(٢) حكمت أسرة ليو، التي تنتمي إلى أصل خطائي، الصين من سنة ٩١٦ (م / ٣٠٣ ـ ٣٠٤ هـ) حتى سنة ١١٢٥ (م / ٥١٩ هـ). خيطاي هي الصيغة التركية للاسم كئيتان، وهذا هو السبب لوجود اسم كاثاي، وهذا الاسم ما يزال هو الاسم الروسي الذي يطلقونه على الصين (المترجم إلى الانجليزية).

المسيطر على الأراضي الواقعة في داخل السور العظيم، والتي كانت جزءً من أراضي امبراطورية الكن. أما قائده العسكري، جِبِهْ ـ نويان، فقد أرسل إلى الأمام، ومعه كتائب جيشه، ففي وقت وجيز استطاع أن يحتل جميع القلاع الحصينة التي كانت تحمي مدينة تاي ـ تئونگ Tai - T'ung [1]، وهي العاصمة الغربية لامبراطورية الكن. أما هذه العاصمة نفسها، فقد احتلها جنكيز ـ خان شخصياً بعد ذلك بقليل، كما أخذ معها مدِينتي سون ـ ته ـ فو[2] Suen - te - fu. كما كان جنكيز ـ خان قد أرسل في الوقت نفسه كتائب منفصلة من قواته، بقيادة أبنائه الثلاثة الكبار[3]، ليقوموا بفتح المدن والمقاطعات الواقعة في شانسي الشمالية. وقد أبلى الأمراء الصغار أنفسهم بلاءً حسناً لأداء هذا الواجب، الأمر الذي كلل عملهم ذلك بنجاح منقطع النظير. أما جنكيز ـ خان فقد سار شخصياً على رأس جيشه، وهزم (جيوش) الكن مرتين أخريين. أما القلعة (٩٧) التي كانت تحمي تسو ـ يون ـ كوان، ذلك الممر الجبلي المشهور، والتي تقع عليه الطريق التي تسير من منغوليا إلى داخل سهل بيكينگ فقد استولى عليه (القائد الكبير) جِبِهْ ـ نويان. ظهر المغول، وأحاطوا بأسوار العاصمة الوسطى (لامبراطورية) الكن، تلك المدينة التي تعرف في الوقت

---

(١) وهي التي تقع في سان ـ شي الشمالية (المترجم إلى الانجليزية).

(٢) وهي التي تقع في تشه ـ لي الشمالية (المترجم إلى الانجليزية).

(٣) وهم: جوتشي، وتشغتاي، واگتاي. (المترجم إلى العربية).

الحاضر بـ بيبينگ Peiping (بكينگ)[1]. وهناك أرسلت فصائل من كتائب القوات المغولية الرئيسية، فاستطاعت أن تحتل عدداً كبيراً من المدن الواقعة إلى الشمال من بيكينگ حتى وصلت البحر (الأصفر). وبعد أن جاء فصل الشتاء، وحل بساحتهم، استطاعت أن تحوز على قطعان خيول أباطرة الكن.

في سنة ١٢١٢ (م / ٦٠٨ هـ) قام الكئيتانيون، الذين يقطنون منشورياً الجنوبية، بثورة عارمة ضد (الامبراطورية الحاكمة) الكن، وأعلن قائدهم الثوري، اعترافه الشخصي بأنه مَقْطَعٌ يتبع في ولائه جنكيز ـ خان، وحصل منه على مساعدة ضد الكن[2]. كما استمرت قوات المغول الرئيسية في مواصلة عملياتها العسكرية الغازية (تقتل، وتسلب وتنهب) داخل مناطق تشيه ـ لي، مكبدة جحافل الكن العسكرية هزائم فادحة في مواقع عديدة، رغم تفوقها في أعدادها الهائلة، ومعداتها العسكرية؛ كما قام جنكيز ـ خان أيضاً بتنظيم استعراضات عسكرية، بحيث تجعل جيشه يتظاهر تارة بأنه يتقدم وتارة أخرى يوهم الأعداء بأنه يتقهقر، بعد ذلك قسم جيشه إلى أجزاء ثلاثة (رئيسية): فكان أحدها تحت قيادة الأمراء (الثلاثة الكبار) جوتشي، وتشغتاي، وأوگتاي، وصدرت إليهم

---

(١) وهي مدينة بكين المعروفة، والتي كان يطلق عليها المؤرخون المسلمون، مدينة الخان، أي خان ـ باليغ (المترجم إلى العربية).

(٢) هو الأمير ليوم ـ شيوانگ، حسب رواية رشيد الدين، جامع التواريخ، ج ١ / ص : ٣٣١، ويسميه سي سي. ووكر، جنكيز ـ خان، لندن، ١٩٣٩م، ص : ٥٠ (ياي لوليوكو ـ Yaylu Liuko (المترجم إلى العربية).

الأوامر بأن يسيروا ضد شان ـ سي؛ كما أرسلت القوة الثانية باتجاه الشرق إلى داخل الأراضي المحاذية للبحر الأصفر؛ أما القسم الثالث فقد قام جنكيز ـ خان نفسه بالسير على رأس قواته، وتوجه يقودها داخل (أراضي) شان ـ تونـگ Shan - Tung.

حالف النجاح العظيم كافة الأقسام (الثلاثة) هذه في جميع عملياتها؛ وفي خلال أشهر قلائل سقطت، تقريباً، جميع أراضي الكنز (٩٨) الواقعة إلى الشمال من (نهر)هوانـگ هو Hwang - Ho وأصبحت في أيديهم. ولم يبق سوى ما يقارب من أثنتي عشرة مدينة محصنة تحصيناً قوياً؛ والتي تشمل فيما بينها العاصمة الوسطى بكينـگ، هي التي نجت من المصير الأسود المحتوم (في الوقت الحاضر على الأقل). إلا أن هيبة جنكيز ـ خان وعظمة مغوله أضحت مهيبة جداً، لدرجة جعلت ليس فقط رؤساء وموظفي الكئيتانيين الرسميين ينحازون إلى جانبه، بل وحتى نظرائهم من الجرجيين يتحولون إلى جانب القوم الغزاة. فقد اكتشفوا بأن ذلك الغزو لم يكن على الاطلاق مجرد غارة عادية، قامت بها فئة من البدو شبه متوحشين؛ كما لم تكن جيوشه عبارة عن قوم من فرسان السهوب، الغوغاء والفوضويين؛ فبدأوا يرون فيه سيد الصين المستقبل، مقدر له بأن يطوح بسلالة الكنز، وينشيء أسرة حاكمة جديدة. لم يضع جنكيز ـ خان وقتاً طويلاً في الاستفادة من موقفهم ذلك، فبدأ يجند كتائب عسكرية من بين صفوف الصينين. ولقد استخدمت تلك القوات الجديدة لتعمل تحت قيادة وتوجيهات قادة مغوليين عسكريين؛ أما قيادة تلك

الوحدات المباشرة فقد أوكلت مهمتها إلى ضباط صينيين من بينهم.

في أوائل سنة ١٢١٤ (م / في الأشهر الأخيرة من عام ٦١٠ هـ) اتحدت كافة القوات المغولية وأحاطت بأسوار مدينة بكينگ؛وتمركزت إلى الجهة الشمالية من المدينة، وهم محملون بغنائم وأسلاب هائلة. ومع ذلك، فإنهم لم يقوموا بأية محاولة للقيام بأي هجوم ضد عاصمة الكن، فقد عرف جنكيز ـ خان معرفة جيدة مدى الصعوبة التي تكمن وراء أخذ مدينة محصنة تحصيناً قوياً (مثل بكين)، ومزودة بكل شيء ضروري لحاجة الحصار، كما كان يقوم بالدفاع عنها حامية عسكرية منتقاة من أحسن كتائب الامبراطورية العسكرية. لم يسمح لنفسه لأن تنجر وراء ذلك الطعم الكامن في اقتحام المدينة، وهو ما ينتج عنه من توقعات باهرة (غنائم وأسلاب وشهرة ومجد تليد لا يحد) من جراء احتلال عاصمة الامبراطورية «الذهبية» الشهيرة، ومعها امبراطورها . فقد شاهد ماثلاً أمام عينيه كل المخاطر التي تحف بتنفيذ ذلك المشروع، لأنه كانت (هناك حقيقة لا بد أن يحسب لها ألف حساب وحساب) وهي أن الأمر الذي يبدو (٩٩) أكثر أهمية مباشرة في الوقت الحاضر هو تأمين نقل ما كان المغول قد حازوه، من غنائم وأسلاب هائلة، إلى (موطنهم في) منغوليا.

لذلك، فقد تقدم بمشروع سلام إلى الكنز، على شرط أن يقدم امبراطورهم ابنته (لتكون زوجة له)، ومعها مهر ثمين إلى الخان المغولي. قبل الكنز الخضوع لذلك المطلب فأعطى

الامبراطور جنكيـز ـ خان ابنـة له متبنـاة، وهي الابنة الصغـرى (لامبراطور الصين) السابق، ومعها صداق كبير، مكون من كميات وفيرة من الذهب، والفضـة، ومن خمسمائـة غلام، وخمسمـائة جارية، وثـلاثة آلاف فـرس. بعد ذلـك استأنف جنكيـز ـ خان انسحابه بجيشه.

إلا أنه على الرغم من ذلك، فإنه سرعان ما بدأت العلاقات العدائية مرة أخرى من جديد قبل مضي وقت طويل، وربما كانت قد رجعت في وقت أسرع مما كان يرغبه الكنـز، الذين كـانوا يتلهفون للاستفادة من هذه الهدنة حتى يتسنى لهم استعادة القلاع (والأماكن) المحصنة، التي كان المغول قد دمروها، ولكي يقيموا مكانها قلاعاً أخرى جديدة. كانت المناسبة التي عادت فيها تلك العلاقات العدائية بينهما كما يلي: كان جنكيز قـد أرسل بعثـة سياسية إلى أباطرة سُنْـگ، الذين كـانوا يحكمـون في (أراضي) الصين الجنوبية، ليقدم لهم مشروعاً للتحالف (العسكري بينهما ضد حكام أراضي الصين الشمالية من الكن) إلا أن الكنز اعترضوا فيما بينهما بشدة، وقاوموا هذا المشروع بكل ضراوة. وفي ذات الوقت جاءت أنباء مفادها أن امبراطور الكن قد هجر بكينـگ، تاركاً هناك وراءه ولي عرشه؛ ونقل مقر سكناه إلى مدينة بين ـ Pien (وهي المدينة الحالية كثاي ـ فنـگ K'ai - Feng وهي العاصمة لـ : هو ـ نان، (حيث تقع) بعيدة عن الحدود. إلا أنه، ابان عملية هجرة البلاط الامبراطوري الهاربة هذه (١٠٠)، تمرد جـزء من القوات العسكرية التي كانت مصاحبة (للامبراطور)، والتي كانت

تتكون من وحدات من كتائب الكئيتان، ورجعوا سائرين باتجاه بكينـگ،فأرسلوا إلى جنكيز ـ خان معبرين له عن ولائهم، ويطلبون منه مد يد العون لهم. وفي الحال قام جنكيز ـ خان بارسال جيوشه ضد الكنز (وهناك نجد أن) جِبهْ ـ نويان يأخذ مرة أخرى ممر تسو ـ بون ـ كوان، كما قام (في نفس الوقت القائد العظيم) موكلي بغزو منشـوريا الجنـوبية، بينمـا قام قـادة عسكريـون آخرون، ومعهم الجرجيون والكئيتـانيون، الـذين كانـوا قد انحـازوا إلى القوات المغولية، بالسير باتجاه العاصمة الوسطى،بكينـگ ، ووضعوهـا تحت الحصار. منيت القوات العسكرية، التي أرسلها امبراطور الكن لنجـدة (وتخفيف الضغط الواقـع على بكين من القـوات المحاصرة لهـا) بهزيمـة ساحقـة على أيدي القـوات المغوليـة، فاستسلمت بكينـگ (في أيدي المغول) في صيف عام ١٢١٥ (م / في الشهور الأولى من سنة ٦١٢ هـ).

كان جنكيز ـ خان في ذلك الوقت مقيماً في الاقليم الواقع فيما وراء السور العظيم، حيث كان قد انسحب إلى هناك ليفلت من حرارة الصيف، ومن هناك أيضاً أصبح يستطيع أدارة كـافة العمليات (التي كانت تخوضها كتائب قواته العسكرية المختلفة) ضد العدو. عندما جاءته الأنباء تفيد بسقوط بكينـگ أرسل (جنكيز ـ خان في الحال) شيكي ـ كوتاكو، ومعه اثنان من رجال بلاطه، وذلك ليقوموا بعمل احصائية، وتقدير للغنائم والأسلاب التي حصل (عليها المغول من جراء سقوط عاصمة الامبراطورية الوسطى في الصين الشمالية)، وليتسلموا خزينة الكنز الامبراطورية على وجه

الخصوص. وقد قام موظف الكنز الذي كان مسؤولاً وأميناً للخزانة الأمبراطورية، بتقديم هدايا ثمينة وقيمة لأعضاء بعثة الخان، إلا أن شيكي ـ كوتاكو رفض الهدايا (قائلاً) هذه الكلمات: «كانت أنواع الأقمشة والذهب الموجود في العاصمة الوسطى تخص امبراطور الكن، أما الآن (١٠١) فقد أصبح كل ذلك ملكاً لجنكيز ـ خاقان، كيف (يحق لأي إنسان) أن يلمسها دون أخذ الأذن بذلك منه (يعني من جنكيز خان)؟» ومع ذلك، فإن الرجلين الآخرين، وهما نائباً شيكي ـ كوتاكو، قد قبلا الهدايا. وقد أنّب جنكيز ـ خان، عندما أخبر بهذه الحادثة، ذلك الرجلين تأنيباً قاسياً، لأنهما قبلا الهدايا؛ كما كافأ (في نفس الوقت) شيكي ـ كوتاكو، (وقال مخاطباً إياه): «ستكون عينيّ وأذنيّ». لقد كان جنكيز دائماً أشد ما يكون غيوراً على كل ما هو ملكاً خاصاً يعتبره من حقوقه الشرعية، كما كان يقدر تقديراً عالياً تصرفات مثل تلك التي قام بها شيكي ـ كوتاكو.

بعد أن سقطت بكينگ، أرسل جنكيز كتيبة عسكرية من جيشه لتقوم بتنفيذ هجوم على بين ـ Pein العاصمة الجنوبية لامبراطورية الكنز، حيث كان امبراطورهم قد انسحب (هارباً من وجه المغول الذين كانوا محاصرين لعاصمته الوسطى). لم يظهر أن هدفه كان وضع نهاية لدولة الكنز، عن طريق احتلال تلك المدينة، (وذلك من استقراء وتتبع مجريات الأحداث العسكرية في هذا الخصوص). إذ أنه كان على علم راسخ بأن تلك المسألة كانت (تحتاج إلى وقت أطول) وأن ذلك سينفذ في المستقبل؛ كما أنه

رأى بأن ذلك جهدٌ يحتاج إلى سنوات طويلة من الصراع المرير. ولقد تعمقت تلك الكتيبة العسكرية المغولية إلى الأعماق من أراضي مقاطعة هو ـ نان ـ Ho - Nan ، إذ واصلت زحفها حتى وصلت العاصمة الجنوبية، واحتلت تلك القلعة الحصينة الهامة تئونگ ـ كوان T'ung - Kwan . في هذا الوقت أصبح بلاط (امبراطور الكنز) قد أفقدته تلك الحادثة (حادثة احتلال القلعة الحصينة) كل شجاعة لمقاومة الغزو، فتقدم إلى جنكيز باقتراحات للسلام. كانت الإجابة التي أعادها الأخير قد تبين فيها بشكل واضح بأنه لم يعد مقتنعاً بمسألة الحصول على غنائم وأسلاب هائلة، وحملها معه، بل رغب أن ينال قدماً راسخة في ذلك القطر، الذي فتحه. وهنا طلب من امبراطور (١٠٢) الكنز بأنه لا بد أن يتخلى عن جميع المقاطعات التي تقع إلى الشمال من هوانگ ـ هو، وأن يتنازل عن لقب الامبراطور، وأن يصبح من الآن فصاعداً معروفاً بلقب وسط، أقل مكانة من لقب الامبراطور، وأن يقبل أن يلقب بـ ملك هو ـ نان. إلا أن الكنز وجدوا من المستحيل عليهم أن يقبلوا هذه الطلبات؛ لذلك فقد استمرت العداوة (بين الدولتين على أشد ما تكون). إذ أن الهجمات العسكرية من قبل المغول استمرت على قدم وساق في أنحاء متفرقة من الأراضي الصينية (الشمالية) تحت قيادة ضباط جنكيز ـ خان العسكريين، وعلى وجه الخصوص (قائده العظيم) موكلي، الذي عين حديثاً حاكماً، ونائب الخان، على الأراضي الجديدة التي فتحت (خلال السنوات الخمس الماضية، ٦٠٧ ـ ٦١٢ هـ / ١٢١١ ـ ١٢١٥ م)، محتفظاً في ذات الوقت بوظيفة القائد العام

للجناح الأيسر في جيش المغول، بينما عاد جنكيز ـ خان إلى خيامه على ضفاف (نهر) كِرُولِنْ، وذلك في ربيع سنة ١٢١٦ (م / خلال الأشهر الأولى من عام ٦١٣ هـ) [١].

(١) لمعلومات تفصيلية عن غزو المغول بقيادة جنكيز ـ خان ضد أراضي الصين، انظر المراجع التي وردت في الحاشية رقم: ١ ، في ص : ٧٨، من كتابنا «سقوط الدولة العباسية» (المترجم إلى العربية).

ـ ١٠ ـ

«جنكيز ـ خان في الصين»

«مقابلته مع يليو ـ تشئو تسئاي»

(١٠٣) كانت السرعة المذهلة التي سارت عليها، وأديرت بها، تلك العمليات العسكرية (المغولية ضد أراضي الكنز في الصين الشمالية) على ذلك النطاق الواسع، قد أظهرت بجلاء كامل، ووضوح ساطع (ما كان يتمتع به) جنكيز ـ خان من ذكاء خارق، ومواهب عالية (في كافة الميادين الادارية والعسكرية المختلفة). فلقد أثبتت (تلك العمليات العسكرية خاصة) على أنه لم يكن مجرد رجل مجرب، وماهر، وذا خبرات كبيرة، وبارعاً في الخطط التكتيكية العسكرية، أو الذي يتمتع بكافة المؤهلات الضرورية الهامة لادارة جيش في أية معركة كانت، بل لقد كان رجلاً مخططاً، وعسكرياً رائعاً، في مقدرته أن يناسق بين، وأن ينظم (بكل حنكة ودراية) عمليات الجيوش العسكرية في ساحات القتال الواسعة الإنتشار. كانت معرفته الفائقة لمعدن الرجال (وكيفية تعامله معهم) قد أميط اللثام عنها مرة أخرى من خلال تعامله مع قادة العدو العسكريين الذين (تركوا مراكزهم في صفوف قواتهم الصينية) انحازوا إليه،

بحيث عرف كيف يستفيد منهم بمهارة فائقة، مخصصاً لكل واحد منهم واجباته التي تتلاءم مع طاقاتهم وإمكانياتهم (العسكرية). كما أن عبقريته، بالنسبة للناحية التنظيمية، وجدت لها صدى في السرعة (المذهلة) التي تم بها تكوين وحدات وكتائب عسكرية كاملة، جندت من بين صفوف الصينيين (والجنود الذين تمردوا على السلطة المحلية السابقة، وانحازوا إلى المغول) من الجرجيين والكئيتانيين. فلقد عمم نظام الجيش المغولي الصارم على هذه الوحدات التشكيلية العسكرية الجديدة، الأمر الذي أدى بشكل كبير إلى (١٠٤) ان زادت (عمليات) الاستفادة منهم، بحيث مكنت القيادة المغولية أن تستخدم الوحدات العسكرية المغولية البحتة بصورة أكثر توفيراً.

لقد أتهم جنكيز ـ خان بإرتكاب أعمال وحشية بشعة في خلال فترة العمليات العسكرية الصينية، وذلك مثل المذبحة التي ارتكبت في حق الآلاف من المساجين (الأسرى من الصينيين) والمذابح (العظيمة) التي ارتكبت ضد السكان في كافة المدن والمقاطعات (في داخل الأراضي الصينية التي قدر لها أن تقع تحت ثقل وطأة الغزو المغولي المدمر العاصف). إلا أن المؤرخين الشديدي الحذر، والأكثر وعياً، أصبحوا الآن مقتنعين أن كل هذه الأقاصيص، عن قسوة جنكيز ومغوله، لا تمت إلى الحقيقة التاريخية بأية صلة. فمسألة حبه المتعطش لسفك الدماء تقف متناقضة مع أشياء أخرى كثيرة، وذلك من خلال حقيقة (واحدة) وهي أن عدداً كبيراً جداً من الكئيتانيين، والجرجيين، ومن الصينيين (أنفسهم وخاصة) الرجال العسكريين العاديين، وكذلك القادة الكبار منهم، والموظفين الرسميين الكبار،

الذين قد انحازوا جميعهم إلى جانبه، استقبلوا استقبالاً جيداً، كما وجدوا من الممكن تعيينهم للقيام بخدمات تحت إدارته. إلا أنه مع ذلك، نجد أن هذا الموقف (الذي اتخذه جنكيز ـ خان) تجاه شعب قطر معاد لم يمنع جنيكز ـ خان، عندما تقضي الحاجة بذلك، من إصدار أوامره (لجنده بأن يقوموا بارتكاب) مذبحة ضد بعض المدن الصينية التي أظهرت بشكل خاص مقاومة فعالة وعنيدة، أو أنها أبدت تصرفاً بطريقة غادرة في تعاملها تجاه المغول، هذا إذا كان هو قد أعتبر هذه كضرورة تمليها القوانين والأعراف الحربية. ولكنه لم يكن على الإطلاق، وحشياً أو متعطشاً لسفك الدماء بشكل مفرط، أو بدافع اللامبالاة.

كان من بين الرجال الذين قدموا إلى جنكيز ـ خان، بعد أن تم احتلال بكينگ، يليو تشئو تسئاي Yeliu Ch'uts'ai، (١٠٥) سليل من الأسرة الحاكمة السابقة كئيتان. كان رجلاً صينياً حقيقياً، من حيث ثقافته وأفكاره؛ إذ لم يكن يليو ـ تشئو تسئاي رجلاً مثقفاً ثقافة راقية فحسب بل كان مؤلف شعر، وفناناً مرهفاً بشكل راقٍ. لقد أحب جنكيز ـ خان فيه مظهره، وقوامه الطويل، ولحيته الطويلة، وصوته الجهوري الطنان، (وعندما) قال له: «لقد كان كل من البيتين الحاكمين، بيت الكئيتان وبيت الكن دائما أعداء. والآن انتقمت منكم». أجابه يليو ـ تشئو تسئاي (قائلاً): ــ «كان جدي، وكان أبي وكنت أنا مواطنين وخداماً في دولة الكنز. وإذا قلت لك بأنني أكنّ شعوراً عدائياً تجاه أبي وسيدي، فإنني أكون بذلك كاذباً خسيساً (وجديراً بالإزدراء)». إن إجابة كهذه لم تخفق في أرضاء

جنكيز ـ خان، الذي كانت وجهات نظره تجاه إخلاص الاتباع والمقطعين والخدام لسيدهم قد وضحت الآن، حتى وإن كان أولئك من أعدائه. استبقى (جنكيز ـ خان) تشئو تسئاي في بلاطه. كما كان السبب الثاني الذي جعله يقدم على عمل ذلك هو أن الأخير كان ذا شهرة واسعة كرجل منجم. فقد رأى جنكيز فيه رجلاً ذا معرفة ستعود بالفائدة له شخصياً ولامبراطوريته. إذ أن هذا النوع من الذكاء الفطري كان نموذجاً لسجيته ونظرته تجاه الحضارات الأكثر رقياً. فعلى الرغم من أنه ظل رجلاً من رجال السهوب غير المثقفين،ولم يكن لديه أية فكرة عن العلم أو ما يتعلق بأشكال الفن الراقي، فقد كان يعامل الرجال المتعلمين دائمًا بأحسن الطرق وأفضل المعاملات، لكونه متشوقاً لأن يستخدم مواهبهم ومعارفهم الفائقة لخدمة أغراضه الفطرية الخاصة بشكل أكثر. (١٠٦) كان (جنكيز ـ خان) في تعامله، وفي علاقاته مع الأجانب، دائمًا وأبداً يبرهن على موهبته الفطرية المذهلة، في طريقة فهم الرجل، من خلال النظرة الأولى، وفي حينها يقوم بالإختيار الصحيح. (كانت هذه الناحية) متمثلة في (تعامله) مع يليو تشئو تسئاي، إذ قبله ليكون (أحد رجال) بلاطه؛ لأنه كان مثقفاً بارعاً في علم النجوم، ثم في نهاية الأمر كان رجل الدولة الإداري البارز في بلاط الامبراطورية المغولية.

ـ ١١ ـ

«من حملة الكن العسكرية إلى الغزو الغربي»

(١٠٧) عاد جنكيز ـ خان من حملته العسكرية ضد الكنز (في أراضي الصين الشمالية) وهو يحمل غنائم وأسلاباً هائلة، تتكون بصورة رئيسية من أنواع مختلفة من الذهب والفضة؛ ومن الأقمشة، وخاصة تلك المصنوعة من الحرير؛ ومن حيوانات من ذوات حمل الأثقال؛ ومن العبيد؛ وكذلك من أناس من كافة أصحاب الحرف والفنانين، حيث اعتبروا جزء لا يتجزأ من الغنائم. وبطبيعة الحال، لم تذهب هذه الثروة، التي لا تحصى إلى جنكيز ـ خان وحده، إلا أنه احتفظ بالقسم الأفضل منها (لنفسه وذويه)؛ أما البقية منها فقد أعطيت لرفاقه، ولقادته العسكريين، قادة المئات، وقادة الآلاف، وقادة العشرة آلاف؛ كما أن الرجال العسكريين العاديين لم يعودوا صفر اليدين، أو بدون أن يعطوا نصيبهم (من تلك الأسلاب التي جنوها من أراضي الصين). لذلك نجد أنه من هذا الوقت فصاعداً أصبحت الحياة المترفة، وما يملكه الأفراد، من الأشياء الجميلة، ثم تلك الحشود من القوافل التجارية الصينية (التي تحمل بضائع من الإنتاج المحلي)، وكذلك رجال الصناعة والحرف

الفنية الأخرى من كل ضرب من ضروب الحياة، فكل ذلك أصبح من المميزات الضرورية في داخل الخيام ومعسكرات جنكيز ـ خان (أي في داخل المجتمع المغولي الجديد). لقد أصاب الذهولُ الرحالةَ الصيني، الذي زار مخيمات ومقر سكناه (يعني جنكيز ـ خان) عندما شاهد ما كانت عليه خيامه وعرباته (ذوات العجلات) من روعة وجمال؛ إذ أن هذه الأشياء تؤكد (١٠٨) على أن مثل هذه الفخامة لم تكن قد شوهدت حتى في بلاط هيونـگ ـ نو - Hiung - Nu[1]. ومع هذا، فإن جنكيز لم يكن يضمر فكرة لإدخال التشريفات البلاطية والرسميات إلى دولته على الإطلاق؛ إذ أنه كان يحافظ على العادات والتقاليد القديمة المتبعة في السهوب، متمثلة في الحياة الرتيبة اليومية التي تجري في مقر مخيمه، بدون أخذ أو استعارة أي شيء (من هذا القبيل) من الصينيين. وقد جاء تقرير غريب عن كيفية استقباله لسفير (حكام امبراطورية) سُنْـگ (في الجنوب من الأراضي الصينية) إذ حفظ (لنا التقرير) الذي ورد في المباديء العامة الصينية مُنْـگ ـ هُونـگ ـ Mong - Hong. «أرسل الامبراطور (يعني جنكيز ـ خان) في مناسبة ما ليطلب السفير (سفير امبراطور سُنْـگ)؛ وعندما جاء الأخير إليه خاطبه قائلاً: كنا نقوم بلعب الكرة في هذا اليوم؛ فلماذا لم تأت؟. فأجاب الأخير (السفير) بأنه لم يكن قد دعي لحضور (تلك المناسبة)، ولذلك فإنه لم يجرؤ على المجيء. وهنا رد

---

(١) هم الشعب البدوي الذي سكن منغوليا في القرون الأخيرة قبل الميلاد، وربما يكون ذلك هو الإسم المطابق للهون ـ Huns في التاريخ الأوروبي (المترجم من الروسية إلى الإنجليزية).

عليه الامبراطور: ـ من اللحظة التي قدمت فيها إلى امبراطوريتي، أصبحت كواحد من بين أعضاء أسرتي، فلا بد أن تأتي في كل وقت نقوم بإجراء مناسبة للفرح والبهجة أو يكون لدينا حفلة، أو لعبة للكرة، أو القيام بصيد أو مطاردة، فلماذا تنتظر (حتى تأتيك) الدعوة؟. وإنفجر (الخان) في الضحك، وفرض على السفير جزاءً؛ وذلك بأن طلبه أن يشرب ست كأسات (من المشروب الكحولي) ولم يتركه يذهب إلا بعد أن جنّ الليل، وبعد أن أمسى الأخير (السفير) في غاية السكر...، وعندما غادر السفير (المكان) أصدر الامبراطور تعليمات إلى أعضاء بعثته بأن يستبقوه لعدة أيام في كل مدينة طيبة (يأتي إليها)، وذلك ليقدموا له (١٠٩) أحسن أنواع المشروب الكحولي، والشاي، والطعام، وأن يجلبوا له أحسن غلمان الموسيقى ليعزفون له آلة الفلوت (الموسيقية) وأن (يجلبوا له أيضاً) أكثر الفتيات جمالاً ليعزفن له على آلة العود (الموسيقية)».

لم يكن جنكيز ـ خان، على وجه العموم، قد أضلته مداهنات وزخارف الحضارة الصينية وبهرجها. على الرغم من أنه ظل يتنقل في أراضي الصين (بين مختلف ولاياتها الشمالية يصول ويجول) خلال فترة حروبه العسكرية ضد (جيوش امبراطورية) الكن، والتي أعطته معرفة أولية وافية عن حضارتها (طوال خمس سنوات من الحروب الطاحنة)؛ فقد ظل يواصل تفضيله وتشجيعه للثقافة الأويغورية، والتي اعتبرها أفضل (من غيرها، كما أمر بأن) تتبنى على اعتبار أنها أكثر إيجابية لتفي بحاجات المغول. وفي حقيقة الأمر، فقد كان الأويغوريون أكثر الأمم والشعوب المتحضرة، التي قدر للمغول أن

يحتكوا بهم في خلال القرن الثاني عشر (الميلادي / السادس الهجري)، قرباً اليهم في كل ناحية؛ إذ أنهم كانوا ما يزالون (آنذاك) محتفظين بالعديد من العادات والتقاليد والأفكار البدوية، الأمر الذي جعلهم عملياً متماثلين مع المغول.

كانت جميع (الديانات) المسيحية، والمانوية، والبوذية، والإسلام، ممثلة بين الشعب الأويغوري، ولكنه لم يكن يوجد هناك صراعات دينية أو تعصبية فيما بين تلك الفئات الدينية. فقد كانت الاعتبارات الوطنية دوماً هي صاحبة الغلبة والهيمنة؛ حيث وقفت فوق النواحي الدينية. أما بالنسبة لجنكيز، فقد ظل على موقفه لم يتغير، إذ كان يرى كافة الأديان من منظار واحد (ويحظى كل دين منه) بعطف كغيره من الأديان الأخرى، رغم أنه نفسه بقي رجلاً من أتباع الشامانية المخلصين، وهذا الشيء عينه ينطبق على تقاليد قومه. كما أن حملته العسكرية في أراضي الصين لم تغير، على الإطلاق، من آرائه تجاه طبيعة الدولة وقانونها. إذ بقي متبنياً لها، ويدعم نظامها الأرستقراطي القديم، ولا يهتم إلا فقط (١١٠) بسيادة عشيرته، يساندها في ذلك أفراد الطبقة الأرستقراطية، كما كانت عليه العادة سابقاً. أجبره ذلك النمو، الذي حدث لامبراطوريته، أن يدخل في خدمته عدداً كبيراً من الرجال (ذوي الخبرات في الشؤون الإدارية) من الذين ينتمون إلى أمم متحضرة، والذين أصبحوا مواطنين في دولته (الجديدة الواسعة الأرجاء بحكم الفتح)، وأن يعينهم في الوظائف التي لا يستطيع المغول أن يملأونها، ويؤدون واجباتها على خير ما يكون. وكان يأمل جيداً بألا يمضي

وقت طويل حتى يصبح أبناء طبقة الأشراف المخلصين، والذين كانوا يتلقون تعليمًا أويغورياً، قد كبروا وأصبحوا في منزلة الرجال، فيتلاشى بعد ذلك عدد تلك الوظائف (التي يحتلها أناس أجانب، أي ليسوا بمغولي الأصل) كان جنكيز ـ خان مقتنعاً اقتناعاً راسخاًبأن الأسس الرئيسية التي تسند أساس امبراطوريته ستظل باقية غير قابلة للتغيير، وأن مستقبلاً باهراً كان ينتظر أبناءه وأحفاده (والأجيال المغولية القادمة)، وذلك فقط، إذا ما هم التزموا بولاء (راسخ لا يتزعزع) لشرائع ياساقه؛ إذ أنه لم يلاحظ مطلقاً أن التعليم الأويغوري كان قادراً على تدمير حكومة (ونظام) العشيرة الأرستقراطية، أو (أن باستطاعته أن يهز) الإيمان العميق المنوط، حسب اعتقاد الشامانيين وأرواحهم، بالسماء الزرقاء الأبدية الوجود، أو أن (يغير) أي شيء آخر من عادات واعتقادات أقوام السهوب.

ما أن عاد من أرض الصين إلى بلده (في منغوليا) حتى وجه جنكيز جل اهتمامه إلى ناحية الغرب، حيث كان مايزال هناك على قيد الحياة أعداء قديمون (هم) كوتشلوك النيماني وأبناء تكتا (شيخ عشيرة) المركيت. فقد استطاع الأخيرون أن يجمعوا لهم بعض القوات في الأجزاء البعيدة جداً، والصعبة المرتقى من (جبال) الطائي . أرسل (ذلك القائد العسكري العظيم) سوبداي بهادر ضدهم، وقد نجح نجاحاً باهراً في (١١١) استئصال شأفتهم، والقضاء على آخر بقايا أعداء جنكيز هؤلاء. أخذ واحداً من أبناء تكتا أسيراً[1]، ثم جيء به إلى حضرة الأمير جوتشي، وقد أعجب

(١) هو قولتوقان مركان. حول هذا الموضوع، انظر كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في=

بمهارته الفائقة في حسن استخدام القوس (الرمي بالسهام) فأرسل جوتشي إلى والده يترجاه لعله يبقى على ذلك الرامي الماهر. إلا أن جنكيز ـ خان (أجاب ابنه إجابة صارمة) وأرسل إليه يقول بأنه قد فتح أقطاراً كثيرة (وأخضع شعوباً متعددة، كل ذلك) من أجل عشيرته، وأن باستطاعته أن يعمل (أي أن يواصل فتوحاته) دون (وجود) سليل صغير من قبيلة عدوه. لهذا فقد أصدر أوامره إلى ابنه بأن يقتل ابن تكتا (المركيتي).

أرسل جِبهْ ـ نويان (على رأس حملة عسكرية) ضد كوتشلوك، ابن الحاكم النيماني تايان ـ خان. فبعد تدمير النيمان قام كوتشلوك ومعه مجموعة صغيرة من أتباعه بالهروب إلى (أراضي مقاطعة) جتيسو؛ وهناك استطاع بنجاح أن يكوِّن له قوة (كبيرة) في (المناطق الواقعة) في التركستان الشرقية، مستغلاً في ذلك الحركات (الثورية التي قام بها المسلمون ضد گورخان (امبراطور الأمة القراخطائية[1]، والتي كانت قد رحلت من (أراضي) الصين وكونت امبراطورية في (الأقطار الواقعة) في الغرب، خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، (الميلادي / السادس الهجري). لم يمض وقت طويل حتى اتضح أن كوتشلوك نفسه أصبح عدواً للمسلمين، حتى أنه صار أشد عداوة لهم من گورخان، وخاصة بعد أن أغرته زوجته والتي

= المشرق الإسلامي»، ص: ٢٣٣، والحاشية رقم: ١ (المترجم إلى العربية).

(١) كانت هذه الأسرة فرعاً من الكثيتانيين (المترجم من الروسية إلى الإنجليزية). حول هذا الموضوع، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص. ص: ٨٦ ـ ٩٣ (المترجم إلى العربية).

كانت امرأة قراخطائية من عليات القوم، بأن يبدل دينه المسيحي (والذي كان يتبع فيه المذهب النسطوري المنتشر في هاتيك الربوع) ويعتنق الديانة البوذية، والذي اعتبر المسلمون هذا الدين (وثنياً وأتباعه) وثنيين.

(١١٢) استغل جِبهْ ـ نويان، الذي أرسل في سنة ١٢١٨ (م/٦١٤ هـ) على رأس قوة عسكرية قوامها كتيبتين من كتائب الجيش المغولي (أي عشرون الف رجل) ضد كوتشلوك، مآسي وثارات المسلمين ضد ذلك الحاكم (كوتشلوك)، استغلالاً بارعاً (بحيث خدم الغرض الذي جاء من أجله أجل وأعظم خدمة). إذ أن أول شيء أعلنه عندما جاء إلى أراضي الأخير (الحاكم النيماني) على رؤوس الأشهاد. بأن كل إنسان له الحرية المطلقة في اتباع أي دين يحب (ويتعبد الآله الذي يعتقد فيه)؛ كما أن المواطنين المدنيين سوف لن يتعرضوا لأية أذية، أو معارضة (من قبل القوة والسلطة الجديدة ـ المغول). وقد أثبت (جِبهْ ـ نويان) على أنه هو نفسه ما هو إلا نتاج من تهذيب سيده (جنكيز ـ خان) النبيل. عرف السكان الآهلون في الحال بأن كلماته (جِبهْ) لم تكن مجرد كلمات جوفاء، يستهوي بها القوم ليوقعهم في شراك للأذى. إذ أن كل شيء جرى في مجراه الطبيعي، الذي كان قد خططه جِبهْ، ووعد أن ينفذه، نظراً لذلك النظام الرائع الذي كان يسود جميع الكتائب العسكرية المغولية ويحكم جيشه. فقد قامت ثورة عارمة (مرة أخرى) ضد كوتشلوك في كافة الاتجاهات (قام بها المسلمون)، واستقبلوا المغول استقبال الأبطال المنقذين والمحررين لهم (من اضطهاد ذلك الحاكم

النيماني الطاغية). عمل كوتشلوك محاولة لإيقاف تقدم (القوات) المغولية في جتيسو، ولكنه غلب على أمره، فهرب مهزوماً ولاذ بعدها بالفرار إلى داخل منطقة كاشغر، حيث لاحقه جنود جِبهْ ـ نويان، وقبضوا عليه وقتلوه[1].

لم يساهم ذلك القائد العسكري العظيم ورجل الدولة الفذ (جِبهْ ـ نويان) مساهمة فعالة في عظمة وبناء مجد واسم جنكيز ـ خان، وذلك بتدمير عدو امبراطوره وبفتح أراضي واسعة الأرجاء (كثيرة الخيرات وضمها إلى ممتلكات) سيده فحسب، بل خلق له ولشعبه المغول هالة (ورونقاً وسمعة ممتازة) في أعين كافة بعد المسلمين لأنه، في حقيقة الأمر، قامت كتيبة صغيرة من الجيش المغولي (بتعقب كوتشلوك) فدمرت بكل سهولة ويسر عدو الإسلام (كوتشلوك) دون أن يحدثوا مضايقة (من أي نوع على الإطلاق) (١١٣) للسكان المدنيين، بينما وقف (في ذات الوقت نفسه) أكبر وأقوى حاكم مسلم، محمد خوارزم شاه، عاجزاً، ولم يحقق أي شيء في ذلك الوقت (أمام كوتشلوك ـ خان)، أو أن يثأر لإخوانه المسلمين من هذا العدو الطاغية، بل أصبح مضطراً (كما رأت نفسه الحمقاء) بأن يدمر أراضيهم نفسها (والتي كانت مجاورة لأراضي كوتشلوك) الواقعة على الضفة اليمنى (الشرقية) من نهر سير (يعني نهر سيحون)، وذلك ليتفادى وقوعها غنيمة لكوتشلوك.

---

(١) في الحقيقة لم يقض على ذلك الحاكم الظالم الشرس (في نظر المضطهدين من المسلمين) سوى جماعة من الصيادين المسلمين، فأسروه، وحزوا رأسه وسلموه إلى القوم المتعقبين له من المغول، (لتفصيل أفضل، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية»، ص. ص: ١٠٥ ـ ١٠٦ (المترجم إلى العربية).

(بناءً على ذلك، نجد أن) هذه الشعبية (التي أصبح المغول يتمتعون بها) بين المسلمين قد لعبت دوراً بارزاً في صراع جنكيز-خان القادم مع خوارزم شاه. كما أن الأحداث التالية أيضاً، والتي عجلت بوقوع ذلك الصراع، والتي كانت السبب المباشر في هجوم المغول (ضد أراضي السلطان محمد، وتدمير دولته) لم تساهم على الإطلاق في رفع أهمية ذلك الحاكم (يعني أن الأحداث هذه قد أضعفت من سمعة السلطان محمد، وقللت من شأنه جداً، كما سيرد معنا بعد قليل في الصفحات التالية).

ـ ١٢ ـ

«الغـزو المغولـي»

«تمهيـدات»

(١١٤) كان إحتلال بكنيـگ والقضاء على (امبراطورية) الكنز قد جعل اسم جنكيز ـ خان مشهوراً، كما أيقظ في الشاه الخوارزمي، الـذي كان نفسـه يحلم باحتـلال (أراضي) الصـين، ذات الغنى والخيرات الكثيرة، اهتماماً شديداً حول شخص الامبراطور المغولي ذاته. فقد كانت أسرة الشاهات الخوارزميين تنتمي إلى أصل تركي، والذين تبوأوا بالتدريج مكانة بارزة مهيبـة في كافـة أنحاء الجـزء الشرقي من العالم الإسلامي، وذلك عندما استطاعوا، بطريقة عملية جيدة، أن يستخدموا المميزات الطبيعية البارزة التي كانت تتمتع بها (تلك المناطق) التي وقعت تحت نفوذهم في أول الأمر، والواقعة في دلتا نهر آمو[1]. كان الشاه الخوارزمي المعاصر لجنكيز ـ خان هو (السلطان) علاء الدين محمـد، وقد كـان سيداً على (الأراضي

---

(١) وهي الأراضي الواقعة في إقليم خوارزم على دلتا نهر جيحون الكبير. (المترجم إلى العربية).

الواقعة في أقاليم) التركستان، وأفغانستان، وفارس[1]. فأضحت بذلك امبراطوريته هائلة الحجم؛ ولكنها كانت (في نفس الوقت) عديمة التنظيم. فقد كان ينقصها الانسجام المتجانس (فيما بين أجناس الشعب الخوارزمي)؛ كما أن مواطنيه لم يكونوا ينظرون إلى تلك الامبراطورية على أنها وطن لهم. فعلى الرغم من أنهم جميعاً كانوا مسلمين، إلا أن الوحدة الدينية لم تساهم في استقرار الامبراطورية، (أو في تأمينها من الاضطرابات في الداخل، أو أن تساهم في الدفاع عنها ضد أعدائها من الخارج). نهج محمد في مناسبات كثيرة (١١٥) (سياسة عدوانية) أنتهك مشاعر المسلمين الدينية، فتمخضت تلك السياسة بأن جعلت علماء الدين المسلمين أعداءً له. كما كانت الطبقة العسكرية أيضاً قد ناصبته العداء على نفس القوة التي كان عليها موقف رجال الدين منه، بالإضافة إلى أن عامة أفراد الشعب لم يكونوا، بأي حال من الأحوال، مؤيدين له[2].

ما أن علم بنجاح (العمليات العسكرية) المغولية في (داخل أراضي) الصين (الشمالية) حتى أرسل خوارزم شاه بعثة سياسية إلى

---

(١) كانت ممتلكات الدولة الخوارزمية قد بلغت أقصى اتساع لها في أيام هذا السلطان، فكانت حدودها تمتد من مسافات إلى الشرق من نهر سيحون شرقاً إلى حدود أراضي الخلافة وهمدان غرباً، ومن شمال اقليم خوارزم في الشمال إلى نهر السند في الجنوب (المترجم إلى العربية).

(٢) لمعلومات وافية عن هذا الموضوع «علاقة السلطان محمد بشعبه» انظر، ما قلناه في هذا الخصوص في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي»، ص. ص: ٢٧٥ - ٢٨٣ (المترجم إلى العربية)

جنكيز ـ خان، وهي تحمل تعليمات تقتضي بأن تتحقق عن مدى صحة الشائعات التي أخذت تنتشر حول ذلك الفاتح المغولي، وأن تجمع ما تستطيع جمعه من معلومات وثيقة الصلة عن قواته العسكرية. وصلت البعثة السياسية، إلى مقر سكنى والإدارة العسكرية لجنكيز ـ خان، بعد سقوط العاصمة بكينگ، وقد استقبلت البعثة استقبالاً حسناً من قبل الخان. كان الامبراطور المغولي سعيداً جداً بهذه المناسبة الطيبة لتكوين روابط تجارية مع أقطار المسلمين المتحضرة في الشرق (أي في شرق العالم الإسلامي)، والتي ستمكن البدو المغول، الذين لا ينتجون إلا النزر اليسير (في داخل بلدهم منغوليا)، من الحصول على مصدر جديدلتموينهم بالمنتجات والبضائع والسلع التي يحتاجها (مجتمعهم شبه البدائي في منغوليا). نتيجة للمعلومات التي زوده بها أصدقاؤه السابقون ـ التجار المسلمون ـ أطلع جنكيز ـ خان اطلاعاً جيداً (من مصادر موثوقة ذات صلة) على أوضاع الامبراطورية الخوارزم شاهية، فقدر تقديراً صائباً (ما لتلك العلاقات التجارية من) قيمة، كما قيم المميزات التي ستنتج من الدخول مع تلك الدولة في معاملات تجارية منتظمة.

كان التجار المسلمون يشاطرون (جنكيز ـ خان نفس الشعور) في إدراك أهمية وخصائص هذه المميزات التجارية. إذ أنهم كانوا قد أصبحوا آنذاك على يقين راسخ، لاشك فيه ولا لبس، من أن مصالحهم، كأناس رأسماليين، متطابقة تماماً مع مصالح جنكيز ـ خان، الذي (١١٦) كان بشكل لا يرقى إليه الشك، رجلاً متسامحاً (دينياً)؛ على الرغم من أنه كان وظل وثني الديانة، وغير متحيز (الى

فئة دينية ضد أخرى)، كما كان حاكمًا قوياً وحازماً.

كان مضمون رسالة جنكيز ـ خان إلى خوارزم شاه أنه اعترف بالأخير على أنه حاكم (الأقطار الواقعة في) الغرب، تماماً كما كان هو نفسه أيضاً الحاكم على (الأقطار الواقعة في) الشرق؛ وأنه سيكون سعيداً جداً لأن يدخل في علاقات ودية مشتركة (مع سلطان خوارزم)، وأنه لا بد أن يُسْمَحُ للتجار بحرية المرور (لنقل بضائعهم وتسويقها) بين البلدين. وهنا اغتنم بعض التجار من داخل (أراضي و)ممتلكات الشاه الخوارزمي الفرصة الكامنة وراء الوضع الجديد، حيث أن أملاك كلا الامبراطورين أصبحت متماسّة (وحدود دولتيهما متلاصقة) فقاموا (برحلة إلى أراضي امبراطور المغول قوامها) قافلة تجارية محملة (ببضائع وسلع من منتجات أراضي مملكة السلطان محمد) فوصلت بسلام إلى مقر سكنى ومضارب خيام جنكيز ـ خان. فاستقبل التجار استقبالاً مشرفاً مضيافاً، (وأكرم نزلهم وأحسنت وفادتهم). إلا أن (بعض التجار) الغريبين عن البلد أظهروا جهلهم بخلقه، فاستثاروا حنق الخان، وذلك عندما طلبوا أسعاراً عالية جداً لبضائعهم. ولكنهم سرعان ما اكتشفوا بأن السلع التي جلبوها معهم لم تكن (في حد ذاتها) شيئاً جديداً، أو غير معروفة في الأوساط المغولية، ثم أنهم أعجبوا إعجاباً كبيراً بعدالة الامبراطور المغولي وشهامته.

إجابة لبعثة الشاه الخوارزمي السياسية، أرسل جنكيز ـ خان سفراءه (الى السلطان الخوارزمي) علاوة على قافلة تجارية (كانت

بصحبة السفراء)، كان السفراء مسلمين، وكذلك الحال بالنسبة للتجار؛ وكذلك أشخاص مواطنين من أقاليم خوارزم، وبخارى، ومن المقاطعات الأخرى التي كانت تحت حكم (السلطان محمد).

(١١٧) حمل أعضاء الوفد المرسلين معهم هدايا قيمة للشاه الخوارزمي واقتراحات ليؤكدوا على وجوب ضمان وسلامة العلاقات التجارية بين البلدين. وصل أعضاء البعثة والقافلة التجارية إلى ممتلكات الشاه الخوارزمي في عام ١٢١٦ (م / أواخر سنة ٦١٣ هـ وأوائل عام ٦١٤ هـ). وبينما كان (السلطان) محمد يستقبل (الفريق) الأول (من أعضاء السفارة) كان الأخيرون (أعضاء القافلة التجارية) قد نهبت تجارتهم في أترار[١]، وذبح التجار، نزولاً عند أوامر حاكمه (حاكم ونائب السلطان محمد على مدينة أترار)[٢]. وهكذا وقع الرجال الذين أرسلهم جنكيز ـ خان ضحايا لجشع وشكوك الشاه الخوارزمي. قد يكون من المحتمل أن (السلطان) محمد لم يصدر أمرا بمذبحة أترار، ولكنه أخذ جانب الحاكم (غاير خان) بعد وقوع الحادثة، ورفض أن يسلمه (للمغول عندما طلب جنكيز ـ خان تسليم هذا الحاكم المذنب في نظر المغول). (وفوق ذلك كله) أهان (السلطان) جنكيز ـ خان عندما قتل السفير الذي أرسل ليطالب

---

(١) تقع آثار أترار في مكان ما إلى الشمال من طاشقند (المترجم إلى الإنجليزية).

(٢) لمعلومات إضافية عن هذا الحاكم، غاير خان، وهو ابن خال السلطان محمد، راجع ما قلناه في هذا الشأن في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي» ص. ص: ٢٣٧ ـ ٢٦٣. حيث شرحنا علاقة السلطان محمد بالخان المغولي وما ورد في المصادر المعاصرة والحديثة حول مسألة مقتل ما سمي بـ «تجار جنكيز ـ خان» (المترجم الى العربية).

(السلطان محمد) بتسليم الحاكم وحلق لحيّ جميع أعضاء وفده المرافقين له[1].

أصبحت الحرب (بينهما حقيقة واقعة) لا مفر منها. شعر جنكيز ـ خان بأنه قد أهين، إهانة لا حد لها بذلك العمل البربري، الذي ارتكبه الشاه الخوارزمي، رغم أنه بدأ يظهر عليه الهدوء الذي اعتاده، وأنه كان يأمل في أول الأمر أن تسوى المسألة بشكل سلمي، وأكثر من ذلك كله (وحسب المفهوم العام في الأعراف العالمية) وطبقاً للتقاليد والأفكار المغولية، فان الشخص الذي يقوم مقام السفير هو انسان يتمتع بحصانة سياسية تحرم على أي انسان أن يمسه بسوء، أو أن يلحق به أي أذى، يقال بأن جنكيز ـ خان، عند سماعه بمذبحة أترار، أهرق دموع السخط والنقمة (لما فعله السلطان ووالية على أترار، ثم قام بعد ذلك) وحسب (١١٨) ما جرت عليه عادته، فخاطب السماء الزرقاء الأبدية الوجود، التي يلجأ إليها دائمًا في كل ملمة أو ظرف صعب (يصادفه) في حياته؛ إذ صعد تلاً (هناك) وخلع قبعته، وحل حزامه وعلقه حول عنقه ودعا السماء بأن تساعده لكي ينتقم للإهانة (التي ألحقها به السلطان محمد).

بعد أن حاز جِبِه ـ نويان على نتيجة ناجحة في حروبه مع كوتشلوك (ذلك الأمير النيماني، الذي اغتصب عرش القراخطائيين في بلاساغون) كرس جنكيز نفسه كلية في سبيل الاستعدادات والتهيؤ للقيام بتلك الحملة العسكرية، والتي قدر لها أن تدمر ذلك العدد

---

(١) لمعلومات وافية وشرح ومناقشة هذه النقطة بالذات، وما قاله المستشرقون والمؤرخون قديماً وحديثاً وما يحيط هذه المسألة من ملابسات انظر كتابنا الوارد في الحاشية السابقة نفس الصفحات. (المترجم إلى العربية).

الكبير من الممالك، وأن تلعب دوراً مماثلاً في (مجريات أحداث) تاريخ العالم. نادى إلى عقد اجتماع القور لتاي[1]، ذلك الإجتماع الذي جاء إليه كافة أعضاء أسرته، وقادته العسكريين وجميع (أفراد الطبقة الأرستقراطية المغولية). لم يكن الغرض من القور لتاي ذلك هو أن يحصل جنكيز ـ خان على موافقة (المجتمعين) من أقاربه وطبقة النبلاء وعلية القوم على خططه (الخاصة بمشروع تلك الحملة) ولكن ليصبح في مقدوره أن ينظم (القيام) بمشروع ضخم (كهذا وتنفيذه) على أحسن ما يجب؛ وليقوم بإصدار تعليماته شخصياً إلى القادة العسكريين، الذين يشتركون في الحملة العسكرية المقبلة. وعلى العموم، فإنه من الخطأ أن يعتبر اجتماع القور لتاي المغولي شبيهاً بمجلس النواب الأوروبي، أو أنه (مثيلاً لـ:) جمعية دولة المدينة الأغريقية. إذ أن قوة الخان المغولي كانت مطلقة، بكل ما في الكلمة من معنى، ولا تحدها حدود، وخاصة لدى شخص مثل جنكيز.

أجريت الاستعدادات للحملة العسكرية ضد (الأقطار الواقعة) في الغرب بعناية فائقة، ودقة متناهية. فعلى ما يبدو أن جنكيز ـ خان غالى كثيراً في تقدير (١١٩) قوة الشاه الخوارزمي العسكرية. ولعل السبب في الاكبار من شأن وقوة السلطان أن جنكيز ـ خان، كان يدين بكافة معلوماته (حول الأقطار الغربية في مجموعها) للتجار المسلمين، الذين أظهروا (السلطان) محمد بطبيعة الحال كأقوى ما يكون وبشكل أكثر مما كان عليه في حقيقة الأمر. ومع هذا، فإن

---

(١) اجتماع عام لكبار أعضاء البيت المالك، والقادة العسكريين، وعلية القوم، والعشائر المغولية. (المترجم الى العربية).

عامل الحيطة ـ خاصة أخذ الإستعداد وجوانب الحذر في وضع مثل حالة الحرب ـ ظلت على الدوام السمة المميزة الظاهرة في خلق جنكيز ـ خان.

قبيل أن يشرع في حملته الحربية (ضد أراضي السلطان محمد) عين (جنكيز ـ خان) أخاه الأصغر[1] ليكون نائبه في منغوليا، في حين ظل (قائده الكبير) موكلي على رأس قوات جيش الميسرة في أراضي الصين (حيث بقي مواصلاً الفتوحات (المغولية) في داخل ذلك القطر. ذهب في صحبة الامبراطور زوجته الخامسة، كولان، كما ذهب في معيته أيضاً الأمراء الأربعة[2]. وقد سار معه أيضاً كافة الرؤساء من رفاقه، بما فيهم يليو ـ تشئو تسئاي (رجل الدولة الصيني). كان لا بد أن تشارك جميع قواته العسكرية المتواجدة عنده، وتلك التي يمكن استدعاؤها في غزواته المرتقبة تلك، كما أن (أعداد قوات المغول) ستزداد كثرة عن طريق ما يرسله مقطعوه (حكام ونواب جنكيز ـ خان على ولاياتهم المختلفة) من قوات إضافية (يجمعونها من أراضيهم التي يحكمونها نيابة عن الخان). وقد طلب من حاكم التنگوت[3] أن يساهم هو الآخر (في

---

(١) كان الأخ الأصغر لجنكيز ـ خان هو أخوه الخامس (حسب ما أورده رشيد الدين) بلگوتي ـ نويان، وهو من أم أخرى من غير أيلون. أما الأخ الذي تركه خلفه في منغوليا. فهو تموكه (تموجين أو تجكين) أو (تيموجين أو تشگين). انظر رشيد الدين، جامع التواريخ ج١ / ص. ص: ٢٠٧ ـ ٢٠٩ (المترجم الى العربية).

(٢) يعني: جوتشي، وتشغتاي، واوگتاي، وتولي (المترجم الى العربية).

(٣) هي امبراطورية هيسي ـ هسيا التي كانت تحكم في التبت وأراضي الصين الشمالية الغربية (المترجم للعربية).

حملة جنكيز ـ خان تلك) بجنود إحتياطيين مساعدة، (رغم أن جنكيز ـ خان) قاد ضده حملة عسكرية ظافرة حيث قام بها في وقت مبكر في سنة ١٢١٨ (م ٦١٥ هـ)[١]. وقد خاطب جنكيز ـ خان إمبراطور (التنگوت كما يلي: «سبق وأن أعطيت وعداً بأن تكون ذراعي الأيمن. والآن فإن قوم سرتگول ـ Sartagul (كان هذا هو الاسم الذي يطلقه المغول على خوارزم) قد قتلوا سفرائي، ولا بد لي أن أذهب (اليهم) كي أطالب بتعويض منهم،(لذلك) فستكون ساعدي الأيمن[٢]. هكذا كانت رسالة جنكيز خان التي نقلها سفيره

---

(١) قبل أن يسير جنكيز ـ خان على رأس حملته الغربية هذه، أرسل إلى امبراطور هسي ـ هسيا ـ التنگوتي رسالة يطلب منه أن يرسل قوات اضافية من لدنه، لتساهم مع المغول في حملتهم ضد السلطان محمد، كما أوردها المؤلف، وكما نعرف، أخضع المغول هذا الامبراطور ودمروا أراضيه، وأخيراً قتل على أيدي المغول، كما سيرد، بعد حملة المغول الى الغرب، وقد توفي جنكيز ـ خان وهو يحاربهم سنة ٦٢٤ هـ /١٢٢٧ م .وكان المغول قد اخضعوا سنة ٦٠٦ هـ /١٢٠٩م امبراطور التنگوت تحت نفوذهم، وكان من شروط التبعية أن يستجيب لداعي المغول إذا هم دعوه ليشاركهم في حروبهم ضد أعدائهم. إلا أن هذا الامبراطور لم يستجب لجنكيز ـ خان عندما طالبه إرسال جيش من عنده ليشارك في حملة المغول هذه، قائلاً بأن جنكيز لا يستحق أن يتبوأ مكانة امبراطور ان هو لم يستطع القيام بتلك الحملة الغربية ضد السلطان محمد، لذلك أراد أن يغير اتجاه سير حملته من الغرب إلى الجنوب الغربي ضد هسي ـ هسيا لتأديب ذلك التابع المتمرد، الذي تحدى سلطة جنكيز. لذلك فإن التاريخ الذي وضعه المؤلف هنا، (وهو ١٢١٨م) قد يكون خطأ مطبعياً. لأن المغول لم يسيروا ضد التنگوت إلا ـ كما قلنا ـ بعد حملتهم ضد السلطان محمد، كما سيورده المؤلف نفسه، فيما بعد، (المترجم الى العربية).

(٢) أي انه طالبه بأن يشارك في حملة المغول بكتائب عسكرية من جيوش هسي ـ هسيا لتكون ضمن جيش الميمنة المغولي المتجة الى اراضي السلطان محمد (المترجم الى العربية).

إلى (١٢٠) حاكم التنگوت. ولكن ذلك الامبراطور لم يُعْط وقتاً كافياً للإجابة على رسالة السفير، إذ عاجل بالاجابة على ذلك أحد رجال حاشية بلاطه، أشا ـ گانبو ـ Asha - Ganbu ، قائلاً: «إذا لم تكن قواتكم العسكرية كافية، فيجب ألا تكون إمبراطوراً». وافق ذلك الجواب هوى الحاكم التنگوتي، وتبنى تلك الملاحظة التي أبداها رجل حاشية بلاطه، ذلك، فرفض أن يرسل قوة عسكرية مساعدة (لجيش المغول ضد السلطان محمد). وعندما أخبر جنكيز بهذا قال: «كيف لـ « أشا ـ گانبو» أن يتجرأ ويتفوه بتلك الكلمات؟ إنه لمن السهولة بمكان بالنسبة لي أن أرسل جيشي في الحال ضدهم. إلا أنه رغم ذلك، وطبقاً لخطتي التي رسمتها، فسوف لن أتقاتل معهم الآن، ولكن إذا ساعدتني السماء وحفظتني، فسوف أسير ضدهم عند عودتي من سرتگول».

كان لدى جنكيز ـ خان كل الحق أن يفصح عن خططه (الحربية التي أزمع القيام بها فيما بعد) لأنه قبل مغادرته (أراضي وطنه باتجاه الغرب لتنفيذ ما عقد العزم عليه) كان رسم مخططاً مفصلاً، ودقيقاً من أجل تلك الحملة العسكرية المرتقبة؛ إذ قام بدراسة مسرح العمليات الحربية المقبلة، بكل عناية وتفصيل، وذلك بشكل أساسي على ضوء تقارير التجار المسلمين. كما كان أيضاً على اطلاع تام عن الوضع السياسي داخل أراضي العدو. وبناءً على ذلك، فقد أصبح في مركز ليحسن معه استعمال الاستياء العام (لدى عامة الشعب) الذي كان يخيم في داخل أراضي وممتلكات الشاه الخوارزمي، (ليخدم به أغراضه) بكل مهارة.

قضى جنكيز ـ خان (أشهر فصل ذلك الصيف من عام ١٢١٩ (م/٦١٦ هـ) بقواته الرئيسية على (ضفاف نهر) ارتيش. وفي (فصل) الخريف، تقدم (بقواته وسار باتجاه الجنوب؛ وفي قياليق[١] اتحدت قواته مع الكتائب العسكرية التابعة لمقطعيه ونوابه التابعين له[٢]. إلا أنه قبل أن يشرع في العمليات العسكرية (١٢١) أخذت فصائل الجيش تشتغل بتنظيم عمليات صيد على نطاق واسع، إذ (أن هذا العمل) خدم ثلاثة مشاريع في آن واحد، فهو يقوم بعملية تأمين المؤن الغذائية لأفراد ذلك الجيش، (وذلك بما يقع تحت أيديهم من الصيد)؛ ثم يخدم غرضاً عسكرياً من خلال استعراضاته، التي تقوم بها مفارز الجيش (أثناء مطاردة الصيد)؛ والشيء الذي يعتبر أهم من ذلك كله تأمين أكبر رقعة رعوية لترعى فيها قطعان خيولهم (الهائلة، والتي تُكَوِّنُ حجر الزاوية في العمليات العسكرية ضد الأعداء).

من الصعب جداً أن يكون جيش جنكيز ـ خان الذي جمعه (تحت قيادته ابان تلك الحملة) ضد خوارزم شاه يتجاوز في مجموعه أكثر من مائتي ألف رجل. بينما كان تحت تصرف الشاه الخوارزمي قوات أكثر بكثير (مما عند الخان المغولي)؛ ولكن قواته (قوات

---

(١) يقع اقليم او منطقة قياليق في قلب اقليم التركستان، إلى الشرق من نهر سيحون وسكانه من المسلمين (المترجم الى العربي).

(٢) كان من بين الحكام التابعين لحكم، والخاضعين تحت نفوذ، السلطة المغولية والذين التحقوا بجنكيز ـ خان في منطقة قياليق حاكمها المسلم ارسلان ـ خان، ويدي ـ قوت، حاكم الاويغوريين (المترجم الى العربية).

السلطان محمد) من حيث الكيفية (والقدرة القتالية والخبرة العسكرية) أقل مكانة من قوات جنكيز ـ خان بشكل كبير جداً. فقد كان جيش الشاه الخوارزمي تعوزه الوحدة الجنسية؛ كما كان سيء الضبط والنظام، كما لم يكن لدى (السلطان) محمد ثقة في قادته العسكريين، وكان متخوفاً من أن يجمع جيوشاً كبيرة معاً تحت قيادة واحدة. إذ لم يكن لديه قائد عسكري يملك قدرة قيادية فعالة، بحيث يدير قيادة كتائب جيوش عسكرية بأعداد هائلة. كان هناك الكثير من رجاله أنفسهم قد برهنوا على أنهم قادرون على القيام بعمل بطولي (إذا كانوا) يقودون كتائب عسكرية صغيرة؛ ومع هذا، فإنه لم يكن في استطاعة أي واحد منهم، ولا حتى ابنه جلال الدين، ذو الموهبة والنشاط الراقيين، قيادة جيوش ضخمة[1]، أما فيما يتعلق بالجيش المغولي، من الناحية الثانية، فقد كان يسوده، ويهيمن عليه ذلك النظام الحديدي الصارم، إذ كانت الآلاف، والمئات تحت قيادة ضباط خبيرين (وأصحاب تجارب واسعة في الميادين العسكرية) وغالبيتهم من ذوي المواهب (والمؤهلات العسكرية) الراقية. (كما كان في نفس الوقت) الجيش المغولي في مجموعه يقوده رجل يمكننا أن نقول عنه، وبدون أي مبالغة، بأنه رجل عسكري نابغة.

لم يكن لدى خوارزم شاه الجرأة ليقابل (١٢٢) العدو في الميدان على أرض معركة مفتوحة. إذ أنه وضع (بدلاً من ذلك) حاميات

---

(١) حول هذا الموضوع، انظر تعليقنا على ذلك في كتابنا (أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي» ص. ص.: ٢٩٧ ـ ٣٠١، (المترجم الى اللغة العربية).

عسكرية ضخمة في (أمهات) المدن العديدة في (اقليمي) التركستان (وما وراء النهر) في حين انسحب هو نفسه إلى الناحية الداخلية من أراضيه ليحاول إيقاف (الزحف المغولي الجارف) عن طريق تأليب الشعب، وحشد قواته لخدمة هذا الغرض. ومع ذلك فانه لم يستطع حتى أن يشعل الشعور الديني بين المسلمين (ويلهب حماسهم للقيام بالدفاع عن أراضيهم ودينهم) ضد الغزاة المعتدين الوثنيين. أصبح الغرض المباشر للغزو معروفاً في كافة الأوساط، وبدون أي استثناء، فقد كان مسألة عامة ومعروفة جيداً، حيث أن الغالبية العظمى من ضحايا مذبحة أترار الأبرياء، كانوا مسلمين[1]. كما أن هناك حقيقة لا يمكن إخفاؤها أو تجاهلها، وهي أن أحد قادة جنكيز ـ خان العسكريين[2] كان قد قضى بسهولة تامة على كوتشلوك ـ خان، مضطهد الإسلام، فأصبح بذلك محرر المسلمين في (اقليم) التركستان الشرقية.

---

(١) عن أسباب الغزو المغولي، ومناقشة هذا الإدعاء، انظر مناقشتنا لهذه المسألة في كتابنا المذكور في الحاشية السابقة، ص. ص: ٢٦٤ ـ ٢٧١ (المترجم الى اللغة العربية).

(٢) كان ذلك القائد المغولي البارع هو جِبهْ ـ نويان، وقد لعب المسلمون في التركستان دوراً بارزاً في انجاح عمليات هذا القائد العسكرية ضد ذلك الحاكم النيماني، مضطهد المسلمين، وفي ضم تلك الأراضي الواسعة الأرجاء إلى ممتلكات المغول (المترجم الى العربية).

ـ ١٣ ـ

«العمليات العسكرية في التركستان وأفغانستان وإيران»

(١٢٣) بدأت تلك العمليات الحربية المشهورة في خريف سنة ١٢١٩ (م / ٦١٦ هـ)، وذلك عندما تقدم جنكيز ـ خان (على رأس قواته الجرارة) باتجاه منطقة أترار، ووضعها تحت الحصار. كانت القوات المحاصرة تتكون من عدة كتائب عسكرية (عشرات الآلاف، تومانات)، كما أرسلت مجموعة أخرى، تحت قيادة جوتشي (ابن جنكيز ـ خان الأكبر) باتجاه المناطق السفلية لنهر سير[1]. كما أرسلت كتيبة عسكرية صغيرة إلى المناطق العلوية من ذلك النهر نفسه. أما جنكيز ـ خان فقد سار شخصياً، ومعه ابنه الأصغر تولي، ضد مدينة بخارى، على رأس قواته الرئيسية؛ وقد التحق بالقوات المغولية المحاصرة موظف كبير سابق على مدينة أترار (من موظفي الدولة الخوارزمية)، بحيث زود المغول بمعلومات تفصيلية، في منتهى الأهمية، عن حالة الأوضاع

(١) سير، أو سير داريا، هو الاسم القديم لنهر جاكسر تس (المترجم إلى الانجليزية). وهو نهر سيحون (المترجم إلى العربية).

السائدة داخل امبراطورية الشاه الخوارزمي[1]. استسلم للقوات المغولية كل من قلعة زرنوق، ومدينة نور، بدون أية مقاومة تذكر؛ ونتيجة لذلك فقد سمح للسكان أن يبقوا على قيد الحياة، وأن يحتفظوا بممتلكاتهم[2]. لقد ساعد جنكيز ـ خان ذلك النظام، النادر (في نوعيته) السائد بين مختلف صفوف جيشه بكل صرامة وحزم، بأن يتخلل إلى داخل هاتين المدينتين دون أية مقاومة (فنجح في احتلالهما دون أن يفقد رجلاً واحداً من جنوده). إذ أن المغول قاموا فقط بتدمير تحصينات (المدينتين) وجندوا (من بين سكان مدينة زرنوق) كتائب لتخدم في أعمال الحصار، بينما فرض على أهالي مدينة نور بأن يدفعوا ضريبة (معينة).

ضرب جنكيز ـ خان الحصار على مدينة بخارى في أوائل سنة ١٢٢٠ (م / ١٦١٧ هـ). وقد حاولت حامية المدينة أن تغادرها، وذلك بتنظيم انسحابها من خلال خطوط المحاصرين، ولكن فئة قليلة فقط نجحت في عمل ذلك، أما البقية الباقية فقد وقع أفرادها قتلى في المعركة. بعد ذلك قرر السكان أن يستسلموا، ولم يبق إلا أناس قلائل قرروا الاستمرار في مناهضة المغول وتحديهم، فقفلوا على أنفسهم في داخل قلعة المدينة. بعد حصار دام مدة

---

(١) كان ذلك الرجل هو بدر الدين العميد. حول هذا الموضوع، انظر كتاب: النسوي، محمد المنشي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ حمدي، القاهرة، ١٩٥٣ م، ص. ص: ٩٢ ـ ٩٣؛ كذلك كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي» ص. ص: ٩٠ ـ ٩٢ (المترجم إلى العربية).

(٢) لمعلومات عن مدينتي زرنوق، ونور، انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص: ١٢٢ وخاصة الحاشية رقم: ١ (المترجم إلى العربية).

اثني عشر يوماً، أخذت القلعة (عنوة واقتداراً)، وقتل كافة المدافعين في داخلها (عن بكرة أبيهم). عندما دخل جنكيز مدينة بخارى، طلب قائمة بأسماء تجار المدينة الأغنياء، وبأسماء الموظفين وعلية القوم، فاستطاع بقوة (تأثيرهم على بقية سكان بخارى) أن يفرض عليهم ضريبة؛ بعد ذلك، أجبر جميع السكان بمغادرة المدينة ليس مع كل فرد منهم سوى قطعة واحدة فقط من اللباس يستر به بدنه. بعدها سلم جنكيز ـ خان المدينة المهجورة من قبل أهلها إلى جنوده (للنهب والسلب)، وفي أثناء عملية النهب احترقت المدينة ودمرتها النيران.

سار جنكيز ـ خان من بخارى (على رأس قواته يتقدمهم السكان الأسرى) باتجاه سمرقند، حيث كان قد أخذ معه حشوداً من المساجين، الذين أُسْتُخْدِمُوا في أعمال الحصار. وفي نفس الوقت، وبعد حصار طويل، ودفاع يائس مستميت من (١٢٥) المتحصنين في داخل القلعة، أخذت (مدينة) أترار[١]. أما حاكم المدينة، الذي كان هو المسؤول عن مذبحة أعضاء بعثات جنكيز، فقد أخذ سجيناً. بعدها جيء به إلى أمام الامبراطور الذي أشبع غليل عطشه في الانتقام منه، فقد قتله شر قتله، وفي قسوة متناهية[٢]. سارت تلك القوات (التي أنيطت بها مهمة حصار،

---

(١) قام بهذا العمل القسم الأول من جيوش المغول الغازية بقيادة ابني جنكيز الأوسطين، تشغتاي، وأوكتاي، ومعهما الاويغوريون وسيدهم يدي ـ قوت، (المترجم إلى العربية).

(٢) أخذ غاير خان وأذيب ماء الفضة في أذنيه (المترجم إلى العربية).

وأخذ أترار) فالتحقت بالقوات الرئيسية تحت قيادة جنكيز. (وضربت مخيماتها جميعاً أمام سمرقند).

في اليوم الخامس من بداية الحصار، وبعد غارات مفاجئة، غير موفقة، قام بها المحاصرون (ضد القوات المغولية) قرر سكان سمرقند وحامية القلعة الاستسلام. دخل المغول المدينة، فقوضوا تحصيناتها من أسسها، وأخلو منها ساكنيها، بعد أن أجبروهم على الذهاب إلى الخارج فنهبوا منازلهم (كما فُعِلَ بمدينة بخارى قبلها). لم ينج في هذه المرة سوى رجال الدين المسلمين، والأشخاص الذين كانوا تحت حمايتهم (من أتباعهم وذويهم). أما القلعة فقد أُقْتُحِمَتْ عنوة واقتداراً، بعد أن اجتاحها (الجنود المغول). عامل (المغول) أعضاء الحامية العسكرية، والمكونة من العسكريين الأتراك، بصورة رئيسية، بوحشية متناهية، فقد أعدموا جميعهم، وعلى رأسهم قائد أفراد الحامية العسكري[1]. وقد أقدم المغول على ارتكاب هذا العمل بغرض ارهاب الأتراك، الموالين، وأنصار الشاه الخوارزمي (من ناحية) ولكي ينزعوا منهم كل رغبة قد تكون لديهم لمحاربة المغول (أو التصدي لهم من ناحية ثانية).

بينما كان جنكيز محاصراً لمدينة سمرقند، جاءه تقرير مفاده أن الكتائب العسكرية التي كانت قد أرسلت (ضد المناطق الواقعة)

---

(١) هو توغان خان (حول هذه المسألة وموقف الأتراك الحقيقي من الغزو المغولي، انظر كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي»، ص .ص : ٢٨٩ - ٢٩٠، والحاشية رقم : ٢ ، ص : ٢٩٠ (المترجم إلى العربية).

على طول (وادي نهر) آمو[1]، كانت قد وفقت في عملياتها العسكرية في كلا الاتجاهين (أي كتيبتي المناطق العلوية والسفلية من نهر سيحون، وهاتان الكتيبتان هما قسما الجيش الثاني والثالث)، كما وصل (الخان المغولي تقرير آخر يفيد بأن) الشاه الخوارزمي قد هرب إلى الأراضي الداخلية من ممتلكاته، على أمل أن يقوم بتجميع (١٢٦) قوات جديدة، وأن يقوم بتنظيم المقاومة (ضد القوات المغولية الغازية) من جديد. وهنا أرسل (الخان) ثلاثة تومانات[2]، تحت قيادة جِبهْ ـ نويان، وسوبداي ـ بهادر وتكوتشار ـ بهادر، كما أصدرت إليهم الأوامر بأن يعبروا (نهر) آمو، وأن يتابعوا تعقب الشاه الخوارزمي؛ وفي ذات الوقت أن يتجنبوا كل ما من شأنه الحاق الأذى بالسكان المدنيين، حتى يتم لهم إلقاء القبض عليهم. (كما كانت الأوامر تقضي) بأن يشتتوا شمل أية مقاومة تحاول أن تقف أمامهم، وأن يواصلوا تقدمهم، بحيث يتخللوا (املاك الدولة الخوارزمية) بقدر ما في وسعهم خلف العدو؛ كما كان جنكيز ـ خان نفسه سيقود قوات جيوشه الرئيسية، ويسير خلف تلك الكتائب العسكرية الثلاث، لعلهم يأخذون العدو من كلا الجانبين (من الأمام ممثلة في القوات الثلاث المذكورة تلك، ومن الخلف، ممثلة في قوات الخان نفسه).

---

(١) لعل ذلك خطأ من المترجم إلى الانجليزية. فالصحيح هو: سير (المترجم إلى العربية).

(٢) أي ثلاثين ألف جندي، مقسمة إلى أجزاء كل جزء عشرة آلاف جندي، يقود كل قسم قائد من القواد هؤلاء (المترجم إلى العربية).

ومع ذلك، فقد فشل خوارزم شاه في أن يقوم بتنظيم أي نوع من أنواع المقاومة العسكرية ضد المغول، فلم ينجح إلا في تجنب الوقوع أسيراً في أيدي المطاردين له فقط. بحث عن مكان آمن (يلجأ إليه) في داخل جزيرة صغيرة في بحر قزوين، وهناك، وقبل أن يمضي وقت طويل، توفي[1]، في حين واصل جِبِهْ ـ نويان وسوبداي ـ بهادر زحفهما العسكري، فتخللا مناطق جبال القوقاس، ونفذا بقواتهما، وقادا هجوماً فعالاً لا يكاد يصدق، داخل السهوب الجنوبية من الأراضي الروسية، حيث استطاعا أن يهزما الأمراء الروس (في هاتيك البقاع في معركة جرت) على (ضفاف نهر) كلكا، وقد عادا بعد ذلك إلى حيث تقع مناطق سكنى ومقر إدارة جنكيز ـ خان (في منغوليا) عن طريق أراضي سهوب اقليم القبتشاق[2].

قضى جنكيز ـ خان صيف عام ١٢٢٠ (م / ٦١٧ هـ) في ضواحي نِسِف، والتي يقع فيها ما يعرف في الوقت الحاضر بمدينة كرشي[3]. إذ تعتبر تلك الأجزاء مناطق ملائمة، بشكل رائع، للبدو، لرعي (حيواناتهم) في فصل الصيف. استفاد جنكيز (١٢٧) من بقائه هناك (طوال فترة أشهر ذلك الصيف) حيث استعادت

---

(١) إذ طلب النجاة من المغول المتعقبين له في جزيرة أبسكون في أقصى الجنوب الغربي من البحر (المترجم إلى العربية).

(٢) وهي الآن تكون جمهورية قازقستان (المترجم إلى الانجليزية).

(٣) قضت القوات المغولية صيف ذلك العام في المنطقة الخضراء الممرعة الواقعة في ضواحي نخشب (المترجم إلى العربية).

خيوله سمنتها وقوتها؛ كما كانت فرصة طيبة، أتاحت لجنده أن يأخذوا لهم قسطاً من الراحة (بعد العناء الشديد خلال فتوحاتهم لأراضي ومدن ما وراء النهر). أخذت الأراضي التي كانت قد فتحت حديثاً[1] تفيق مما ذاقته من ويلات، نتيجة لحرب (المغول المدمر). حيث اتخذ الامبراطور المغولي الاجراءات الملائمة لاعادة الحياة الطبيعية على ما كانت عليه سابقاً. فقد قام باختيار حكام، في أغلب الحالات، من بين المسلمين، وعينوا ليحكموا المدن المفتوحة، وقد تم تعيين قائد مغولي فقط إلى جانب حاكم المدينة المحلي، في المدن التي أقيم بها حاميات عسكرية مغولية (حيث يقوم قواد تلك الحاميات بالاشراف على الأعمال المتعلقة بمهام رجاله العسكريين).

تقدم جنكيز ـ خان، في فصل خريف ذلك العام (باتجاه الجنوب الغربي) بجنوده، قاصداً مدينة ترمذ[2]، والتي اجتيحت وأخذت بعد دفاع مستميت (قام به السكان المسلمون في هذه المدينة)؛ وفي أثناء عمليات الحصار القصير ضد تلك المدينة، قدمت كتيبة سلاح المنجنيقات خدمات ممتازة، حيث استطاع القائمون على المنجنيقات أن يسكتوا قوات العدو العسكرية[3]،

---

(١) وهي الأراضي الواقعة فيما بين نهري سيحون شرقاً وجيحون غرباً (المترجم إلى العربية).

(٢) وهي في الوقت الحاضر مدينة ترمذ، الواقعة على (ضفاف نهر) آمو (تقع على الحافة الشرقية من نهر جيحون) (على الحدود السوفيتية ـ الأفغانية (المترجم إلى الإنجليزية).

(٣) يعني بذلك قوات المسلمين، عدوة المغول، المدافعين عن أنفسهم في داخل أسوار=

والتي مكنت بعدها طوابير قوتها العسكرية المحاصرة أن تتقدم بصورة سريعة حتى وصلت إلى جانب أسوار المدينة. بنى هذه المنجنيقات لجنكيز مهندسون مسلمون، لأن جنكيز كان يعرف جيداً كيف يستفيد من كافة الامكانيات الموجودة لدى الأمم المتحضرة التي هزمها (وأصبحت تحت نفوذه، كجزء من امبراطوريته)، وأن يستغلها لتحقيق أغراضه وخدمة أهدافه، مع عدم السماح لأولئك الأجانب الذين أدخلهم في سلك خدمته بأن يصيروا أكثر من كونهم أدواته الطيعة تحت تصرفه (يديرها كيفما شاء، دون أن يكون لهم نفوذ على الاطلاق).

أما شتاء ذلك العام ١٢٢٠ - ١٢٢١ (م / ٦١٧ - ٦١٨ هـ) فقد قضاه (المغول) على ضفاف (نهر) آمو (جيحون)، والتي كانت منطقة ملائمة جداً للمراعي في فصل الشتاء، (١٢٨) بينما كانت قد أرسلت كتيبة عسكرية قوية في ذات الوقت، وأنيط بها مهمتها، الخاصة بها، وهي حصار وأخذ العاصمة الخوارزمية گرگان (جرجانية)، تحت قيادة الثلاثة الأمراء[1]، وبكورتشي - نويان. فلقد كانت تلك المقاطعة (في منطقة اقليم خوارزم) في ذلك الوقت، في حالة انتعاش (راقٍ)؛ وقد تصبح (كنتيجة لذلك) مركزاً جديداً تبدأ منه نقطة المقاومة؛ يتلوها هجوم مضاد (لدحر القوات المغولية الغازية). كانت (هذه المقاطعة) تدار من قبل

= المدينة المحاصرة (المترجم إلى العربية).

(١) وهم: جوتشي، وتشغتاي، وأوگتاي (المترجم إلى العربية).

تركان ـ خاتون، أم خوارزم شاه القوية (وذات النفوذ الواسع على ابنها وإدارة الدولة في عهده)[1]. ومع ذلك فقد فضلت، في هذا الوقت، أن تفر (من وجه المغول)، بمجرد أن سمعت بمغادرة ابنها لخط (الدفاع الواقع على نهر) آمو. إلا أن قوات مغولية لحقت بها في داخل الأراضي الإيرانية، فقبضت عليها، وأخذتها سجينة؛ وأخيراً أمر جنكيز ـ خان بأن تنقل تلك المرأة القاسية القلب، وذات الطموح الواسع معه إلى منغوليا، حيث عاشت هناك لوقت طويل بعد وفاة الفاتح العظيم[2] بعد حصار دام لوقت طويل، استطاع المغول أن يحتلوا گرگان (جرجانية) بعدها سار تشغتاي، وأوگتاي، والتحقا بوالدهما، في ربيع عام ١٢٢١ (م / ٦١٨ هـ) والذي كان آنئذٍ محاصراً (لقلعة) تلكان[3].

بعد عبوره آمو (نهر جيحون)، في فصل ربيع، ١٢٢١ (م / ٦١٨ هـ) احتل جنكيز ـ خان (مدينة) بلخ، وتقدم إلى

---

(١) لمعلومات وافية عن مدى ما كانت عليه هذه المرأة من نفوذ واسع النطاق، أنظر ما قلناه في هذا الشأن في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي»، ص .ص : ٢٨٤ ـ ٢٨٨ (المترجم إلى العربية).

(٢) لمعلومات عن هذه المرأة وحياتها في منغوليا، بعد أن أخذت إلى هناك، انظر، النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص. ص : ٩٤ ـ ٩٩ . (المترجم إلى العربية).

(٣) تقع في تركستان الأفغانية (المترجم إلى الانجليزية). كان جنكيز ـ خان محاصراً لقلعة نصرت ـ كوه، وتقع في منطقة الطالیقان، باقليم طخارستان. ولمعلومات أوفى عن حصار وأخذ مدينة جرجانية، انظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص .ص : ١٢٨ ـ ١٣٢ (المترجم إلى العربية).

منطقة تلكان (الطاليقان)، ثم قام بارسال فصائل من كتائب قواته الرئيسية لتقوم بواجبات خاصة، وهنا أرسل ابنه الأمير تولي (على رأس تلك الفصائل) إلى خراسان (فحمل فيها الحديد والنار على كافة أهالي اقليم خراسان).

كان جلال الدين بن (السلطان) محمد قد أفلح في تجنب الوقوع في أيدي القوات المغولية التي أنيطت بها مهمة تعقبه، والقبض عليه، بعد هروبه من اقليم خوارزم، بل إنه استطاع أن يهزم إحدى (١٢٩) فصائل جيشهم (التي أقيمت خصيصاً للايقاع به). بعد ذلك، قدم إلى غزنه (أوغزنين) في أفغانستان، حيث شرع هناك في تنظيم واعداد قوات للقيام بهجوم مضاد. فقد كان رجلاً نشيطاً وشجاعاً، ولم يكن لديه أية رغبة في أن يحاكي ما فعله والده (بالهروب من أمام المغول، عندما لاذ بالفرار ابان زحفهم المدمر). ومع ذلك، فقد انغمس في صراع (مرير) مع جنكيز ـ خان حتى دون أن يعطي نفسه وقتاً كافياً ليفكر فيه حول امكانيات القوات المغولية الشرقية، ومؤهلاتها العسكرية العالية، أو أن يفكر في قائدها، كما أنه لم يشك قط في قدرته ذاتها على مقاومة المغول. كان قراره ينبع من واقع شجاعته الشخصية، ربما كان ذلك لشعوره النابع من اقتناعه بواجبه (الديني والوطني لمقاومة الزحف المغولي)، ولكن فوق ذلك كله كان مصدره احساسه البالغ في حب المغامرة وركوب المخاطر. صدرت الأوامر (من جنكيز ـ خان) إلى شيكي ـ كوتاكو، والذي كنا قد سمعنا عنه الكثير في مجرى هذا التاريخ الذي بين أيدينا، بأن يسير بمفرزة خاصة من

القوات المغولية ضد جلال الدين، ولكنه، مع ذلك مني بهزيمة ساحقة على يد الأخير في (موقعة) بروان[1]، وأجبر على الفرار، والتراجع إلى حيث يقيم جنكيز ـ خان، في مقر قيادته (بالطاليقان) مع البقية الباقية من قواته. كانت هذه الهزيمة هي الوحيدة التي دُحِضَ فيها المغول، في طوال حروبهم جميعها. أظهر جنكيز ـ خان في هذه المناسبة عظمة العقلية التي كان يتمتع بها، فاستقبل أخبار الهزيمة بهدوء تام؛ مبدياً ملاحظته لذلك القائد المنهزم، حيث قال: «لقد تعود شيكي ـ كوتاكو أن يكون منتصراً على الدوام، ولم يذق، على الاطلاق، مرارة، الحظ العاثر؛ والآن، وبعد أن جرب قسوة الهزيمة، فإنه سيكون أكثر حذراً في المستقبل». كان جنكيز، الذي قاسى مرارتها (مرارة الهزيمة) دائماً مغرماً بتذكير قادته العسكريين (١٣٠) بتقلب الحظ، كما كان، فوق كل شيء، يقدر، في الآخرين، حق القدر، تلك الخاصية التي كان يمتلكها هو نفسه لدرجة بارزة جداً ـ (كانت تلك الخاصية هي) الحيطة والحذر. فمن هذا النوع، على سبيل المثال، (ما روي عنه) عندما سمع أخبار نجاح (قائده الكبير) جِبهْ ـ نويان (في عملياته العسكرية) ضد كوتشلوك، انه أرسل له رسالة يُذَكِّره فيها بألا يكون فخوراً بانتصاراته تلك؛ لأن ذلك التيه والغرور كان هو الذي أصاب وانـگ ـ خان، رئيس الكيرايت، وملك النيمانيين

---

(١) تقع بالقرب من غزنه (المترجم إلى الانجليزية). لمعلومات وافية عن هذه المعركة، انظر ما قلناه في هذا الشأن في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي» ص .ص : ٣١٨ ـ ٣٢٤ (المترجم إلى العربية).

تايـان ـ خان. لقد أحب جنكيز ـ خان شيكي ـ كوتـاكو لصفـاء تفكيره، ولعقليته المتفتحة لكل الأشياء الجديدة، ولشجاعته، والتي كان قد أعطى برهاناً على ذلك خلال السنوات الأولى من حياته (مع جنكيز ـ خان). ففي ذات مرة، وفي حدة فصل الشتاء، عندما أصبح معها جنكيز ـ خان يسير بمخيمه من خلال ثلوج متراكمة وسط طقس تنهمر فيه الثلوج بشكل كثيف، رأى القوم قطيعاً من الغزلان تمر من أمام المخيم، على بعد مسافة ليست بالبعيدة. لمح شيكي ـ كوتاكو، والذي كان حينئذٍ في الخامسة عشرة من عمره، تلك الغزلان، فطلب اذناً من رئيس مخيمه بالسماح له بأن يذهب خلف تلك الحيوانات، إذ لم تكن تستطيع الجري بسرعة، نظراً لعمق الثلج الذي كانت تمر به في طريقها. وفي المساء، عندما توقف أصحاب المخيم لقضاء ليلتهم تلك، افتقد جنكيز ـ خان شيكي ـ كوتاكو، (ولم يره بين القوم)، وعندما أخبر عن سبب تغيبه غضب على قائد المعسكر ذلك، لكونه سمح لصبي صغير بمغادرة كتيبة ذلك المعسكر، في مثل هذا الطقس السيء. إلا أنه في تلك اللحظات بالذات ظهر لهم شيكي ـ كوتاكو، معلناً بأنه قد قتل من الثلاثين غزال سبعة وعشـرين رأساً. وقـد وجد القـوم أجسادها (١٣١) ملقاه على الثلج فيما بعد. لهذا، فقـد أحب جنكيز ـ خان عقل ذلك الصبي الجسور، فأصبح منذئذٍ محباً له أكثر فأكثر.

بعـد أن هَدَّأَ من روع شيكي ـ كـوتاكـو وارتخت أعصابـه المتوترة، بدأ جنكيز ـ خان في اتخاذ التدابير الكفيلة بازالة ما سببته

(تلك الهزيمة من) آثار (على سمعة المغول العسكرية). كانت طريقة جلال الدين الوحيدة أمامه، لكي يحسن استخدام انتصاره ذاك، هي أن يقتل أسراه، الذين وقعوا تحت يديه من المغول، شر قتلة. إذ أنه لم يستطع أن يوقف ذلك الخلاف والشقاق الذي شب بين كبار قادته العسكريين، ولا حتى أن يضع حداً لما نشب من تنافس شعوبي بين صفوف جيشه المتباين الأصول والمشارب، أو أن يمنع من ازدياد التهاب عنصر العصبية فيما بينهم. وقد أماط اللثام مرة أخرى عن فحوى شخصيته، إذ أنه لم يكن سوى رجل جسور مغامر؛ وليس قائداً عسكرياً حقيقياً. كانت آنذاك قد سقطت تلكان في أيدي المغول، فأصبح بذلك جنكيز ـ خان دون عمل يعوقه ليتقدم، على رأس الأغلبية الساحقة من قواته، ضد جلال الدين. وفي أثناء مسيرته (لمقابلة الأمير الخوارزمي) مر بمكان المعركة التي جرى فيها القتال في بروان (بين جلال الدين وقوات شيكي ـ كوتاكو) وبعد أن تفحص مراكز القوات بعناية أنب قائده، لأنه أساء اختيار مركز قواته، عندما نازل أعداءه. تراجع جلال الدين من أمام جنكيز ـ خان، الذي أصبح لزاماً عليه أن يواصل ملاحقته ويسير على أثره حتى (ماء نهر) السند. لقد جرت المعركة الحاسمة على ضفاف ذلك النهر في فصل خريف عام ١٢٢١ (م / ٦١٨ هـ). قاد جنكيز ـ خان الجيش المغولي بنفسه، أما ما يتعلق بجلال الدين، الذي لم يستطع أن يعبر النهر، ولا حتى أن ينقل خزينته وعائلته إلى الجانب الآخر من ذلك النهر قبل مجيء المغول، فقد مني بهزيمة ماحقة. إذ أنه لا بطولته، (١٣٢) ولا

حتى شجاعة أصحابه المرافقين له أصبحت ذات قيمة في ذلك الموقف. فقد سُحِقَ الجيش الإسلامي على أثر هجوم قام به الحرس الشخصي الخاص، والمكون من مجموعة من الأبطال الشجعان الأشاوس، والذين كان جنكيز ـ خان قد تقدم بهم في اللحظة الحاسمة. وبعد أن وجد نفسه محاطاً من ثلاث جهات بفرسان المغول، قفز جلال الدين بفرسه إلى نهر السند، فاستطاع الوصول إلى شاطىء النهر المقابل، تاركاً وراءه زوجاته وأطفاله (ليقعوا أسرى في أيدي المغول)[1] المنتصرين. وقد أخبرنا بأن جنكيز ـ خان أعجب غاية الاعجاب بجرأة عدوه وبعمله الجسوري هذا وقال مخاطباً أبناءه بأنهم لا بد أن يكونوا على أتم الاستعداد لمحاكاة ذلك المسلم المحارب[2].

وبما أن معركة نهر السند كانت هي المعركة الوحيدة، والتي تقابل المسلمون وجهاً لوجه، مع جنكيز ـ خان نفسه، في عراك مفتوح، في خلال فترة الحرب تلك جميعها، فقد جعلت جلال الدين، من وجهة نظر الروايات المغولية، يحتل المكانة الرئيسية الأولى بين أعداء جنكيز ـ خان كافة. فقد نسوا كل شيء يتعلق بالشاه الخوارزمي محمد، والذي كان دوره (في هاتيك الحروب)

---

(١) وقد قيل بأن جلال الدين عمد إلى إغراق نسائه وأطفاله في النهر لئلا يقعوا أسرى في أيدي الأعداء، انظر التفاصيل في: النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص .ص : ١٥٨ ـ ١٥٩ (المترجم إلى العربية).

(٢) حول هذه المعركة انظر ما قلناه في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي» ص .ص : ٣٢٤ ـ ٣٢٦ (المترجم إلى العربية).

غير مشرف (على الاطلاق، بل كان مخزياً وعاراً الحقه على نفسه)، ولكنهم عندما يأتي الوقت للتعبير عن ولائهم لذلك الْعَلَمِ القديم، الذي قادهم إلى مثل هذه الانتصارات المجيدة، فإن المغول في هذا الزمن يتذكرون جلال الدين، فيتقدمون بالشكر الجزيل لروحهم الحارسة للهزيمة التي مني بها (ذلك الأمير الخوارزمي).

كان الأمير تولي[1]، في نفس الوقت، قد قاد حملته (المسعورة) وقام بأداء الواجب الذي أنيط به بسرعة مذهلة ضد اقليم خراسان، ففتح في ذلك الاقليم المدن الثلاث، الكبرى، مرو، ونيسابور، وهرات، بعدها قرر جنكيز ـ خان (١٣٣) العودة إلى وطنه. كانت خطته الأولى تقضي بأن يأخذ خط العودة عن طريق الهند، (فجبال) الهملايا، ومن ثم التبت، إلا أن الظروف كانت واقفة أمامه، ضد مخططه ذلك (ممثلة في جبال الهملايا الشاهقة ووعورة الطريق). إذ أن الممرات الجبلية كانت مغطاة بالثلوج، كما أن العرافين والكهان، بما فيهم يليو ـ تشئو ـ تسئاي، نصحوه، بأن يمسك نفسه (ويقلع عن فكرة) دخول الهند، فكان جنكيز ـ خان دائماً يعيرهم (العرافون والكهان وذوو الرأي في القوم) أذناً صاغية، وأخيراً جاءته الأخبار تفيد بأن التنگوت قاموا بثورة (ضد سلطته). وبدلاً من ذلك فقد قضى صيف عام ١٢٢٢ (م /٦١٩هـ) في الاقليم الواقع في المناطق السفلية من (جبال)

---

(١) وهو الابن الأصغر من بين الأبناء الكبار الأربعة، من زوجته الكبرى «برته» (المترجم إلى العربية).

هندوكش ذي الهواء المعتدل.

ربما أن العمليات العسكرية (المغولية) على (ضفاف نهر) السند وطريق العودة التي سلكت من خلال (منطقة) أفغانستان الشمالية، رغم أنه كان ما يزال هناك العديد من الحصون والقلاع الجبلية المتناثرة، لم تفتح بعد، تعتبر واحدة من أبرز المنجزات التي حققها ذلك الفاتح العظيم، لأن الجيش المغوليَ، في حقيقه الأمر على الرغم مما يعترضه من مشاكل في غاية الصعوبة، فرضتها عليه الظروف المحلية، يوجهه في ذلك قائده العظيم، لم يجد نفسه في أية لحظة أنه أصبح تحت ظروف عصيبة محدقة به.

اشتهر فصل ربيع ذلك العام ١٢٢٢ (م / ٦١٩ هـ) بالزيارة التي قام بها الراهب الطاوي المشهور تشئنگ ـ تشئون، الذي جاء من الصين حتى وصل معسكرات جنكيز ـ خان (في الغرب). فقد سمع الأخير، منذ وقت طويل، عن حياة هذا الناسك الورع، فاستدعاه منذ وقت مبكر من عام ١٢١٩ (م / ٦١٦ هـ) فيما يبدو، على أمل أن يحصل منه على «الدواء للحياة الدائمة» إذ كان (جنكيز ـ خان) قد أعلم بأن الطاويين، أتباع الحكيم الصيني الراهب لاو ـ تسه - Lao - Tse (١٣٤) كانوا منهمكين في (محاولة) اكتشاف «جوهر مبدأ الوجود» وأنهم كانوا ضليعين في (أعمال) السحر. ولكن الفيلسوف الشاعر، تشئنگ ـ تشئون، كان يرجع في حقيقة الأمر إلى تلك المدرسة الطاوية، التي تعتبر الطاو («جوهر مبدأ الوجود») في عالم الروحانية، والتي كانت ترفض الكيميا المادية القديمة، التي كانت شغل المدارس الأخرى الشاغل.

كان الناسك الصيني يستقبل استقبالاً حافلاً، ويُشَرَّف بُكَرَّم في كل منزل ينزل به في خلال سفرته الطويلة المملة تلك (منذ بدأ رحلته من الصين حتى قابل الخان المغولي) وذلك نزولاً عند أوامر الخاقان. وعندما وصل إلى (مدينة) سمرقند ظل بها فترة طويلة للراحة من (عناء السفر الذي تكبده) طوال رحلته، حيث جاءه هناك رسول موفد من قبل جنكيز ـ خان يحمل إليه الرسالة التالية: «أيها الرجل الورع! لقد أتيتَ من أراضي طلوع الشمس، متكبداً الشدائد والأهوال العظيمة في خلال سفراتك التي قطعت فيها الجبال والوهاد متحملاً أتعاباً وانهاكاتٍ شديدة جداً. إنني الآن عائداًفي طريقي إليك ، انتظر بفارغ الصبر أن أسمع منك تفسير وشرح الطاو. فلا تكن متكاسلاً فتتقاعس عن الخروج (من سمرقند) وتقابلني».

لذلك فقد خرج تشئنگ ـ تشئون (من سمرقند) وبدأ رحلته (الأخيرة) باتجاه معسكر الامبراطور، الذي كان في ذلك الوقت مقيماً إلى الجنوب من (منطقة) هندو ـ كش، ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى (مخيم الخان)، وَمَثُلَ بنفسه أمام جنكيز ـ خان. قام الفاتح المهيب باستقبال الراهب الطاوي معبراً له عن شكره وتقديره وحياه بالكلمات التالية: «كان قد استدعاك حكام آخرون، ولكنك رفضت دعواتهم، والآن وقد جئت على بعد مسافة أكثر من عشر آلاف يي (حوالي ثلاثة آلاف ميل)، فهذا يرضيني (١٣٥) بشكل يفوق الوصف». طلب (جنكيز) بأنيجلس تشئنگ ـ تشئون، وأمر بأن يحضروا له مرطبات؛ بعد ذلك توجه إلى الراهب

مخاطباً إياه قائلاً: «أيها الرجل الورع! الآن وقد أتيت إلى هنا من مسافات شاسعة، فما هو يا ترى الدواء الذي تمتلكه وتستطيع أن تقدمه لي لحياة الوجود السرمدية ؟ » (وهناك ذكر الناسك على أنه «يوجد طرق عديدة لحفظ حياة الإنسان، ولكنه لا يوجد أي دواء يحفظ للمرء حياة أبدية». ومع ذلك، فإن جنكيز ـ خان لم يظهر، بأي حال من الأحوال ولا بأي شكل من الأشكال علامات لامتعاضه ،أو أنه شرع يعبر عن خيبة أمل،ولكنه على العكس من ذلك، فقد امتدح الحكيم الصيني لوفائه، وإخلاصه، (وفوق ذلك كله) صراحتة في ابداء الرأي. على الرغم من أنه قد عين يوم آخر (للقاء بين جنكيز ـ خان والناسك الصيني) ليتم فيه شرح معتقده إلى الخان بشكل أفضل ومفصل، إلا أن ذلك اليوم قد أجل إلى وقت آخر مناسب، نظراً لما كانت عليه الأوضاع، وما كان يتطلبه الموقف الحربي من القيام بتنفيذ بعض المسائل العسكرية، إذ كان ما يزال هناك العديد من فصائل جيش الأعداء العسكريين ترابط في هاتيك النواحي الجبلية.

(أما الراهب الصيني) تشئنگ ـ تشئون فقد أعطي الأذن بأن يعود إلى (مدينة) سمرقند، وقد قام بزيارة جنكيز ـ خان مرة أخرى في فصل خريف عام ١٢٢٢ (م / ٦١٩ هـ)، وذلك عندما كان الامبراطور قد استأنف رحلة العودة في طريقه إلى منغوليا، فلقد سار ذلك الفيلسوف (الصيني) مصاحباً لمراكز مخيمات معسكرات المغول (ابان رحلة العودة). إذ كان الامبراطور شديد الملاحظة والاعتناء والاحترام لذلك الفيلسوف خلال الأيام التي استغرقتها

رحلة العودة، إذ كان يدعوه «كل يوم ليحضر مائدة الطعام» كما كان يرسل له النبيذ، والشمام، والبطيخ، وما شاكل ذلك من المرطبات، والأشياء الأخرى المنعشة. وفي الحقيقة، فقد تقابل جنكيز ـ خان مع الحكيم الصيني، وحضر حديثاً له ثلاث مرات او كان في كل مناسبة من هذه المناسبات يستقبله في مخيمه تكون قد أعدت مسبقاً خصيصاً لهذا الغرض، بحيث لا يكون هناك نساء بين الحاضرين (١٣٦) وكان الخان يأمر تاي شي ـ أخاي ـ Taishi - Akhai (وهو رجل قرا ـ خطائي، والذي كان الحاكم لمنطقة سمرقند) بأن يكرر إليه (أي إلى جنكيز ـ خان) باللغة المغولية كلمات السيد (الديني). فقد كانت هذه الكلمات مقبولة لديه بشكل يفوق الوصف، وفي ليلة التاسع عشر من الشهر، وكانت ليلة ذات سماء صافية، قام جنكيز مرة أخرى، باستدعاء الرجل الحكيم برغبة صادقة منه، فأخذ ذلك السيد الديني وبدأ يشرح له بالتفصيل فحوى تعاليمه؛ فكان الخان شديد البهجة عظيم السرور. وفي الثالث والعشرين استدعاه مرة ليأتي إليه في خيمته، فاستقبله بنفس ذلك الشعور الودي، وعلامات التبجيل، وأخذ ينصت إلى ما كان يقوله ذلك السيد الديني، ويبدي له دلائل السرور، فيصدر أوامره إلى أولئك الحاضرين بأن يدونوا كلماته، ثم إنه أمر أيضاً بأن يكتب كل ما يقوله باللغة الصيَنية إلى جانب اللغة المغولية، وذلك لئلا تنسى أقواله. إذ قال مخاطباً أولئك الحاضرين: «شن ـ سين Shen - Sien أوضح لي كيف يمكن الحفاظ على الحياة في ثلاث مناسبات، فلقد وقرت كلماته في ذهني، فأودعتها في الجزء الأعمق من قلبي، إذ يجب ألا

تعلن على ملأ من الناس في العالم الخارجي».

كان الامبراطور المغولي شديد التشوق جداً في حديثه مع الفيلسوف الصيني، والذي رآه مرات عديدة، فيسائله أسئلة كثيرة متشعبة، فمثلاً كان يسأله (حتى) عن طبيعة (ومسببات) الرعد، فيصغي إليه دائماً بكل حواسه، ويعي كل ما كان تشئنگك ـ تشئون يقوله. وفي مناسبة تالية استدعى جنكيز ـ خان أمراءه وقادته العسكريين، ورجال بلاطه في اجتماع عام لهم، وخاطبهم قائلاً: «إن الصينيين يبجلون شن ـ سين كما تفعلون أنتم تماماً تجاه السماء، وأنني الآن، وأكثر من (١٣٧) أي وقت مضى، لمقتنع بأنه فعلاً رجلٌ مُبَجَّلٌ».

وهناك قدم تقريراً حول محادثات الفيلسوف، وواصل حديثه قائلاً: «إن كل ما قاله لي كان موحى (إليه) من السماء، ولذلك فيلقم كل فرد منكم، وليدون ذلك كله في قلبه».

أقام (جنكيز ـ خان) مخيمه الفصلي الشتوي لعام ١٢٢٢ (م / ٦١٩ هـ) في سمرقند (ثم رحل عنها بعد ذلك)؛ وما أن جاءت نهاية شهر يناير ١٢٢٢ م / الموافق لشهر ذي الحجة من عام ٦١٩ هـ) حتى أصبح في الجانب الأيمن لنهر سير[١]. وفي شهر مارس (الموافق لشهر صفر سنة ٦٢٠ هـ) أقام مخيماته العسكرية في السهوب الواقعة على ضفاف نهر تشير تشيك[٢]،

(١) أي الضفة الشرقية من نهر سيحون (المترجم إلى العربية).
(٢) هو نهر طاشكند، (المترجم من الروسية إلى الانجليزية).

وهناك وقع من على صهوة جواده، فكاد أن يقضي عليه ذلك الحيوان الوحش[1]. استغلها تشئنگ ـ تشئون فرصة طيبة له، فأخذ يحث الامبراطور بألا يكثر من خروجه وراء الصيد في ذلك الوقت، فقد كان حينئذٍ متقدماً في السن (كان يناهز السبعين). حيث خاطبه قائلاً له: «إن سقوطك من على صهوة الجواد لهو دلالة من السماء، كما أن ذلك الخنزير البري لم يتجاسر على التقدم (نحوك) إلى مكان أقرب، علامة على حماية السماء لك». فأجاب جنكيز ـ خان قائلاً له: «لقد فهمت ذلك بنفسي، فنصيحتك طيبة جداً؛ (ولكننا) نحن المغول قد تعودنا، منذ سنوات عمرنا المبكرة، على الصيد، والرمي من على صهوات (الجياد) فلم نعد نملك القدرة على التخلص من هذه العادة. ومع ذلك، فإنني قد جعلت كلماتك في قلبي».

بعد ذلك مباشرةطلب تشئنگ ـ تشئون السماح له بالعودة إلى وطنه؛ فغادرها، مغادرة لا رجعة بعدها من لدن حضرة الامبراطور المغولي العظيم، إذ أنه، وإن كان يولي جل اهتماماته (١٣٨) بالحروب التي يخوضها ويعيش وسط حياتها الصاخبة، ويدير معمعتها المحتدمة مع جلبة وضجيج معسكراته الحربية، كان بارعاً في كيفية تعامله مع ذلك الفيلسوف بشكل رائع، ومقدراً له غاية التقدير، ومعجباً به غاية الإعجاب.

في فصل ربيع عام ١٢٢٣ (م / ٦٢٠ هـ) التحق بجنكيز ـ

---

(١) هو خنزير بري حيث كان الخان يطارده لاصطياده (المترجم إلى العربية).

خان، وهو ما يزال مقيماً على ضفاف نهر سير كل من ابنيه تشغتاي، وأوگتاي، اللذان كانا قد شتيا في منطقة مصب زرفشان ـ Zerafshan، فكانا يقضيان الوقت في الصيد بالصقور[1]. وقد قام المغول هناك بتنظيم صيد لحمر الوحش على نطاق كبير جداً، أجروه على أرض السهوب الواقعة في سهل كولان ـ باشي[2]، حيث كانت حيوانات حمر الوحش قد حاشها، من سهوب اقليم القبتشاق جوتشي (بن جنكيز ـ خان الأكبر) والذي قدم لزيارة والده، بعد غياب طويل؛ وإلى جانب حمر الوحش تلك، جاء جوتشي يسوق أمامه أيضاً هدية (لوالده ممثلة في) عشرين ألف رأس حصان، من الجياد البيض[3].

سار جنكيز ـ خان باتجاه الشرق، حيث قضى (أشهر فصل)

---

(١) أي في المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر سيحون، وبالتحديد التقريبي على الأراضي الواقعة بين مدينتي اترار في الشمال وطاشكند في الجنوب (المترجم إلى العربية).

(٢) أي في منطقة حوض نهر تشو إلى الغرب من بحيرة بلكاش، وإلى الشرق من مدينة أترار (المترجم إلى العربية).

(٣) من المعروف أن جوتشي خان لم يأت لزيارة والده، كما يذكر المؤلف هنا، بل ظل في أراضيه الأميرية وذلك لوجود نوع من الفتور في علاقته مع والده، هذا إن صحت الروايات التي تتردد في بعض الأوساط التاريخية حول هذه المسألة؛ فلم ير أي واحد منهما الآخر على الاطلاق، منذ بداية الحملة المغولية ضد أراضي الشرق الإسلامي، عندما قسم جنكيز ـ خان كتائب قواته إلى أربع فصائل كبرى، قاد جوتشي منها القسم الثالث إلى المناطق السفلية من نهر سيحون، وانتهى بمدينة جَنْد. ثم شارك في حصار وأخذ جرجانية، عاصمة الخوارزميين، بعدها غادر إلى سهوب القبتشاق، وظل هناك حتى مات، قبل وفاة والده بستة أشهر (المترجم إلى العربية).

صيف عام ١٢٢٤ (م /٦٢١هـ) على (ضفاف نهر قرا ـ ارتيش)، ولم يصل إلى أراضي مخيماته في منغوليا إلا في السنة التالية. كان قد قابله، وهو على حدود أراضي النيمان السابقة، أميران (من أحفاده) هما قبلاي وهولاكو، ابنا ابنه الأصغر تولي، والذي قدر للأول منهما أن يصبح خاقاناً أعظماً، وامبراطوراً في الصين، بينما أصبح الثاني حاكماً لإيران[١].

أخذ الأميران الصغيران إلى خارج المعسكر، لإجراء أول عملية صيد يقومان بها. وقد جرت العادة، حسب التقاليد والأعراف المغولية المتعارف عليها في مثل هذه المناسبات، بأن يمسح الأصبع الأوسط، من يد الصبي الصغير، الذي أخذ ليقوم بأول صيد له، بقطعة لحم ودهن؛ قام جنكيز ـ خان شخصياً بإجراء طقوس الصيد هذه لحفيديه الصغيرين. عاد أبناء جنكيز ـ خان الثلاثة[٢] (١٣٩) معه، أما الابن الأكبر جوتشي فقد ظل في سهوب اقليم القبتشاق.

وهكذا انتهت تلك الحملة العسكرية، التي لعبت دوراً هاماً (ليس فقط) في تاريخ (قارة) آسيا، بل وفي تاريخ العالم في

---

(١) أسس قبلاي قا آن سلالة حكمت في الصين، باسم : يوان ـ تشه، استمرت من سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، حيث اعتلى العرش المغولي، إلى سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م . أما هولاكو، فقد أسس هو الآخر أسرة حاكمة في إيران عرفت في التاريخ باسم (الايلخانيين) سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، وهي السنة التي أسقط فيها بغداد، وانهى حكم بني العباس (المترجم إلى العربية).

(٢) وهم تشغتاي، وأوكتاي، وتولي (المترجم إلى العربية).

مجموعه؛ حيث أنها أصبحت نقطة البداية للسيطرة المغولية على العالم الإسلامي.

عاد جنكيز ـ خان إلى وطنه، حتى بدون أن ينتهي من فتوحاته لأراضي خوارزم شاه. إلا أن قوة المغول (وسيادتهم) أضحت متوطدة وراسخة جداً في إقليم التركستان. لذلك فقد جيء بهيئة إدارية جديدة (لتقوم) برعاية شؤون هذه المقاطعة، فأخذت تستعيد نشاطها بسرعة، وتزيل عنها ما عانته من ويلات الحرب[1].

---

(١) أصيب اقليم التركستان الإسلامي وسكانه بحروب وويلات متتالية، استمرت طوال السنوات الأخيرة من القرن السادس وخلال العقدين الأولين من القرن السابع الهجريين / الثاني والثالث عشر الميلاديين، في شكل حلقات متتابعة؛ فكانت الحروب الأولى في شكل ثورات قام بها السكان ضد السلطة القرا خطائية القائمة في بلاساغون وبتحريض من سلطات جرجانية الخوارزمية؛ ثم تلاها مجيء السلطان محمد خوارزم شاه، إلى أراضي ما وراء النهر والتركستان، وما قام به من حركات قمع شديدة ضد المسلمين، فقتلهم كسكان سمرقند، واحرق أراضيهم وممتلكاتهم، لئلا تقع حسب زعمه، في يد كوتشلوك ـ خان ورجاله النيمانيين. ثم طمَّ ذلك جمعية حركة الأخيرين الاضطهادية التعسفية، وسياستهم الجائرة ضد المسلمين الذين أجبروا على اعتناق المسيحية أو البوذية، وكان مصير من لم يفعل ذلك القتل. فكان يقدم المسلمون وفي مقدمتهم أصحاب العمائم، إلى المقصلة، فوجاً بعد فوج، وما الشيخ العلامة، علاء الدين محمد الخوطاني، إلا واحد منهم. ومع الأسف، فقد وجد المسلمون في حكم المغول متنفساً لهم ورحمة أنقذتهم من تعسف واضطهاد كوتشلوك الوثني؛ وظلم واستبداد خوارزم شاه المسلم. لمعلومات تفصيلية حول هذا الموضوع انظر كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي» ص. ص: ٢٠١ ـ ٢٠٦ (المترجم إلى العربية).

ـ ١٤ ـ

«الحملة العسكرية الأخيرة في التنگوت وموت جنكيز ـ خان»

(١٤٠) قضى جنكيز ـ خان شتاء عام ١٢٢٥- ١٢٢٦ (م / ٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ) والصيف الذي تلاه في مقر معسكراته ومخيمات قومه على (ضفاف) نهر تولا[١]، حيث كانت تقام آنذاك، وفي عين المكان خيمة سيده في سابق الأيام وانگ ـ خان. بلغ الامبراطور في هذه اللحظة القمة من مجده العظيم. حيث أصبح الآن يتربع على عرش امبراطورية هائلة (مترامية الأرجاء)، ذات تنظيم محكم، ومطيعة رهن أرادته، كما أضحى قائداً لجيش مخلص وفيّ، اشتهر بانتصاراته العديدة الباهرة، كما أضحى آنئذٍ محاطاً برفاق أوفياء مخلصين، والذين كانوا قد عملوا (بكل جهد وتفان) خلال السنوات العديدة الماضية ليشيدوا صرح بنيان امبراطوريته. لم يكونوا من رجال البلاط ذوي التملق والرياء، أو

---

(١) نهر تولا هو فرع من نهر أورخن، والذي هو بدوره رافد (للنهر الكبير) سلنگا، (المترجم إلى الانجليزية).

من طبقة العبودية الأرقاء، وخدم المنازل، ولكنهم كانوا رجالاً ثقاة يعول عليهم في مهام وملمات الأمور، مؤهلون لأن يكونوا منفذين للأعمال التي تناط بهم أو يندبهم للقيام بها. أصبح الآن في مقدوره أن يعيد إليهم كلماته التي خاطب بها ذات مرة بكورتشي ـ نويان: «إنك أنت وموكلي كلاكما ساعدتماني فجعلتماني أقدم على انجاز عمل ما يجب علي أن أفعله حقيقة، كما كنتما، تردعاني، وتؤنباني، فترفعا بيديّ (١٤١) عن أن أقوم بعمل شيء كان من الخطأ فعله، فلقد كان بسبب مثل تصرفكما الحكيم هذا وصلت إلى المكانة المرموقة (تبوأت المكانة العالية هذه)». كان ابنه الأكبر جوتشي وحده هو الذي تسبب في ايجاد مناسبات ذات مشاكل لوالده. كان جوتشي ميالاً لأن يظل بعيداً في منأ عن والده وعن الامبراطورية. كان طموحه يمليء عليه أن يشق لنفسه سبيلاً مستقلاً يكون له فيه مملكته الخاصة به، والتي كانت ستشمل جزءً من تلك الأراضي المفتوحة حديثاً. ففي خلال فترة الحروب التي خاضوها ضد خوارزم شاه أظهر جوتشي تذمره وعدم رضاه للسياسة التي كان والده ينهجها؛ كما لم يكن على اتفاق مع تلك التي سار عليها أخوته الآخرون، الذين كانوا أكثر طاعة منه هو لوالدهم. فبعد أن انتهت الحرب (ضد أراضي المسلمين في شرقهم، وخاصة ضد أراضي السلطان محمد وعاصمته جرجانية في اقليم خوارزم) استغل فرصة وجوده بعيداً عن مقر معسكر ومخيمات والده في داخل أراضيه الامبراطورية، فبدأ يظهر علامات التمرد والعصيان على شكل مكشوف. ولكن رغم ذلك، فيظهر أن

جوتشي كان السحابة السوداء الوحيدة التي كانت تكفهر في سماء ليالي حياة جنكيز ـ خان

بقي هناك مسألة معاقبة ملك التنگوت، الذي كان قد رفض أن يرسل قوات عسكرية مساعدة (عندما طُلِبَ منه ذلك، عشية حملة المغول ضد أراضي المسلمين الشرقية). لذلك فقد قطع جنكيز ـ خان وعداً على نفسه، وقت رحيله على رأس حملته العسكرية ضد الغرب، بأن يعاقب شعب التنگوت، والآن حان الوقت للوفاء بذلك الوعد. في سنة ١٢٢٦ (م / ٦٢٣ هـ) استدعى كافة قواته وحشدها لتقوم بحملة ضد التنگوتيين. إلا أنه، رغم ذلك، لم يكن دافع التعطش للانتقام وحده هو الذي حفزه لأن يتحارب مع التنگوت، لأنه كان هناك أسباب أخرى وجيهة تكمن وراء اخضاع ذلك القطر.

بعد انسحاب جنكيز ـ خان من أراضي الصين (١٤٢) استطاع الصينيون الكنز أن يستعيدوا بنجاح كبير احتلال جزء كبير من أراضيهم (التي كان المغول قد فتحوها)، وكان الحاكم المغولي النائب في الصين، موكلي، قد دخل معهم في صراعٍ شاقٍ، ومرير على مدى السنوات الطوال السابقة. فقد عرف جنكيز ـ خان بأن حقيقة العوامل الجغرافية جعلت من الصعوبة بمكان، إذا لم يكن من المستحيل، أن يوجه لهم الضربة القاضية طالما ظلت قوة المغول لم تترسخ بشكل ثابت، على أرض التنگوت، والتي منها يصبح شن الهجوم على عاصمة الكن مسألة سهلة. بناءً على ذلك، فقد اعتبر حرب التنگوت هذا هاماً جداً لدرجة أنه، رغم

سنه المتقدم، تقلد شخصياً مسألة القيادة العامة للجيش (المغولي)، فلم يعول أمر هذه الحرب إلى أي واحد من قادته العسكريين (على الرغم من براعتهم، وحسن تدبيرهم في الشؤون العسكرية، مهما كبر أو تضخم عدد جيشهم). إن إقدامه على اتخاذ هذا القرار ليظهر (بجلاء ووضوح تامين) إلى أي مدى كان ما يزال متمالكاً لقواه الحسية والجسدية.

بدأت تلك الحملة العسكرية في خريف عام ١٢٢٦ (م / ٦٢٣ هـ). رافقه في رحلته الحربية هذه كل من زوجته يسوى وكافة الأمراء. كانت بداية العمليات العسكرية لهذه الحملة بداية ناجحة. لكن (ذات يوم من أيام) فصل الشتاء، وبينما كان جنكيز خارج المعسكر للصيد، جمح به جواده، عندما أخافه أحد الخيول البرية، التي ما تزال موجودة في تلك الأجزاء، فألقى فارسه العجوز أرضاً. ونتيجة لذلك، شعر جنكيز بأنه مريض جداً، حتى أن الأمراء والقادة العسكريين المتقدمين في السن، عقدوا لهم اجتماعاً لمناقشة ما يجب اتخاذه من خطوات (على أثر مرض الخان). وهنا أدلى أحد القادة برأيه قائلاً: «إن التنگوتيين أناس أهل مقام (لا أهل تنقل وترحال كالبدو) يعيشون في مدن، فلا يستطيعون أن يحاولوا الرحيل بعيداً. وسنرحل الآن ونعود إلى أرضنا، وعندما يتماثل الخاقان إلى الشفاء، سنعاود المجيء مرة ثانية إلى هنا». تبنى أصحاب هذا الاجتماع وجهة النظر هذه، التي كانت تمثل نموذجاً من العقلية البدوية؛ (١٤٣) إلا أنه عندما أعلم جنكيز ـ خان بهذا الحديث (الذي تم الاتفاق عليه)، لم

يباركه، ورفضه. (وهنا قال:) «إننا إن تركناهم وعدنا فإن التنگوتيين، بكل تأكيد، سيظنون أننا نخشاهم. سوف أتماثل إلى الشفاء هنا. وسنبدأ أولاً بارسال رسول إليهم، وسنعرف ما نوع الإجابة التي نتلقاها منهم. «لذلك فقد أرسلت الرسالة التالية، إلى ملك التنگوتيين: «بدأت باعطاء المواثيق بأنك ستكون عضدي الأيمن، ولكنني عندما سرت (على رأس قواتي) ضد المسلمين، رفضت أن تتبعني، وأضفت، إلى عدم الطاعة لنا، اهانة ضدنا. والآن، وبعد أن أخضعت المسلمين فإنني أطالبك بالتكفير عن خطيئتك تلك». كانت اجابة الحاكم التنگوتي مصاغة بأساليب مهينة، بحيث أنها أثارت حنق وغضب جنكيز ـ خان الشديدين. وهنا صرخ مستنكراً (لقرار كبار رجاله بالعودة): «هل من الممكن لنا أن نذهب بعد الآن ونتركهم؟ سوف أموت، ولكنني سوف أجبره على الاجابة (أي سوف أدمره)، وإنني إذ أقسم على ذلك بالسماء الخالدة». برهنت هذه الكلمات على أنها تنبوء صادق: فقد دمر عدوه، ولكنه توفي أثناء احتدام العمليات العسكرية.

كما كان وضعه في فترات العمليات العسكرية السابقة، فلم يقم فقط بقيادة قواته الرئيسية في ميادين المعارك القتالية، وعمليات الحصار، بل لقد أدار كافة العمليات الحربية في جميع ميادين مسرح الحرب، موجهاً الكتائب والفصائل العديدة المختلفة إلى تلك النقاط، وضد تجمع العدو، وذلك حسبما يراه هو إن كانت هذه الجهة أو تلك الجبهة أكثر أهمية من الأخرى. ولقد قام التنگوتيون بمقاومة صامدة (وعنيدة في صراعها مع العدو وصد

عادية القوات المهاجمة وكبدوهم خسائر كبيرة جداً)، إلا أنه (رغم ذلك) أخذت مدنهم تتساقط، في أيدي المغول، واحدة تلو الأخرى، و(١٤٤) أخذت قواتهم تتكبد الهزيمة بعد الهزيمة على أيدي جنكيز وقادته العسكريين. فبعد أن تم لهم احتلال (مدينة) لينگ تشو Ling - Chow تقدم الجيش وضرب الحصار على (مدينة نينگ ـ هيا ـ Ning - Hia العاصمة التنگوتية[1]. أما جنكيز فقد قضى (أشهر) صيف عام ١٢٢٧) م / ٦٢٤ هـ) في اقليم تسئينگ ـ شوي ـ سين Ts'ing - Shuei - Sien إلى جانب نهرسي ـ كيانگ ـ Si -Kiang، ليس بعيداً عن مدينة تسيئنگ ـ تشو.

هناك، وفي شهر أغسطس، من عام ١٢٢٧ (م / الموافق شهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ) وافى الأجل المحتوم الامبراطور العظيم. كان يبلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة، وكان قبل ذلك بمدة قصيرة فقط قد جاءته الأخبار مفادها أن ابنه الأكبر جوتشي قد وافاه الأجل. كان (جنكيز ـ خان) شاعراً باقتراب الموت، الأمر الذي جعله يستغل الوقت لكي يصدر أوامره وتعليماته الأخيرة. كان تولي (ابنه الأصغر) المفضل إليه هو الوحيد الذي حضر وفاة والده من بين بقية الأمراء الآخرين . فقد كشف جنكيز ـ خان له وللقادة العسكريين الحاضرين، النقاب عن أسرار مخططه، الذي كان قد رسمه لحملته العسكرية التي كان ينوي القيام بها ضد الكنز، كما أعطى أوامره (الأخيرة) التي تقضي بأنه عندما تستسلم

---

(١) كلا المدينتين تقعان على (ضفاف) نهر هوانگ ـ هو - Hwang - Ho ، في ولاية كانسو - Kansu (المترجم إلى الانجليزية).

عاصمة التنگوت (للمغول) يجب أن يقتل الملك مع كافة أتباعه الأقربين، كما يجب أن يظل خبر وفاته في طي الكتمان حتى يتم لهم ذلك. (وهنا) يقول رشيد الدين رحل من هذه الحياة الفانية، وترك وراءه عرش الامبراطورية لعشيرته المجيدة[1].

حملت جثة جنكيز ـ خان إلى منغوليا، إلى حيث تقع مراكز معسكراته الدائمة، حيث تم هناك (١٤٥) اعلان وفاته، فنعاه أبناؤه وزوجاته وكافة القادة العسكريين الكبار؛ بعد ذلك أودعت جثته في داخل جبل بورقان ـ قلدون في نفس المكان الذي كان قد عينه هو بنفسه (لأن يكون موضع قبره) عندما كان حياً. فقد كان ذات مرة، وبينما هو خارج المنازل، بحثاً عن الصيد، على أرض ذلك الجبل، جلب انتباهه شجرة كانت تقف وحيدة هناك. فأحبها، وظل جالساً تحت ظل أوراقها الوارفة لفترة من الوقت مستغرقاً في حلم يقظة بهيج. قال مخاطباً أولئك الحاضرين حوله: «ان هذا المكان هو اللائق لأن يكون مكاناً لمثواي الأخير، فليكن ذلك معلوماً»[2]

---

(١) ورد النص في كتاب رشيد الدين، جامع التواريخ، جـ١ / ص: ٣٨٦٠، كما يلي: «... ازجهان فاني بكذشت وتخت ومملكت را باروغ نامدار بگذاشت». (المترجم إلى العربية).

(٢) ورد النص في رشيد الدين جامع التواريخ، ج١ / ٣٨٧ كما يلي: «وجنكيز خان روزي بشكار بود ودر موضعي يك درخت تنها ديدر سته. أورا صورت أن درخت، بغايت خوش آمد. ساعتي در زير آن فرود آمد، واندرون أو فرخي يافت. فرمود كه اين موضع مدفن مرا لايق آست..، شهزاد گان وأمراء بموجب فرمان أو آن موضع را اختيار كردند...» (المترجم إلى العربية).

ـ ١٥ ـ

«تراث جنكيز ـ خـان»

(١٤٦) عمل جنكيز ـ خان (بكل طاقته وقـوته) في سبيـل تحقيق مصالحه الخاصة، ولتلك التي تخدم أغراض أسرته وذويه. وقد ترك وراءه امبراطورية مترامية الأرجاء لسلالته ؛ لذلك خلف، وكما تضمنته قوانينه (ياساق) وما ورد في أقواله (بيليك)، أسساً قيادية لكيفية تسيير دفة وإدارة تلك الامبراطورية. إذ أنه على الرغم من الفتوحات الواسعة التي أخضعت أراضي هائلة وأمماً متحضرة، إلا أن ذلك لم يغير من وجهات نظر جنكيز ـ خان فيما يتعلق بقوانينه التشريعية. لذلك فقد بقيت كما كانت عليه الحال عندما نجح في توحيد «جميع الأقوام الذين يعيشون في خيام اللبود» تحت حكمه. فلقد ظل، وحتى آخر حياته يعتبر امبراطوريته كملك خاص لعشيرته، حيث رتب كل شيء بطريقة تجعل أفراد رجال عشيرته ورفـاقه يحصلون على أكبـر قدر ممكن من الامتيـازات لأنفسهم (وذويهم) وتخولهم بأن يعيشوا حياة ممتعة. إذ كان يعتقد بأن أبناءه وأحفاده وأفراد طبقة المغول الأرستقراطية سيعيشون هذه الحياة البدوية بشكل سرمدي ؛ (١٤٧) وذلك لأن حياة البدوي كانت حياة أسهل وأكثر حرية وانطلاقاً ؛ ولأنه من السهولة على

البدو أن يحكموا الشعوب المستقرة (التي تسكن المدن والقرى). فقد كان سكان المدن والقرى، حسب وجهة نظره،ما هم إلا عبيد قومه، يخدمون، على مدى حياتهم، أسيادهم الحكام البدو، وأنهم مرغمون على أن يكدوا ويكدحوا، كل ذلك لكي يجعلوا أسيادهم يعيشوا حياة أفضل وأكثر حرية.

لم يكن لاتصال جنكيز ـ خان برجال ينتمون إلى أمم ذات حضارة ورقي، ودخولهم معه في إدارة دولته أثر في تلطيف حدة (طبعه) ووجهات نظره (البدوية الجافة). فكانت أسرته وحدها تدير حكم الامبراطورية المغولية، والتي تسمى بالأسرة الذهبية ـ التان أوروك ـ Altan - Uruk - ممثلة في أبنائه وأنسبائه المقربين، وهم الذين كانوا آنئذٍ يمثلون الطبقة الحاكمة؛ هذا بالإضافة إلى كافة أفراد الطبقة الأرستقراطية المغولية، علاوة على رفاقه، وأبنائهم وأحفادهم، وكذلك جميع أفراد حرسه الخاص والناس الذين ينتمون إلى التركاتيين (الأحرار) (وهم من قبيلة جنكيز ـ خان ـ برجكين). تلك الطبقة التي من أجل منافعها بنيت (الامبراطورية المغولية) والتي أيضاً بسببها، ولخدمة مصالحها فقط، كان لا بد لها أن تستمر في البقاء. إذ أن فكرة سيطرة عشيرة (معينة) بشكل جماعي (فيما بين أفرادها على البقية الباقية من العشائر والقبائل والأقوام الأخرى) لم تكن بأي حال من الأحوال فكرة في حد ذاتها تقف متعارضة مع سلطة الخاقان الفردية (المطلقة)؛ والسبب في ذلك يكمن في حقيقة واحدة، وهي إنه يمثل في الأساس الرئيس على عشيرته الخاصة (والتي أصبحت بدورها تتربع على قمة الهرم

القبلي) وان السماء (حسب اعتقادهم) قد اختارته هو، وكافة أفراد رجال عشيرته ليتبوأوا تلك المكانة المرموقة العالية. (لذلك) يجب أن تظل الامبراطورية وحدة واحدة، كما يجب أن يكون على رأسها امبراطور واحد. (وحول هذا المعنى) قال جنكيز: «فليرث مكانتي السامية وجيشي (العظيم) واحد من أبنائي. فأقوالي غير قابلة للتغيير، وسوف لن أسمح لأحد بأن ينتهك حرمتها بمخالفتها».

ولكن، بما أن الامبراطورية هي ملك لجميع (١٤٨) أفراد الأسرة الحاكمة، اعترف جنكيز بنظام التقسيمات القديم، إذ أنه، وطبقاً لهذا النظام، يوجب لكل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة حق الانتفاع بقسطه الخاص له من الملكية العامة. حيث أن كل قسم من أقسام هذه الممالك (إنكو- Ingu) كان يؤسس نواتها الألوس- Ulus ، أو مجموعة من العشائر البدوية التي يكون في مقدورها أن توجد وتقدم فرقة من الرجال المحاربين (عندما تقوم) الدولة بمشروع فتوحات عسكرية)، بحيث يُعْطَىٰ أهل (ذلك الألوس) مساحة واسعة من الأراضي الرعوية (نوتوك، يورت) لكي يتسنى لهم العيش في بحبوحة ونعيم. بالإضافة إلى هذه النواة، فقد عُيِّنَ لكل واحد من أبناء وأخوة، وأرامل الخاقان أو أقربائه الآخرين أراضي أميرية (خاصة به) تتكون من الأراضي التي تم فتحها قريباً، والتي يكون سكانها أناساً يعيشون حياة الاستقرارِ في المدن والقرى (أي ممن يتخذ الزراعة، أو الزراعة والرعي معاً، مهنة لهم). ومع ذلك، فإن الولاية التي يكون سكانها من أصحاب

القرى والمدن، لم تكن ملكاً خاصاً لهذه المملكة أو لتلك، إذ أن دخلها (وما تدره ولاية من الولايات) لا يذهب إلى ذلك الأمير الـذي يقيم معسكره ومخيمـاته بين ظهـرانيها، ولكن يقسم بين الخاقان وجميع حكام الأراضي الأميرية الأخرى، أي أن ريع ولاية يتشارك فيه جميع أعضاء الأسرة الحاكمة. هذا، ومن جهة ثانية، فإنه كان لدى كل واحد من حكام الأراضي الأميرية، عدد معين من الرجال العاملين ذوي المهارات، من الفنانين والماهرين (صناع وغيرهم) وهكذا دواليك، حيث يكونـون مسخرين تحت تصـرفه المطلق، يضعهم أينما أراد، ويسكنهم حيثما شاء. كان يحكم الأقاليم المتحضرة ضباط عسكريون (دَرُوْگتشي ـ Darugachi)، وهم مسؤولون أمام الخاقان، حيث لم يسمـح لأمراء الأراضي الأميرية بالتدخل في الشؤون المالية، أو الإدارية المدنية لسكان الحاضرة. فالخاقـان، في ذات الوقت الـذي يعتبر فيـه (١٤٩) الرئيس لكافة أراضي الامبراطورية، كـان لديـه أراضيه الأميـرية الخاصة به (انكو)، وألوسه (مجموعة عشائره) ونتوكه (يورته) (أي المخيمات والمكان الذي تقام فيه تلك المعسكرات أو المخيمات) ورجاله الخاصون به من الصناع والفنانين من ذوي المهارات. كما كان من ممتلكات المرء الشخصية حرسه الخاص به.

وجدت فكرة نظرية الحكم الجماعي لها تعبيـراً آخر لـدى العشيرة الحاكمة، يتمثل في مجلس الأمة الكبيرة ذلك ـ قورولتاي ـ Kurultai ـ حيث انتخب فيه الخاقان، ونوقشت فيه أيضاً جميع المسائل العامة المتعلقة بشؤون الامبراطورية. في هذه الحالة أيضاً

نجد أن أفكار جنكيز ـ خان لم تخضع لأي تغيير. فقد ظل القورولتاي (مجلس عامة الشعب) على الدوام كما هو في نظامه (أي في نظام جنكيز ـ خان) ـ اجتماعاً لرجال عشيرة الخان ولأفراد طبقة المغول الأرستقراطية، التي كانت تدين بالولاء والطاعة للخاقان، كرئيس للامبراطورية (إذ أنه في نظرهم) هو الحاكم (المعين) من قبل «قوة السماء السرمدية الوجود» (مونكك تنگري ـ يين كوتشوندور).

قام جنكيز ـ خان نفسه بتعيين خليفة، إذ وقع اختياره على ابنه الثالث، أوگتاي، فكان اختياره هذا برهاناً جديداً (آخر) على قدرته المألوفة في النظر إلى الأشياء وفقاً لأهميتها ووضعها الصحيحن؛ وكذلك معرفته (الفائقة للنوعية التي يتعامل معها من) الرجال. لم يرث أي واحد من أبناء جنكيز الأربعة من زوجته الكبرى، برته ـ جوتشي، وتشغتاي، وأوگتاي، وتولي ـ عبقرية والده، أو إرادته الفولاذية، كمتطلب أساسي لا بد من توفره في حاكم امبراطورية (عظيمة) مثل امبراطورية المغول. إلا أن أوگتاي كان رجلاً شهماً كريماً، وإنساناً عطوفاً، فقد جذب الناس (١٥٠) بسجاياه وأخلاقه الكريمة؛ كما كان يملك في الوقت نفسه الصرامة الكافية، والقدرة المطلوب توفرها في الحاكم، فلا يستسلم للتأثيرات والمكائد التي يعوزها الشعور بالمسؤولية؛ (كما كان في مقدرته أيضاً) أن يتصرف بقسوة عندما يرى أن ذلك ضرورياً. هذه الصفات كانت السبب الذي جعل جنكيز يستقر اختياره عليه، وليَس على تولي، ابنه المحبب والمفضل عنده؛ (الذي كان)

محارباً شجاعاً وضابطاً موهوباً، أو على تشغتاي (ولده الذي كان) المناصر الحازم تجاه كافة قوانين والده (وتشريعاته والمنفذ الحرفي لها) متمكناً وضليعاً في اليساق، والذي كان جنكيز يعلق عليه هذه الأهمية. عندما أعلن جنكيز ـ خان قراره ذلك إلى أوكتاي، وطلب منه أن يبدي رأيه، أجاب أوكتاي: «يا أبتي! إنه لمن غبطتي وسروري عندما تأمرني أن أتكلم، فلعلي لا أقول بأنني غير قادر بألا أكون خليفتك، ولكنني أخشى ألا يكون أبنائي وأحفادي رجالاً من ذوي القدرة والكفاءة وسيضحون غير مؤهلين بأن يلوا العرش. هذا كل ما يمكن أن أقول». فقال جنكيز: «إذا ثبت بأن جميع أبناء وأحفاد أوكتاي أصبحوا غير أكفاء، أفلا يمكن أن ينطبق ذلك الأمر على كافة أفراد سلالتي، فلا يوجد هناك (من بينهم) من يكون أهلاً (لتولي ذلك المنصب الخاني)».

على ضوء كلام (جنكيز ـ خان) هذا فلا مجال للدهشة حول ذلك الرأي الذي ساد بين الأمراء المغول وأفراد الطبقة الأرستقراطية من أن جنكيز قد أوصى بأن يختار خلفاؤه من سلسلة أسرة أوكتاي. (ومع هذا) فلا يبدو أن جنكيز قال ذلك بصريح العبارة، رغم كلماته العديدة (حول هذا الموضوع)، فلا يوجد هناك أدنى شك، حيث كان تواقاً بأن يرى الامبراطورية التي بناها وقد زودت (١٥١) بحكام في المستقبل، ان «جنكيز ـ خان ترك وصية تقضي بأن يُخْتَار وليٌ للعرش، ومن ثم تتم الموافقة عليه مقدماً، من بين الأبناء الشرعيين (وبالذات) من (أسرة) ذلك الشخص الذي كان أهلاً لتولي عرش الدولة، بحيث يكون كفء

وأن يعهد بها إليه».

لم يكن لدى القورولتاي (مجلس الشعب العمومي) القوة لتغيير قرار الخاقان، لذلك فلم يكن أمامه (أمام المجلس، أي اختيار) سوى قبول ما قد انتخبه جنكيز كولي للعهد. إذ أنه بعد وفاة جنكيز ـ خان عقد الأمراء وأفراد الطبقة الأرستقراطية الآخرون اجتماعاً عظيماً لهم على (ضفاف نهر) كِرِوُلِنْ، وحينئذٍ، وحسبما أورده التاريخ السري للمغول، «فقد توجوا أوگتاي خاقاناً طبقاً لوصية جنكيز، وأعلنوا تبوأه مركز السلطة على العشرة آلاف جندي، من حرس جنكيز ـ خان الخاص، وعلى كافة الشعب. نفذ أوگتاي بالكامل آمال والده، الذي اختاره (من بين بقية اخوته الآخرين) بحسن معرفته تلك، حيث بقيت الامبراطورية محتفظة بوحدتها خلال فترة حكمه، فلم يكن هناك ما يعكر صفو سلطة الأسرة الحاكمة المنسجمة، والتي يقف على رأسها الخاقان نفسه، حيث ظهر للعيان وكأن خطط وأحلام جنكيز ـ خان بدأت تتجسد. حتى أن أوگتاي كان لديه القدرة بأن يلمح إلى مسألة رفاهية عامة الناس. إذ أنه تعود أن يقول: «إن خاقاننا جنكيز أشاد صرح بناء بيت أسرتنا الحاكم بعد جهدٍ عظيم مضنٍ. فقد حان الوقت الآن أن نمنح الشعوب السلام والرخاء الاقتصادي، وأن نخفف أعباءهم». (١٥٢) وفي حقيقة الأمر، فإن جنكيز ـ خان قد أقام لنفسه «بيته الحاكم» لأنه (سخر جهده) وكرس «جهوداً عظيمة» في سبيل بناء امبراطورية كان قد تصورها على أنها وقف مخصص لأسرته الحاكمة والتي أراد أن يتركها إلى ورثته في حالة جيدة.

ظل جنكيز ـ خان إلى آخر أيام حياته، نصيراً للثقافة وللتعليم الأويغوريين، حيث كان يعتبر أنها أفضل شيء يمكن أن يتبناه لتفيء باحتياجاته وقومه المغول. فقد كان مُظْهِراً في هذا الشأن فطنة وحسن تمييز عظيمين. لم يكن تفضيله للحضارة الأويغورية ليفسد عليه اطلاعه (فيما بعد) على الحضارات الأكثر رقياً كحضارة الصين وحضارة الإسلام، أو أن تضعف احتكاكه المباشر بممثلي هذه الحضارات، حتى وإن كانوا ذوي مهارات فائقة مثل يليو ـ تشئو تسئاي أو تشئنگ ـ تشئون. ظن جنكيز ـ خان بأنه مع مرور الزمن، سيأتي ذلك الوقت الذي يصبح فيه عدد المغول الذين حصلوا على التعليم الأويغوري كبيراً جداً بحيث يصير بامكان الامبراطورية أن تدير أعمالها الإدارية المدنية، بدون الاستعانة بالناس الإداريين الأجانب. كان جنكيز ـ خان يعتبر التعليم ـ يتطابق تماماً مع الحياة البدوية، في أية حالة يكون عليها ذلك التعليم، والذي بدونه كان من المستحيل الحفاظ على وحدة الامبراطورية معاً، أو ضمان فرض سلطة الدولة على الأقاليم المتحضرة والمتمدنة. حيث أنه أمَّلَ بأنه سيكون في مقدرة خلفائه تنظيم إدارة (١٥٣) مدنية شبيهة (في صرامتها وقوة أحكام نظامها) بتلك التي زود بها جيشه، والتي غرسها روح الياساق في النفوس. (إذ نجده) وضع آمالاً عظيمة على قوة قومه المنظمة، أو بالأحرى، على قوة أفراد الطبقة الأرستقراطية الرعوية (أكبر مما كانت تلك القوة تستحقه فعلاً).

عاشت امبراطورية جنكيز ـ خان بعد وفاة مؤسسها العظيم

(كوحدة واحدة) ما يقارب أربعين سنة. أما سلالته فقد حافظت على كيانها لعدة أجيال أخرى، ممثلة في الممالك المجزأة التي نشأت (متفرعة من أسرة الخان) كنتيجة انحلال تلك الامبراطورية المتحدة. إذ أن الأمراء الاقطاعيين، الذين يحكمون أراضي منغوليا في العصر الحاضر ينحدرون في الغالب من سلالة جنكيز ـ خان[1]. لقد ترك قانون الامبراطورية المغولية آثاراً عديدة، على قوانين الدول التي نشأت بعد انحلال وحدتها، حتى أن بعضها (بعض آثار قوانين امبراطورية المغول) ما يزال باقياً حتى الوقت الحاضر. كل هذا يصور لنا قوة تنظيم الفاتح العظيم.

إلا أنه على الرغم من ذلك كله، فإن خطط جنكيز ـ خان الطموحة عموماً قد انتهت، وباءت (في آخر المطاف) بالفشل. فامبراطوريته تلاشت، والمغول، الذين قادهم، إلى مسرح أحداث التاريخ العالمي، بقوة عبقريته العسكرية والسياسية، لم يستطيعوا الحفاظ على كيانها لفترة طويلة. ففي الأقطار المفتوحة، امتصتهم الشعوب التي كانت أكثر تعداداً، وأرقى حضارة منهم، حيث وجدوا أنفسهم (فجأة) في غمرة (تلك الأعداد البشرية وخضمها الهائل)؛ وفي موطنهم الأصلي (١٥٤) نجدهم قد انتكسوا، فارتدوا إلى ما كان عليه وضعهم السابق، والذي كانوا قد انبثقوا منه سابقاً تحت قيادة (جنكيز ـ خان).

كانت أكثر النقاط ضعفاً في نظام جنكيز ـ خان السياسي، هي

---

(١) منذ تأسيس جمهورية منغوليا الخارجية، وهذا ينطبق، في الوقت الحاضر، فقط على منغوليا الداخلية، أو [منغوليا الصينية]. (المترجم من الروسية إلى الانجليزية).

مخططه الرامي إلى الجمع بين حياة الحضارة والحياة البدوية؛ ثم يقينه الراسخ بأن (أفراد) أسرته سوف لا ينحل (لهم نظام)؛ وأنهم سيستمرون إلى الأبد وهم يمارسون قياداتهم الجماعية، ممثلة في شخص رئيسهم الخان، الذي كان يحكم (كما كانوا يعتقدون وكما كان راسخاً في أذهانهم) بقوة من السماء السرمدية الوجود، وطائعين لقواعد ياساقه، التي كانت صالحة (حسب مفهومهم) لكل العصور، (لذلك نجد أن) كلا التَّوَقُعَيْن ثبت استحالتهما. فالحضارة لا تنسجم، على الاطلاق، مع البداوة، بينما كان الياساق عاجزاً كل العجز ليوقف العوامل المؤثرة العديدة، التي انهالت متفاعلة، كالمعاول، ضد بقاء الأسرة الحاكمة..

ـ ١٦ ـ

«جنكيز ـ خان في حياته اليومية»

(١٥٥) كان لدى جنكيز ـ خان أربع زوجات رئيسيات: بُرْتِهْ، وكولان، ويسوي، ويسوكن؛ بناءً على ذلك فقد كانت له أربع «خيام» أو مراكز (أوردو) رئيسيات. وإلى جانب هؤلاء (الزوجات الأربع) كان يمتلك عدداً كبيراً من الزوجات ذوات المراتب الدنيا (كانت ابنة امبراطور الكن (حاكم أراضي الصين الشمالية) إحداهن، وكذلك (أعداد اخر) من السراري، هذا بالإضافة إلى العديد من البنات العشيقات. وعندما يقيم في موطنه، كان يرغب أن يحاط بنساء جميلات. حتى وهو في حملاته العسكرية، كان يصطحب معه إلى جانب واحدة (أو أكثر) من زوجاته، فرقة موسيقية «مكونة من سبع عشرة أو ثمان عشرة من الفتيات الجميلات، ماهرات جداً في الضرب على الآلات الموسيقية»، كما أخبرنا بذلك القائد العسكري الصيني مِنْگ ـ هُوْنْگ ـ Meng - Hung. وكما قدم لنا نفس المؤلف، التقرير التالي حول زيارة (قام بها) لجنكيز ـ خان: «عندما قدم سفيرنا إلى داخل بلاط الخان، وبعد أن انتهت مراسم الاستقبال، طلب منه أن يجلس ليشرب نبيذاً مع زوجة الخان، الأميرة لاي ـ مان ـ Lai - Man،

وثمان (١٥٦) من السراري، اللائي صنفن في مراتب السيدات، واللائي كن جميعاً دائمات الحضور أثناء وبعد كل وجبة (من وجبات النهار الغذائية). وقد كانت طبيعة منظرهن شيئاً يبهر البصر، ومظهرهن غاية في الجمال، وقد كان أربع منهن اميرات من الكنز (أميرات صينيات) والأربع الأخريات كن من الزوجات التتريات. انهن بديعات الجمال، ويحظين منه بحبه المفرط لهن».

رغم هذه الرواية، فإن من غير المحتمل انه كان لدى جنكيز ـ خان «حب مفرط» لسراريه، أو لأي من النساء الأخريات. فالحقيقة الماثلة أمامنا أنه عاش حتى أصبح متقدماً في السن، وهو محتفظ بعقلية صافية، وبجسم مفعم بالحيوية والنشاط إلى آخر حياته، يشارك في رحلات الصيد حتى قبيل وفاته بفترة وجيزة، فهذه الحقيقة تبدي للعيان بأنه لم ينغمس على الاطلاق في علاقات (جنسية) شهوانية مفرطة. إذ أنه من الصعوبة بمكان القول عما إذا كان جنكيز ـ خان قد عشق أي امرأة قط، لأنه يعوزنا الدليل (المادي) المقنع (فيما يتعلق بهذه المسألة). إلا أن رواية مغولية جعلت منه رجلاً كان مشبوب العاطفة ومتيماً بـ كولان (زوجته) الجميلة من عشيرة المركيت. (وذلك من خلال القصة التالية)، فاستناداً إلى ما تورده هذه الرواية المغولية، فقد عهد إلى المرافق الخاص (واسمه) نَايَا، بأن يقوم باحضار هذه الفتاة كولان لجنكيز. ونظراً لكثرة الأعداء، وللخوف عليها منهم، فقد أبقاها في خيمته (دونما يعرف أحدذلك) لمدة ثلاثة أيام، ولم يحضرها إلى جنكيز إلا بعد أن اطمأن إلى ضمان وصولها إليه سالمة. عندما سمع

بهذا، غضب جنكيز غضباً شديداً. وقال: «بعد اجراء التحقيق اللازم معه، واستجوابه بشدة احكموا عليه بالموت». بينما كان نَايَا تحت سوط التعذيب قالت كولان (١٥٧) «لقد أخبرنا نَايَا بأنه كان أحد رجال حاشية الخان، وأنه سيوصلني (مع الآخرين) (إلى ملكية جنكيز ـ خان). وقد استبقانا في داخل خيمته نظراً لأن الجنود العسكريين المتمردين كانوا يملأون الطريق (الذي يوصلنا إلى معسكر الخان). ولو لم نحظى بمقابلة نَايَا، ولو لم يستبقنا معه (في منزله) فإنني لا أعرف ماذا سيؤول مصيرنا المحتوم إليه: لا تعذبوه، فإذا كان لا بد مما ليس منه بد، وما دامت شفقة امبراطوريتك تجاهي على هذه الشاكلة، فلتفحص بتولتي». وفي ذات الوقت قال نَايَا: «لقد خدمت سيدي بكل وفاء وإخلاص، وكنت دائماً وأبداً اعتبر أن من واجبي أن أجلب إليه البنات من ذوات الحسن والجمال، والخيول الجيدة التي لا يتيسر الحصول عليها إلا من الأقطار البعيدة، أما إذا كنت أضمر في ذهني شيئاً آخر قط، فعساني حينئذٍ أموت». (وعندما سمع جنكيز ـ خان، ما قالته كولان) قال: «إن كولان لتتكلم كلاماً معقولاً (هو عين الصواب)» لذلك، فقد خضعت كولان في ذلك اليوم نفسه لاجراء فحص لها، حيث ترك الخان على يقين من عفافها. فلقد أحبها (منذئذٍ أكثر فأكثر، فقط لهذه الحادثة. أما ما يتعلق بـ نَايَا فقد أطلق سراحه، وهو يقول له: «هذا رجل غير منافق، فليكن مؤتمناً على شؤون عظيمة».

ما دام أن جنكيز كان غيوراً لكل ما يعتبره ملكاً خاصاً به، فقد

كان من الطبيعي أن يكون شديد الغيرة على زوجاته وسراريه. وفي ذات مرة وبينما كان جالساً يحتسي شراباً من النبيذ بصحبة اثنتين من زوجاته، يسوي ويسوكن، وكلتاهما ترجعان إلى أصل تتري، لاحظ أن تنهداً (عميقاً مصحوباً بنغمة الوله) قد أفلت من يسوي. وفي الحال أثار هذا غيرته وشكوكه. وفي الحقيقة، وليس بعيداً (١٥٨) من موقع خيمته، اكْتُشِفَ رجلٌ صغير السن (شاباً) حيث وجد بأنه لا ينتمي إلى أية قبيلة تدين بالولاء والطاعة لجنكيز. في أثناء التحقيق معه وبعد استجوابه واختباره عن هـويته من قبـل الخان، أجاب ذلك الشاب قائلاً: «إنني خطيب يسوي، وعندما أُخِـذَتْ (أسيرة) هـربت. والآن، وبعد أن تثبتت من وضعهـا، خرجت من داخل مخبأي، على أمل أن أمر من خلال زحمة القوم الكبيرة دون أن تُعْرَف هويتي». عرفه جنكيز بأنه رجل تتري وأمر بأن يقطع رأسه قائلاً: «إنك سليل أعدائي، وقد جئت لتتجسس عليّ، ولقد قتلت كافة أقاربك، ولا أرى أي علة تجعلني أتردد في حالتك».

إلا أن جنكيز خان، مع كل ذلك، كان يملك القدرة على التحكم في غيرته عندما يكون ذلك ضرورياً. فمثلاً، عندما أخذت زوجته بُرْتِهْ أسيرة من قبل المركيتيين، أعطيت إلى الرجل الرياضي تشيلگر ـ Chilger، لتكون زوجة له. وبعد أن استعادها ظل جنكيز محباً لها، ويعاملها باحترام ومودة كما كانت حالتها من قبل، كما ظل يعتبرها زوجته الكبرى، فأبناؤ ها، الذين حملتُهم، هم فقط الذين منحوا حقوق الأمراء وصنفوا تحت هذا المسمى.

حالما يتأكد من ضمان استمرار تموينه بالسراري له ولرفاقه، فقد كان جنكيز أحياناً يقدم إحدى زوجاته أو سراريه إلى قائد عسكري معين، ممن يستحق هذه المكرمة. وهـذا ينطبق على زوجته إباگو ـ Ibagu، وهي ابنة جا ـ گان ـ بو ـ Ja - Gan - bo وابنة أخت وانـگ ـ خان، (١٥٩) والتي أعطيت إلى جورتشيداي ـ Jurchidei. كان السبب الداعي إلى هذه المناسبة هو (أن حلماً مخيفاً جرى لجنيكز ذات مرة وهو نائم معها، وكان جورتشيداي في ذلك الوقت بالذات يقوم بالاشراف على حراسة الخان. فقال إلى إباگو، لم يكن سبب انتهاء حبي لك (والذي أكننته لك) عندما أخذتك لتكوني واحدة من زوجاتي، لأي شيء سيء في أخلاقك، أو كان ذلك لنقص في جمالك، ولم أقـل على الاطلاق بـأن جسمك غير طاهر. وإنني إذ أقدمك إلى جورتشيداي على أساس خدماته العظيمة المتفانية، ولكونه عرض حياته للمهالك في ميدان القتال، وأعاد إلى امبراطوريتي قبائل منفصلة. . . ، قـدم والدك، جا ـ كان ـ بو، الطباخ آشيك ـ تيمور، ومائتي رجل كصداق لك، وبما أنك الآن ستذهبين عني بعيداً، فهلا تركت لي مائة رجل وآشيك ـ تيمور، كشيء يظل لـدي للذكرى».

كان الشيء السار والمحبب لدى جنكيز ـ خان هو الجري وراء الصيد. كما كان أيضاً مولعاً جداً بالخيول الجيدة، وبالنبيذ. أما ما يخص الحالة الأخيرة (النبيذ) فقد كان يشاطر أذواق قومه، ولكنه هنا، وكما في الحالات الأخرى، أعطى من نفسه برهاناً على مقدرته على ضبط النفس المعتاد والإحساس المتزن. ففي

الوقت الذي يحث رجال جيشه على عدم الاكثار من الشراب (أو الادمان فيه) ويحاول ثنيهم عن التمادي في هذا الميدان، إلا أنه لم يذهب قط إلى حد بعيد بحيث يحرم بالكلية استعمال شراب الكحوليات القوية. وهنا قال: «إذا لم يكن هناك بد أو طريقة لابقاء الرجل بعيداً عن الشراب، فليشرب ثلاث مرات في الشهر، وأكثر من ثلاث مرات ليس إلا اثماً؛ ومرتين أفضل من ثلاث مرات؛ ومرة واحدة ما زالت هي أفضل؛ ولكن الأفضل من ذلك كله هو عدم الشرب على الاطلاق. (١٦٠) ولكن أين يمكن أن يوجد الرجل الذي لا يشرب مطلقاً ؟ ».

سأل جنكيز ، في مناسبة ما، صديقه ورفيقه بكورتشي ـ نويان، ماذا يعتبره الأخير أرقى سعادة ومسرة لدى المرء. أجاب بكورتشي قائلاً بأن ذلك يتمثل في الذهاب إلى الفلاة، في فصل الربيع، جرياً وراء الصيد راكباً جواداً جيداً، وممسكاً في يده صقر صيد جيد. بعدها سأل جنكيز بر ـ كولا وقادة عسكريين آخرين نفس السؤال ذلك، فكانت اجاباتهم مماثلة إلى حد كبير لما أدلى به بكورتشي. وهنا قال جنكيز ـ خان: «لا، فان غاية متعة المرء لهي أن يهزم أعداءه، وأن يسوقهم أمامه (أسرى)، وأن يستحوذ منهم على كل شيء يمتلكونه، وأن يرى أولئك الذين يدللونهم وهم يذرفون الدموع، وأن يمتطي صهوات جيادهم، وأن يضم بين ذراعية زوجاتهم وبناتهم).

هذه كلمات مميزة (وخصيصة يستدل بها على قائلها) وهي تميط اللثام بشكل أكثر عن شخصية جنكيز؛ فلم يكن جنكيز مغرماً

بلذة الشجاعة، أو برغبة المجد، ولا حتى بحب القوة والسلطة؛ فكل ما يقيم له وزنه في الانتصار (بحد ذاته) كان يكمن في ثمار (ذلك الانتصار)، ألا وهو امتلاكه لأشياء جديدة يحوز عليها من عدوه بعد أن يكون قد أطفأ لهب تعطشه في حب الانتقام. كان مثالاً مجسداً لمحارب السهوب، تسيطر عليه غريزة الاكتساب، وفوق ذلك كله، مرتبط بحب امتلاك الأشياء المادية.

(١٦٠) لقد مكنته قوة إرادته الجبارة بأن يتحكم في هذه الغرائز، وأن يحسن استعمالها، لكي يحصل على أرقى ما يمكن الحصول عليه من النتائج. فكما أكدنا على ذلك في مكان آخر، فقد كانت قوة الإرادة، وضبط النفس، والمقدرة على تجنب البواعث المتحيزة (إلى فئة بذاتها ضد أخرى) هي السمات الرئيسية التي تميز خلقه. كان يعرف الوقت والمكان (المناسبين) لكل تعبير عن الأحاسيس، كما كان يطلب الشيء عينه من أتباعه، ومريديه. لم يكن عبثاً، على الاطلاق، ما تنسبه إليه الروايات المغولية هذه الكلمات (التالية): «اسلكوا في حياتكم اليومية مسلك العجول التي تبلغ سنتين من العمر؛ أما في ميدان القتال (فانقضوا على الأعداء) وكأنكم بُزَاةٌ (خلف طرائدها)؛ أما وأنتم على الموائد وإقامة الضيافات، فكونوا (وديعين) كصغار المهور؛ ولكن في معركة مع العدو طيروا وراءه كما تفعل الصقور (في اللحاق خلف فرائسها)؛ وفي وضح النهار الوضاء كونوا متيقظين كذئب عجوز؛ وإذا ضمكم الليل الدامس (ولفكم بظلامه) فكونوا في ليلته المظلمة البهماء حذرين حذر الغراب الأسود».

كان جنكيز نفسه يعرف جيداً كيف ينتظر (ثم ينتظر دون ملل أو ضجر) ويواصل منتظراً (مهما طالت مدة انتظاره حتى تحين الفرصة).

بينما كان يقوم بترويض الكل والجميع للخضوع لإرادته، فقد كان الامبراطور المغولي قادراً على كبح جماح حنقه، ومخضعاً (أسباب غيظه) تحت مجهر ما تمليه الدواعي إلى ذلك. فعلى سبيل المثال، كانت رغبته تقضي بأن يقتل عمه داريتاي، وذلك لأنه أخذ جانب وانـگ ـ خان ضد ابن شقيقه[1]. إلا أن بكورتشي قال له: «إن المرء الذي يعمد إلى قتل قريبه الخاص، لهو شبيه بذلك الإنسان الذي يعمد إلى اطفاء (موقد) النار في (داخل) بيته ذاته؛ إنه لم يبق لديك أي شيء ليذكرك بوالدك سوى عمك هذا. فهل لديك قلب (يملك القدرة) على قتله؟» (١٦٢) أيقظت (هذه الكلمات) مشاعر جنكيز، (فجعلته) يتفق مع وجهات نظر صديقه، فعفى عن عمه.

وفيما يتعلق بهذا الخصوص، كانت علاقات جنكيز ـ خان بالقاضي المسلم وحيد الدين بوشنجي صفة مميزة (لهذه الناحية من خلق جنكيز ـ خان). إذ أنه كان غالباً ما يتجاذب معه أطراف الحديث، ويسائله حول الإسلام (وشؤونه). وفي مناسبة ما قال الامبراطور للقاضي بأن اسمه (اسم الامبراطور) سيصبح، بكل تأكيد، متألقاً في طول العالم وعرضه، لثأره من محمد خوارزم

---

(١) يعني بذلك جنكيز ـ خان نفسه، وهو ابن شقيق داريتاي (المترجم إلى العربية).

شاه، الذي لم يكن في الحقيقة مَلِكاً، ولكنه (كان مجرد) لص، قاطع طريق؛ فقد قتل سفراء جنكيز ـ خان، وهو شيء لا يمكن أن يقدم على فعله مَلِك. بعد ذلك مباشرة سأل القاضيَ عما إذا كان اسمه فعلاً سيكون مجيداً في سماء الأجيال القادمة، أم لا؟ طأطأ وحيد الدين بوشنجي برأسه، قائلاً بأنه سيجاوب على السؤال إذا أعطى الخان وعداً بأن يضمن سلامة حياته. بعد أن أكد له جنكيز ـ خان ضمان سلامته، استطرد القاضي قائلاً بأنه لن يكون هناك امرىء يحكي عن تألق اسم الامبراطور المغولي؛ لأن خدمه (يعني بذلك المغول عامة) قتلوا الكل والجميع (ولم يبقوا على أحد ليحكي عن شهرة جنكيز ـ خان). حالما انتهى القاضي من الكلام، ضرب جنكيز ـ خان الأرض بقوسه وسهامه التي كان ممسكاً بها في يد، واستدار (بوجهه) بعيداً عن جليسه المحادث، وهو في حالة انفعال وغضب شديدين. وعندما شاهد غيظ الفاتح المخيف الشديد، ظن القاضي بأنه قد انتهى أمره، وأنه في الحال (١٦٣) سيفارق هذه الحياة (إلى الحياة الثانية). ولكن بعد دقيقة التفت الخان بوجهه إلى القاضي، وقال مخاطباً إياه، بأنه حتى تلك اللحظة كان ينظر إليه على أنه رجل ذو منطق، إلا أنه بعد سماع تلك الكلمات أصبحت المسألة جلية واضحة له بأن القاضي لم يكن لديه المعرفة الكاملة. كان هناك العديد من الملوك والكثير من الممالك على سطح الكرة الأرضية إلا أنه أيما أرض قدمت مأوى إلى (السلطان الخوارزمي) محمد قاطع الطريق، فستذوق ويلات الدمار. ومع هذا، فإن أمماً أجنبية وملوكاً خارجيين سيحفظون اسم جنكيز ـ خان إلى الأبد.

إن لدينا العديد من الأدلة الموثوقة تشير على مقدرة جنكيز ـ خان على التحكم (في هوى نفسيته) وعلى كبح جماح غضبه. ففي مناسبة ما كان يجد أنه من الأنسب أن يترك المخالفات التي ينتهك أصحابها النظام، تمر بسلام حتى دونما عقاب قاس جداً، على الرغم أنه كان بوجه عام يفرضه بقسوة شرسة. وهكذا، على سبيل المثال، وعندما أرسل ثلاثة تومانات[1] (بقيادة) جِبهْ، وسوبداي، وتكوتشار ليتعقبوا خوارزم شاه أثناء حملته العسكرية في الغرب، أصدر تعليماته المحددة الصارمة، وذلك بألا يتسببوا في إلحاق أي أذى بممتلكات حاكم هرات، ملك ـ خان أمير الملك. فأما جِبهْ وسوبداي فقد تقيدا بالأمر، إلا أن تكوتشار ـ بهادر دمر جزءً من تلك الأراضي. كان أول ما عقد العزم عليه جنكيز ـ خان، عندما جاءه تقرير (عن تصرف قائده المشين ذلك، بمخالفة أوامره) هو أن يقتل تكوتشار وذلك لعدم الطاعة؛ إلا أن أفكاراً ثانية (جعلته يعدل عن قراره السابق (١٦٤) فاكتفى فقط بتأنيبه، وأقاله من (منصب) القيادة وذلك للعقوبة فقط.

بينما كان جنكيز ـ خان يقوم بتأسيس أكثر نظام قاس في (صفوف) جيشه و(خلق) ضبط صارم في (داخل) امبراطوريته، فإنه (ظل) على الدوام متسامحاً، وكريماً، ومعطاءً، ومضيافاً، (وقد كان) في هذه الاعتبارات مستجيباً تماماً لرغبة محارب السهوب الأرستقراطي. حيث تدل التقارير، حول كيفية استقباله لـ: تشئنگ ـ تشئون، ولسفير (امبراطورية) السُّنْگ، وللسفراء

(١) أي ثلاثين ألف رجل، فكل تومان يساوي عشرة آلاف رجل (المترجم إلى العربية).

المسلمين والاويغوريين، على أنه حتى في تعامله مع الأجانب (وخاصة إذا كان يعتقد أنهم سيكونون مفيدين لخدمة أغراضه) كان قادراً على ابراز نفس الخصائص (تلك التي تميز شخصيته).

أصبحنا نتعود على أن نصور جنكيز ـ خان (شخص) طاغية، وغادر، وقاسي القلب؛ الذي وسم ارتقاءه بمجرى من الدماء (وإنه كان يسير) على جبال من جثث المواطنين المسالمين (الأبرياء) ممن ذبحوا بأمر منه. (ويتجول) فوق آثار مدن (عامرة) كان هو الذي قام بتدمير ثرائها. لا يمكن أن ينكر أن لدى مصادرنا الكثير مما يمكن أن تقوله حول أفعاله الملطخة بالدماء، (ابتداءً من) اغتيال بكتر، أخيه من أبيه، إلى مذابح ومجازر الجملة التي أمر بها خلال حروبه التالية.

عند قراءة هذه الأعمال، وموازنتها بالجوانب الأخرى من خصيصة خلقه، فإن المرء قد يبدأ بالتفكير فيه كشخصية معقدة غامضة بشكل غريب، مُوَحِّدةً (بين) أخلاق رجل طاغية متعطش إلى سفك الدماء وبطل أسطوري، (وبين صفات) الإنسان الهمجي المدمر (١٦٥) و(مميزات) العبقري البناء. ولكن (مع كل هذا) هل يمكن مثل هذه الرؤية أن تتطابق مع الحقيقة؟

إن الدراسة الناقدة المتفحصة للمصادر، لا بد وأن تقنع دارس اليوم، غير المتغرض أو المتحامل، بأن جنكيز ـ خان لم يبد على الاطلاق أية نزعة إلى الوحشية الغاشمة التي لا مبرر لها، أو أي ولع بتدمير (الحضارات أو إبادة شعوبها عن قصد متعمد) سواء

عندما كان آنئذٍ ما يزال مجرد تموچين، ولا في حياته عندما أصبح خان المغول. ومع ذلك، ومهما كانت عظمة عبقريته، فقد كان رجلاً (يعيش عيشة) عصره وأمته، ولذلك السبب نفسه فلا بد وأن يُحْكَمَ (في هذه المسألة) بالمقابلة مع خلفية عصره والأحوال السائدة في محيط مجتمعه، لا أن يحكم عليه من خلال اختلاق محاولة لنقله من (بيئته وزمانه) إلى زمان وأقطار أخر. بناءً على ذلك أصبح من السهولة معرفة أن قسوة جنكيز الوحشية أو تعطشه لسفك الدماء، حتى وهو في أعظم حروبه، لم تتجاوز على الاطلاق تلك التي كانت ترتكبها الجيوش، والأمم الأخرى المعاصرة له. كان جنكيز ـ خان، مثله في هذا الشأن مثل غيره من الفاتحين الآخرين العظام، في جميع الأزمان (بين كافة) الأمم، قادراً على تدمير عدوه ذاته وعدو جنوده بطريقة متعمدة، كما كان في استطاعته قتل السكان المدنيين في مدينة ما، إذا كان قد ارتأ أن ذلك فرصة مؤاتية أو أنه يخدم أغراضه الخاصة، ولكنه لم يلجأ البتة إلى (ارتكاب أفعال) شنيعة بشكل متعمد لا مبرر لها؛ كما لم يظهر قسوة وحشية تجاه أسراه، لمجرد رغبته في الانتقام. إذ أن بعضاً من معاصريه، الذين ينتمون إلى أمم أكثر تحضراً من أمته هو، كانوا (١٦٦) قادرين على أن يأمروا بأسراهم فيعذبوا حتى الموت، على مرأى ومسمع منهم؛ (وذلك كما فعل جلال الدين بعد معركة بروان) حتى وأنهم كانوا يضطرون لأفعال همجية كهذه. حتى أن جنكيز ـ خان لم يكن ليفكر قط لاشادة برج يتكون من الفين من الرجال الأحياء الذين وضعوا واحداً فوق الآخر، ومن ثم

يغلفون بالآجر والملاط، وذلك كما فعله تمرلين[1]، وهو فاتح آسيوي آخر، والذي كانت نظرته (في معاملته الوحشية واللاآدمية مع الآخرين، وخاصة الأعداء) دونما ريب أو أدنى شك أوسع بكثير من وجهة نظر جنكيز ـ خان.

ظل جنكيز (ذلك الرجل) المتمالك النفس، والانضباطي النظام، والبدوي العملي المتفوق، حتى آخر يوم من أيام حياته، في منأى بعيد عن (المكان الذي) يصبح فيه قاتلاً متعطشاً لسفك الدماء، وذلك بطريقة سهلة حذرة؛ كان يعرف تمام المعرفة الفوائد الجمة التي سيجلبها الناس المتحضرون وأصحاب المدن والقرى المستقرون لحكامهم البدو (الأمر الذي جعله) لا يرغب، على الاطلاق، في تدمير مدن وقرى متحضرة بشكل متعمد لا مبرر له. إلا أن هذا، رغم ذلك، لم يمنعه في كثير من المناسبات من تدمير مدينة، إذا كان مثل هذا التدبير يكون قد أملته ضرورة الحرب أو سياستها.

(كما أننا، فوق ذلك) أيضاً، لا نعرف حقيقة واقعة تتعلق بحياة جنكيز الخاصة يمكن أن تفسر كدليل يستشهد به على قسوته الوحشية الغريبة الأطوار. فعلى العكس من ذلك تماماً، نجد أن كافة مصادرنا تروي شواهد عديدة عن شهامته، ومقدرته على كبح وضبط النفس، والتي كنا قد أكدنا على ذلك (أعلاه). أما فيما يتعلق بمسألة اغتيال بكتر وحالات القتل (١٦٧) الأخرى، والمذابح التي ارتكبت بموجب أمر من جنكيز، فلا يمكن أن

---

(١) وهو تيمورلنگ المعروف في مصادرنا العربية الإسلامية (المترجم إلى العربية).

تؤخذ كدليل على قسوته، أو (كدليل) على تعطشه لسفك الدماء، إذا ما أخذ المرء في الاعتبار أساليب حياة وأفكار العصر (الذي عاش فيه الخان المغولي). فالجرائم التي ارتكبها جنكيز ـ خان، أو التي كان على استعداد تام لارتكابها، سنجد ظروفاً مقللة (لما نجده شنيعاً ووحشياً في أعماله)، في معايير سلوك وأخلاق البيئة المحيطة به التي يعيش بين ظهرانيها، وفي الأفكار الدينية والأخلاقية التي غذت عقليته؛ فقد كان، وظل، شاماني، وبدوي ساذج، ذا شعور بدائي، في الاحساس بالمسؤولية السلوكية تجاه (الإله الخالد الذي يسكن) السماء السرمدية الوجود وكذلك (في فهمه وسلوكه تجاه) الأرواح الحارسة، وذا موهبة مكتسبة كاملة النضج.

غالباً ما كان يلجأ في الحرب إلى الحيلة، أو حتى إلى الغدر، ولكنه في حياته الخاصة لم يبد على الاطلاق أي شيء من هذه السمات. في (مناسبات) أخر، كما قد أوضحنا سابقاً، كان يقدر، فوق كافة الأشياء، الصراحة، والاستقامة حق قدرهما. كما كان، من الناحية الثانية، محباً لامتلاك ما لدى الغير، لدرجة الشبهة (المفرطة).

(على الرغم من أنه كان) فاتحاً عظيماً، خاض حملات عسكرية كثيرة، وقاد (جيوشه) في معارك ضارية متعددة، وترأس عمليات حصار كثيرة، فإنه لا يظهر لنا أن جنكيز ـ خان كان ذا شجاعة شخصية متميزة (بارزة)، عن غيره، (حيث نجد أن صفة) القائد العسكري في ذاته قد تفوقت على (سمات الرجل)

العسكري (في شخصيته). على أنه مهما كانت عليه الظروف، فإنه لم يكن لديه ميل إلى الشجاعة الوهمية (البعيدة عن الحقيقة والواقع المكتسب من التجارب)؛ كما لم يكن هناك أي شيء فيه من (صفات الإنسان) المغامر. أما إذا كان لديه في أيام شبابه (١٦٨) مناسبة كان لا بد له أن يظهر فيها شجاعته الشخصية، فإنه بعد أن أصبح خاناً، فقد كان دائماً يوضع في ظروف من هذا القبيل، بحيث تجعل أي ابراز للشجاعة (يبدو آنئذٍ) في مكان غير مناسب. ومع أنه كان قد أدار العمليات العسكرية لجيوشه، وقاد (جنوده) في معارك ضارية، إلا أنه لم ينضم في عراك صاخب (يد بيد) في صفوف كتائب فرقة فرسانه، لأن هذا شيء معروف، بأنه لم يكن هذا النوع هو من عمل القائد العام للقوات العسكرية (المسلحة).

سأله ذات مرة نَالا ـ نويان، وكان واحداً من رفاقه، قائلاً: «إنك تُدْعَى بسيد السلطة، وببطل. فأين تكمن يا ترى آثار الفتح والنصر (التي جرت) على يدك؟» فأجابه جنكيز ـ خان: «قبل أن أعتلي عرش الامبراطورية، كنت ذات مرة راكباً (على صهوة جوادي) ومنحدراً إلى أسفل الطريق. وعند ممر قنطرة هناك كان يكمن ستة رجال، في مكمن يترصدون لي، حاولوا اغتيالي. وعندما سرت بمقربة منهم، استليت سيفي من غمده وهاجمتهم، استقبلوني بسحابة من السهام، ولكن سهامهم جميعها أخطأت هدفها، ولم يمسني واحد منها (بسوء). فأسلمتهم (جميعاً) إلى الموت بسيفي، ومضيت إلى سبيلي، دون أن يلحق بي أذى، وفي

أثناء العودة عَرَّجتُ على ذلك المكان، حيث كنت قد قتلت أولئك الرجال، كانت جيادهم الستة ما تزال قابعة هناك، بدون فرسانها. فاستقت تلك الجياد، وسرت بها إلى منزلي».

كان هذا «علامة الفتح» وفقاً (لما يراه) جنكيز ـ خان؛ فالسماء التي قد أقرت بأنه (١٦٩) سوف لن يقابله الموت مصادفة، فها هو قد قتل كافة أعدائه، وأخذ جيادهم. كان (جنكيز ـ خان) ينظر إلى نفسه من خلال ذلك المنظار. (ألا وهو أن) السماء الزرقاء السرمدية الوجود، قد سلمت إليه، وإلى عشيرته المغولية الذهبية، السيطرة على كافة «الأجيال التي سكنت في خيام اللبود»، وعلى جميع جيرانهم وعلى العالم قاطبة. وكنتيجة حتمية لذلك، فقد رأى أنه من واجبه أن يهيء أتباعه (من الناحية الفكرية على الأقل) إلى طريقة معينة (بحيث جعلتهم يعتقدون اعتقاداً كبيراً) بأنه عندما يقودهم إلى نصر معين فإنهم قد نعموا بسعادة الفاتحين. وعلى نفس المستوى، (نجد أن) تنظيمه العسكري، وياساقه قد هيئتا بشكل رائع لتسيطر على قبيلة صغيرة ولتحكم العالم (بأسره)؛ فالرجل الذي كان يخضع ويطيع قوانينه في الأزمنة التالية، كان من حقه أن يدعو لنفسه بالقول، كما كان قد قال ذلك جنكيز: «لقد أمرتني السماء أن أحكم كافة الأمم». هكذا كانت فلسفة «العبقري الفظ».

يقال بأن جنكيز ـ خان كان طويل القامة، ذا بنية قوية وله «عينان (كعيني) قط»[1].

(١) لمعلومات عن سماته وصفاته البدنية انظر ما قاله عنه الجوزجاني، منهاج الدين سراج، طبقات ناصري، تحقيق عبد الحي حبيبي، كامل، ١٣٤٣ هـ . ش. جـ ٢ / صَ. ص : ١٤٤ ـ ١٤٥.

فهرس الأعلام

إباكو : ٢٢٢
ابن الأثير : ١١ .
اتشيك ٣٢ .
أرسلان خان : ١٧٤ .
ارثر ـ وولي ٢٧
أشا ـ گانبو : ١٧٣ .
اشيك ـ تيمور : ٢٢٢ .
التان ـ اتشيگين: ٦١ ـ ٦٢ ـ ٧٦ ـ ٨٠ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ١٢٥ .
التشالتون: ١٢٠ .
الجوزجاني: ١١ .
الجويني: ١١ .
الشيخ وسوف ٦٠ .
النسوي: ١٧٨ ـ ١٨٥ ـ ١٩٠ .
امجن ٣٥ .
انبگاي ـ خاقان : ٣٣ ـ ١٣٥ ـ ١٣٧ .
أوسون : ١١٨ .
أوگتاي (أوگداي): ٨٢ ـ ٨٣ ـ ١٤٠ ـ ١٤٣ ـ ١٧١ ـ ١٧٩ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩ ـ ٢١٢ ـ ٢١٣ ـ ٢١٤ .
أويلون ـ يك : ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٨ ـ ٤٠ ـ ٥٩ ـ ١٢٤ ـ ١٧١ .
باردان ـ بهادر : ٢٥ .
بدر الدين العميد: ١٧٨ .
بدونتشر: ٣٥ ـ ١١٨ .
بُرْتِهْ : ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٤٦ ـ ٥٠ ـ ٥٢ ـ ٥٤ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ١٢٦ ـ ١٩١ ـ ٢١٢ ـ ٢١٨ ـ ٢٢١ .
برجكين : ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٩ .
بر ـ كولا : ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٢٢٣ .
برولا : ٧٨ .
بكتر : ٢٨ ـ ٣٢ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٢٢٨ ـ ٢٣٠ .
بكورتشي (بن ناكو بايان) نويان: ٤٥ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٦٦ ـ ٧٨ ـ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ١٠٨ ـ ١٨٤ ـ ٢٠٢ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .
پل ـ پليو : ٢٧ .
بلكوتي ـ نويان: ٢٨ ـ ٣٢ ـ ٤٠ ـ ٤٤ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥٢ ـ ٧٢ ـ ١٧١ .
د. بهمن كريمي: ٢٣ .
بوري بوكه : ٧١ .
تاتاتونگا : ١١٢ .
تارگوتاي ـ كيريلتوك: ٣٣ ـ ٣٩ ـ ٩٠ .
تايشي: ١٤١ .

تايان ـ خان : ٩٢ ـ ٩٥ ـ ١١٢ .
تايانك ـ خان : ١٦٠ ـ ١٦٨ .
تاي ـ شي ـ اخاي : ١٩٥ .
تديان ـ جيرته : ٣٣ .
تركان ـ خاتون : ١٨٥ .
تشئينگ ـ تشئون : ١٢ ـ ١٩٢ ـ ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ ٢١٥ ـ ٢٧٧ .
تشركا : ٣٣ ـ ٣٧ .
تشغتاي : ١٤٠ ـ ١٤٣ ـ ١٧١ ـ ١٧٩ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩ ـ ٢١٢ ـ ٢١٣ .
تشور ـ بيگي : ٨٠
تشيلاون : ٤٣ ـ ٧٨ .
تشيلكر : ٢٢١ .
تشينباي : ٤٣ .
تكتا : ٥٤ ـ ١٥٩ .
تكتار : ٩٧ ـ ٩٨ ـ ١٠٧ ـ ١٦٠ .
تكتوا : ٥١ .
تكوتشار ـ بهادر : ١٨١ ـ ٢٢٧ .
تكون ـ تئايتس : ٢٦ .
تمرلين (تيمولنك) : ٢٣٠ .
تمولون : ٢٨ ـ ٣٢ .
توغان ـ خان ١٨٠ .
تولوي : ١٤٠ .
تولي : ١٧١ ـ ١٧٧ ـ ١٨٦ ـ ١٩١ ـ ١٩٩ ـ ٢١٢ .
تيموج ـ اتشيگين : ٢٨ ـ ٣٢ ـ ١٢٧ .
تيمور قا آن : ٢٣ .
د. ج. أ. بويل: ٨٠ ـ ١٣٢ .
جارتشيوتاي : ٥٠ .
جا ـ گان ـ بو : ٢٢٢ .
جاموقه ستشن (گور ـ خاقان): ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦٧ ـ ٦٩ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٧ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٤ ـ ٩١ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٨ ـ ٩٩
جاي ـ كتاو : ١٠٢ .
جبه نويان : ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٩٦ ـ ١١٠ ـ ١٤٢ ـ ١٤٧ ـ ١٦٠ ـ ١٦١ ـ ١٦٢ ـ ١٦٩ ـ ١٧٦ ـ ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٧ ـ ٢٢٧ .
جلال الدين منكبرتي: ١٧٥ ـ ١٧٨ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ١٨٩ ـ ١٩٠ ـ ١٩١ ـ ٢٢٩ .
جِلْمِه : ٥٠ ـ ٥١ ـ ٦٦ ـ ٧٣ ـ ٩٦ .
جنكيز خان (تموچين) : ٩ ـ ١٠ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٧ ـ ٢٢ ـ ٢٥ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٨٦ ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ

١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ .

جوتشي - كسار: ٢٨ - ٣٢ - ٣٦ - ٣٨ - ٤٠ - ٤٨ - ٥٠ - ٨٠ - ٨٧ - ٨٨ - ١٢١ - ١٢٤ - ١٤٠ - ١٤٣ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٧١ - ١٧٧ - ١٨٤ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢١٢ .

جورتشيداي : ٢٢٢ .

جورجن (الكنزاوتشن) : ٢٣ .

جون البلانو الكربيني : ١٢ .

جوهينز (بريسترجون) : ٤٧ .

جير - كوداي : ٧٤ .

حافظ حمدي : ١٧٨ .

داريتاي - اتشيگين: ٢٦- ٦١ - ٢٢٥ .

داي - تشو : ٧١ .

داي - ستشن : ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٤٥ .

دكي : ١١٠ .

رشيد الدين : ١٠ - ٢١ - ٢٢ - ١١١ - ١١٩ - ١٣٢ - ١٤٣ - ١٧١ - ٢٠٧ .

روبروك : ١٢ .

ساتشدبيكي : ٧١ .

ساتشال : ٦٢ .

سن - كونك (يلاق سنجوم) : ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٨ - ٨٩ .

سوبداي - بهادر: ٩٦ - ٩٨ - ١٠٧ - ١٠٩ - ١١٠ - ١٥٩ - ١٨١ - ١٨٢ - ٢٢٧ .

سورگان - شيرا : ٤٢ - ٤٣ .

شن - سين : ١٩٥ - ١٩٦ .

شيرين - بياني : ٢٧ .

شيكي - كوتاكو : ١١٢ - ١١٣ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ .

طغرل خان : ٤٦- ٤٧- ٧١ -

علاء الدين محمد الخوطاني : ١٦٤ - ٢٠٠ .

غاير خان : ١٦٨ ـ ١٧٩.
فضل الله ـ الوزير : ٢٢.
ف . ف . بارتولد : ١٣.
قبلاي : ١٩٩.
قبول ـ خان : ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٩ ـ ٣٥ ـ ٦٢ ـ ٧١ ـ ١٣٥ .
قولتوقان ـ مرگان : ١٥٩.
كاتشيون ـ أولتشي : ٢٨ ـ ٣٢.
كاشيون : ١٢٥.
كتولا ـ خان : ٢٤ ـ ٣٥ ـ ٥٦ ـ ٦١ ـ ٦٢ .
كجين : ٨٠.
كدك ـ بهادر : ٨٩.
كرتشي : ٦٠ ـ ٦١ ـ
كريدر: ٦٤.
كوبيلاي ـ نايان : ٩٦ ـ ١٢٠.
كوتشار : ٦٢ ـ ٧٦ ـ ٨٥.
كوتشلوك : ٩٧ ـ ٩٨ ـ ١٥٩ ـ ١٦٠ ـ ١٦١ ـ ١٦٨ ـ ١٧٦ ـ ٢٠٠.
كوتشوكور : ١١١.
كوكتشو (تب ـ تنگري) : ٦٩ ـ ١٠٢ ـ ١٢٢ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ـ ١٢٧ـ ١٢٨ـ ١٢٩ـ ١٨٧.
كولان : ٩٧ ـ ١٧١ ـ ٢١٨ ـ ٢١٩ ـ ٢٢٠.
گورخان : ١٦٠.
لاويتسه : ١٩٢.
لاي ـ مان : ٢١٨.
ليو : ١٤١.
ليوم ـ شيوانك : ١٤٣.
ماركو پولو : ١٢.
محمد المنشي : ١٧٨.
محمد خوارزم شاه: ١٦٢ ـ ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ ١٦٥ ـ ١٦٧ ـ ١٦٨ ـ ١٦٩ ـ ١٧٠ ـ ١٧١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٨ ـ ١٨٠ ـ ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ١٨٩ ـ ١٩٠ ـ ١٩١ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
ملك ـ خان : ٢٢٧.
منگ ـ هونگ : ٢١٨.
موكلي : ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٧٨ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ١٤٧ ـ ١٤٩ ـ ١٧١ ـ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
مولكالكو : ١١١.
مونليك بن تاداي ـ تشرقا : ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٦٩ ـ ١٠٢ ـ ١٢٣ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٢٨ .
نالا ـ نويان : ٢٣٢.
نايا : ٢١٩ ـ ٢٢٠.
ناكون ـ تا ايجي ٢٥.
نصير الدين الطوسي : ٨٠.
نيا : ١٠٨.
هولاكو : ١٩٩.
وانبگاي ـ خان : ٣٥.
وانگ ـ خان: ١٨ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٥٠ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٦٨ ـ ٧٠ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٥ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩١ ـ ٩٨ ـ ١٨٧ ـ ٢٠١ ـ ٢٢٢ ـ ٢٢٥ .

وحيد الدين بوشنجي : ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
وداي ـ تشو : ٧١ .
يدي ـ قوت: ١٧٤ ـ ١٧٩ .
يسوكاى ـ بهادر: ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٩ ـ ٤٨ ـ ٥١ ـ ٥٤ ـ ٦٢ ـ ١٢٣ .
يسوى : ٧٧ ـ ٢٠٤ ـ ٢١٨ ـ ٢٢١ .
يسوكن : ٧٧ ـ ٢١٨ ـ ٢٢١ .
يك ـ تشيلدو : ٢٧ .
يليو ـ تشئو ـ تسئاي : ١٥١ ـ ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ١٧١ ـ ١٩١ ـ ٢١٥ .

فهرس البلدان

ابسكون : ١٨٢ .

اتـــرار : ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٩ - ١٨٠ .

ارمينيا : ١٠ .

اسيا : ٩ - ١٠ - ٢٣ - ٦٦ - ٧٧ - ٨٦ - ١٣٧ - ١٩٩ .

أفغانستان : ١١ - ١٦٥ - ١٧٧ - ١٨٣ - ١٨٦ - ١٩٢ .

التركستان : ١٠ - ١١ - ١٣ - ١٥ - ٤٧ - ٩١ - ٩٢ - ١٦٠ - ١٦٥ - ١٧٤ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٨٥ - ٢٠٠ .

الخوارزم : ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٨ - ١٨٤ - ١٨٦ - ٢٠٢ .

الصقور : ١٩٨ .

الصين : ١٠ - ١١ - ٣٠ - ٣٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٧٠ - ٧٩ - ٨٠ - ٩٢ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٤١ - ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٧١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٩ - ٢٠٣ - ٢١٥ - ٢١٨ .

القاهرة : ١٧٨ -

القوقاس : ٢١ .

الكيتاي : ٣٠ .

النيمان : ٨٨ - ٩٢ - ١٦٠ - ١٩٩ .

الهند : ١٩١ .

أوروبا : ٢٣ .

أورومتسي : ٩١ .

أوكرانيا : ٧٥ .

ايران : ١٧٧ - ١٨٥ - ١٩٩ .

بخارى : ١٦٨ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ .

بروان : ١٨٧ - ١٨٩ - ٢٢٩ .

بغداد : ١٩٩ .

بكين (بيبينگ ، بيكينگ) : ٤٦ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٣ - ١٦٤ - ١٦٦ .

بلاساغون : ٩٢ - ١٦٩ - ٢٠٠ .

بلخ : ١٨٥ .

بين (كثاي فنـــك) : ١٤٦ - ١٤٨ .

تاي تئونك : ١٤٢ .

ترمذ : ١٨٣ .

تسئينك ـ شوي ـ سين : ٢٠٦ .
تسئينك ـ شو : ٢٠٦ .
تشيه ـ لي : ١٤٣ .
تلكـان (الـطاليقـان) : ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ١٨٩ .
توريان : ٩١ .
جتيسو (الأرض ذات السبعة أنهار) ٤٧ ـ ٩٢ ـ ٩٨ ـ ١٢٠ ـ ١٦٠ ـ ١٦٢ .
جوبي الكبرى : ١٣٢ ـ ١٤١ .
جرجانية : ١٩٨ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠٢ .
جنـد : ١٩٨ .
جورجة : ١٣٢ .
جورجيا : ١٠ .
جونسين(لينـگ تشو)١٣٣ .
ختـاي : ١٣٢ .
خراسان : ١٨٦ ـ ١٩١ .
دلتا آمو : ١٦٤ .
دليون ـ بلداق : ٢٥ ـ ٥٠ .
روسيـا : ٨٣ ـ ١٠٣ ـ ١٣٣ ـ ١٥٦ ـ ١٦٠ ـ ١٨٢ ـ ١٨٣ .
زرنوق : ١٧٨ .
سمرقند : ١٧٩ ـ ١٨٠ ـ ١٩٣ ـ ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ ٢٠٠ .
سون ـ ته ـ فو : ١٤٢ .
سيبيريا : ١٥ .
شان ـ تونـگ : ١٤٤ .
شانسي : ١٤٢ .
طاشقند : ١٦٨ ـ ١٩٨ .
طخارستان : ١٨٥ .
طهران : ٢٣ .
غزنة (أوغزنين) : ١٨٦ ـ ١٨٧ .
فارس : ١٣٨ ـ ١٦٥ .
قازقستان (اقليم القبتشاق) : ٤٧ ـ ١٨٢ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩ .
قرا ـ قروم : ١٧ ـ ٦٣ .
قياليق : ١٧٤ .
قيرغيزيا : ٤٧ .
كاتسو : ٢٠٦ .
كاشغر : ١٦٢ .
كان ـ سو : ١٣٣ ـ ٢٠٦ .
گرگان (جرجانية) ١٨٤ ـ ١٨٥ .
كرشي (نسف) ١٨٢ .
كركوباك ـ جوبون : ٥٦ .
كركوناك ـ جابور : ٥٥ ـ ٥٨ .
كوتشنك : ٩١ .
كولان ـ باشي : ١٩٨ .
كونت : ١٦٠ .
لينـگ تشو : ٢٠٦ .
لينگراد : ١٣ .
مرو : ١٩١ .
منشوريا : ٤٦ ـ ١٣٢ ـ ١٤١ ـ ١٤٣ ـ ١٤٧ .
منغوليا : ١١ ـ ١٢ ـ ١٥ ـ ١٧ ـ ٢١ ـ ٣٠ ـ ٦١ ـ ٧٥ ـ ٧٩ ـ ٨٣ ـ ٨٩ ـ ٩٢ ـ ٩٨ ـ ١٠٣ ـ ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣٨ ـ ١٤٠ ـ ١٤٢ ـ ١٤٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٩ ـ ١٦٦ ـ ١٧١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٥ ـ ١٩٤ ـ ١٩٩ ـ ٢٠٧ ـ ٢١٦ .

مونت بورقان ـ قلدون : ٤٤ .
مينوسبنسك : ١١٩ .
نخشب : ١٨٢ .
نور : ١٧٨ .
نيسابور : ١٩١ .
نينك ـ هيا : ٢٠٦ .
هرات : ١٩١ .
همدان : ١٦٥ .
همي : ٩١ .
هندو ـ كش : ١٩٣ .
هو ـ نان : ١٤٦ ـ ١٤٩ .
هوانـگ ـ هو : ١٤٩ .

فهرس الشعوب والقبائل

اردلات : ٤٥ .
الأتراك : ٢٢ ـ ١٨٠ .
الأنكوت : ٣٠ ـ ٩٢ ـ ١٣٧ .
الأوربيون: ١٠ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٥ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ١٧٠ .
الاويرات : ١١٩ .
الأويغوريون : ٩١ ـ ١١٢ ـ ١١٩ ـ ١٣٣ ـ ١٥٧ ـ ١٥٨ ـ ١٧٤ ـ ١٧٩ ـ ٢١٤ ـ ٢٢٨ .
التبتيون: ١٣٢ .
التتر : ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٧ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٨ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٣ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ١١٢ ـ ١٣٥ .
التنكوت : ١٥ ـ ١٨ ـ ٢٩ ـ ٤٧ ـ ١٣٠ ـ ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤ ـ ١٧١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ١٩١ ـ ٢٠١ ـ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
الجرجيون: ١٤١ ـ ١٤٤ ـ ١٤٧ ـ ١٥٢ .
الخطائيون : ١٤١ .
الخوارزميون : (سرتكول) ١٦٤ ـ ١٦٥ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ١٩٨ .
الروس : ٧٥ ـ ١٨٢ .
الصينيون: ١٢ ـ ١٨ ـ ٣٠ ـ ٤٦ ـ ٧١ ـ ١١٧ ـ ١٤١ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣ ـ ١٥٦ ـ ١٩٦ ـ ٢٠٣ .
القراخطائيون : ٩٢ ـ ٩٨ ـ ١٦٠ ـ ١٦١ ـ ١٦٩ ـ ١٩٥ ـ ٢٠٠ .
القرغيز : ١١٩ ـ ١٢١ .
الكثيتانيون : ١٤١ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤ ـ ١٤٧ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣ ـ ١٦٠ .
الكنز (تشن) : ٢٤ ـ ٣٥ ـ ٤٦ ـ ٧٠ ـ ١٣٢ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٤٠ ـ ١٤١ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩ ـ ١٥١ ـ ١٥٣ ـ ١٥٥ ـ ١٥٧ ـ ١٦٤ ـ ٢٠٣ ـ ٢١٨ .
الكونوت : ٢٧ .
الكيرايت : ٢٠ ـ ٢٣ ـ ٢٦ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٧٠ . ٧٧ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩١ ـ ٩٢ ـ ٩٨ ـ ١٠٢ ـ ١٣٣ ـ ١٨٧ .
المركيت : ٢٦ ـ ٢٩ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٦ ـ ٩٧ ـ ٩٨ ـ ١٥٩ ـ ١٦٠ ـ ٢١٩ ـ ٢٢١ .
المغول: ١٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٧ ـ

٢٩ - ٣١ - ٣٨ - ٤٦ - ٥٣ - ٥٦ - ٦١ -
٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٨ - ٧٥ - ٧٩ - ٨٠ -
٨٧ - ٨٩ - ٩٣ - ٩٥ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ -
١٠٠ ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ -
١٠٧ - ١٠٨ - ١١٠ - ١١١ - ١١٢ -
١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ -
١١٩ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٧ -
١٢٨ - ١٣٠ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ -
١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ -
١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ -
١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ -
١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٧ - ١٥٨ -
١٥٩ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٦ -
١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ -
١٧٢ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ -
١٧٧ - ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ -
١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ -
١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ -
١٩٤ - ١٩٧ - ٢٠٠ - ٢٠٣ - ٢٠٦ -
٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ -
٢١٥ - ٢١٦ - ٢٢٦ .

المنشوريون : ١٤١ .

النيمان : ٢٠ - ٧٧ - ٧٨ - ٨١ - ٩١ -
٩٣ - ٩٥ - ٩٧ - ٩٨ - ١١٢ - ١٣٣ - ١٣٤ -
١٦١ - ١٦٢ - ١٦٩ - ١٧٦ - ١٨٧ - ٢٠٠ .

آموك : ١٥ .

اوروت : ٨٢ .

بارين : ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ١١٨ .

بدونتشار : ٥٣ .

بـرجكين : ٢٩ - ٣٤ - ٣٥ - ٤٤ - ١٠١ -
١٠٣ - ١٠٥ - ١١١ - ١٣٦ - ٢٠٩ .

تاي - تشيوت : ٢٦ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٧ -
٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٧ - ٥١ -
٧٣ - ٧٤ - ٩٠ .

جادارات (جاجيرات) : ٥٣ - ١١١ .

جلاير : ٥٦ - ٥٩ .

جوركي : ٦١ - ٧١ .

خونگيرات : ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ -
٤٥ .

سُنْگ : ١٣٢ - ١٤٦ - ١٥٦ - ٢٢٧ .

سولدوس : ٤٢ .

قيات : ٣٠ - ٥٩

كيات البرجكينية : ٢٩ .

منكوت : ٨٢ .

منه - بأرين : ٦٠ .

هسي - هسيا : ٤٧ .

هيونك - نو : ١٥٦ .

ودويت : ٥١ .

يسوت : ٧٤ .

فهرس الأنهار

أرخن (اورخان: ٢٠ ـ ٢٠١.
آرتيش : ١٧٤.
اركون : ٧٢ ـ ٧٣.
السند : ١٦٥ ـ ١٨٩ ـ ١٩٠ ـ ١٩٢ .
آمور : ٧٢.
آمـو (جيحـون) ١٨١ ـ ١٨٣ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥.
أونـون : ٢٣ ـ ٢٥ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٥٤ ـ ٥٦ ـ ٦٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٢٩ .
تشو : ١٩٨.
تشير (تشيك) (طاشكند): ١٩٦.
تولا : ٢٠ ـ ٥٠ ـ ٢٠١.
زرفشان : ١٩٨.
سِلِنْگَا : ٢٠١.
سيـر (سيحـون) ١٦٢ ـ ١٦٥ ـ ١٧٤ ـ ١٧٧ ـ ١٨١ ـ ١٨٣ ـ ١٩٦ ـ ١٩٨ .
سي ـ كيانـگ :٢٠٦.
قرار ـ ارتيش : ١٩٩.
كالكا (كالميوس) ٧٥ ـ ٨٣.
كِرُوْلِنْ : ٢٣ ـ ٧٢ ـ ١٤٠ ـ ١٥٠ ـ ٢١٤.
كلكا : ٨٣ ـ ١٨٢ .
هوانـگ ـ هو :١٣٣ـ ١٤٤ ـ ٢٠٦.
ينسي : ٦١٩.

فهرس الجبال

التبت : ١٧١ ـ ١٩١.
الطائي : ٢٠ ـ ٢١ ـ ٧٧ ـ ٩٧ ـ ١٠٩ ـ ١٥٩ .
القوقاس : ١٨٢.
الهملايا : ١٩١.
بورقان ـ قلدون : ٥٢ ـ ٥٤ ـ ٢٠٧.
تين ـ شان : ٤٧.
خنكاي : ٢٠ .
كرون : ١٠٩.
كنتي : ٢٠.
هندوكش : ١٩٢.

فهرس البحيرات

بلجون : ٧٦.
بلكاش : ١٩٨.
بويرنر: ٢٠.

فهرس الممرات

تسو ـ بون ـ كوان : ١٤٢ ـ ١٤٧.
دسونگاريا: ٤٧.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
كلمة شكر وتقدير	٧
المقدمة	٩
١ ــ المغول في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري	١٥
٢ ــ ميلاد جنكيز ـ خان وفترة طفولته	٢٥
٣ ــ فترة الشبيبة والزواج	٣٩
٤ ــ ظهور جنكيز	٥٠
٥ ــ جنكيز ـ خان يوحد القبائل المغولية ويكوّن امبراطورية «بداية الصراع مع وانـگ ـ خان»	٦٨
٦ ــ الحرب مع النيمانيين «نهاية جاموقة»	٩١
٧ ــ جنكيز ـ خان امبراطور المغول كافة	١٠٠
٨ ــ الصراع مع الشامان كوكتشو	١٢٢
٩ ــ الحملات العسكرية ضد التنگوت والصين	١٣٠
١٠ ــ جنكيز ـ خان في الصين (مقابلته مع يليو ـ تشئو ـ تسئاي)	١٥١
١١ ــ من حملة الكن العسكرية إلى الغزو الغربي	١٥٥
١٢ ــ الغزو المغولي «تمهيدات»	١٦٤

١٣ ــ العمليات العسكرية في تركستان وافغانستان وايران ١٧٧
١٤ ــ الحملة العسكرية الأخيرة في التنگوت وموت جنكيز ـ خان ٢٠١
١٥ ــ تراث جنكيز ـ خان ٢٠٨
١٦ ــ جنكيز ـ خان في حياته اليومية ٢١٨
فهرس أسماء الأشخاص ٢٣٥
فهرس البلدان ٢٤٠
فهرس الشعوب والقبائل ٢٤٣
فهرس الأنهار ٢٤٥
فهرس الجبال ٢٤٥
فهرس البحيرات ٢٤٦
فهرس الممرات ٢٤٦